وقفة على العتبة :

أنا أكتب إذن أهذي

عادل الأسطة

م.د. دار الأوفة.

تداعيات ضمير المخاطب

رواية

عادل الاسطة

تداعيات ضمير المخاطب

رواية
١٩٩٣

عادل الأسطة

مواليد مخيم عسكر ١٩٥٤. أنهى دراسته الثانوية عام ١٩٧٢. التحق بالجامعة الاردنية وحصل عام ١٩٧٦ على بكالوريوس في اللغة العربية وآدابها والتربية وعلم النفس. عمل بين عامي ٧٦- ١٩٨٠ مدرسا في مدارس مدينة نابلس وقراها. حصل عام ١٩٨٢ على الماجستير في الأدب الحديث والنقد. يحاضر منذ عام ٨٢ في جامعة النجاح.

سافر الى المانيا عام ١٩٨٧ وحصل عام ١٩٩١ على الدكتوراة في الأدب والنقد والتربية والعلوم الاسلامية من جامعة بامبرغ. عمل محررا ثقافيا في جريدة " الشعب" بين الأعوام ٧٩ - ١٩٨٢ و ٨٦ - ١٩٨٧. وصيف ١٩٩٢.

صدرت له الكتب التالية :

١- القصة القصيرة في الضفة الغربية وقطاع غزة بين ٦٧ - ١٩٨١. (رسالة ماجستير) (نابلس ١٩٩٣)
٢- دراسات نقدية . (١٩٨٧)
٣- اليهود في الأدب الفلسطيني بين عامي ١٣ - ١٩٨٧ (١٩٩٣) (رسالة الدكتوراة)باللغتين الالمانية والعربية).
٤- الأديب الفلسطيني والأدب الصهيوني (١٩٩٣)
٥- فصول في توقيع الاتفاقية (١٩٧٩). قصص قصيرة.
٦- الفارعة والشمس والبحر (١٩٨٧). قصص قصيرة.
٧- وردة لروز .... وردة لفائزة(١٩٩٣).قصص قصيرة.

وترجم عن الالمانية العديد من الدراسات، ونشرها في مجلة "الكاتب" المقدسيه خلال عام ١٩٩٢.

وهناك نص أدبي تحت عنوان " ليل الضفة الطويل"

أنا أحسن الناس تهذيبا في العالم، وأفتخر بأني لم أكن قط غليظا على ظهر هذه الأرض، وفيها من السخفاء الذين لا يحتملون، والذين يتشبثون بالناس ويقصون عليهم آلامهم أو ينشدونهم أشعارهم. لقد أصغيت دائما إلى أمثال هؤلاء الناس في صبر مسيحي حقا دون أن تخونني تكشيرة واحدة تنبي عما في روحي من ارتباك عميق. وكما يسخّر البرهماني التقي جسده للحشرات كي تصبح هذه الحشرات ذات نصيب في الطعام، فكذلك أنا قضيت شطرا من أيام كاملة منصرفا إلى هذه الحشرات الانسانية العنيدة الشرسة أصغي إليهم في هدوء وتنهداتي الداخلية لا يسمعها إلاّ الله، وهو الذي يجزي الاحسان بالاحسان.

هاينريش هاينه

× رايسيبلدر ×

تداعيات ضمير المخاطب

(مدخل)

تصل البناية، هذا الخميس، متأخراً بعض الوقت، تصعد الدرج رويداً رويداً، وتترك القدس، خلفك، لتذرعها أرجل المارة : عرب ويهود وأجانب من مختلف الجنسيات. تفتح الباب وتلقي التحية على صاحب الجريدة العجوز، فيخبرك هذا هذه المرة، خلافا لاحاديثه السابقة، أن رئيس التحرير يود رؤيتك. تذهب الى غرفة رئيس التحرير، وفي الممر تلتقي بالعاملين، تلقي عليهم التحية وتواصل السير سريعا. تقرع باب غرفة السيد الرئيس فيستقبلك هذا بابتسامته المعتادة ويزف اليك نبأ هاماً : "ثمة سيدة أجنبية تريد الالتقاء بك اليوم في الساعة الثانية عشرة ظهراً، ويبتسم ثم يضيف : "إنها في الأربعين" يصمت للحظة، ثم تفرقان في الضحك، فأنت تعرف ماذا يقصد من وراء عبارته. تتذكر قرنفلة في رواية نجيب محفوظ "الكرنك" وولعها بحلمي حمادة. تسترجع تعليق السارد على ذلك : "إني لا أجهل حال بعض النساء في تلك السن وولعهن بالمراهقين، والتفاني في ذلك لحد المغامرة والهوس".

تسأل عن بريد صفحة الثقافة، وتنهمك في قراءة قصائد المبتدئين. يدفعك قلق ما لأن تغادر، تلقي بالقصائد جانباً وتسأل نفسك : "سيدة في الأربعين. ماذا تريد ؟". يمر الوقت بطيئاً، تهرب القصائد والقصص من أمامك، تختفي عن ناظريك، تخرج أنت من المكان وأنت جالس مكانك، تسأل نفسك مرة ثانية : "ماذا تريد السيدة، ومن هي أصلاً ؟". تحملق في الساعة مراراً، يمر الوقت بطيئا، وحين تقترب الساعة من الموعد المحدد تغادر المكان. تتوجه الى دار النشر حيث تنتظر السيدة. تسلم عليها وعلى السيد صاحب دار النشر. تنظر اليها جيداً : سيدة شقراء، تبدو، على الرغم من أنها جالسة، طويلة، نحيفة بعض الشيء. يقدم صاحب دار النشر السيدة اليك، ثم تبدأ حديثها باللغة العربية، وحين تتحدث اليها تنسى أنك تتحدث مع امرأة ليست العربية لغتها الأم، فيلفت صديق لك قدم للتو انتباهك الى الأمر. يقول لك : "يفضل أن تتحدث باللغة الفصيحة وببطء ما أمكن". تشعر بأنك شبه مثقف. لقد اقترحت السيدة عليك أن تتكلما بالانجليزية فاعتذرت، لا لأنك تحترم لغتك القومية، فالانجليزية أيضاً ليست لغتها الأم، ولكن لأنك لا تريد أن تفضح نفسك : "مثقف -هكذا يعتقد- ولا أجيد الانجليزية" تقول، وتتابع : "ومحرر صفحة ثقافية في جريدة أيضاً".

تتحدث السيدة اليك : "لقد أخبرني صديقك ألف باء راء أنك تكتب القصة القصيرة، وأنك ترغب في اتمام دراستك العليا. فما رأيك في السفر الى أوروبا ؟"

تمر بذهنك رواية الطيب صالح "موسم الهجرة الى الشمال". تتساءل : هل قرأت السيده

الرواية المذكورة؟ وهل هي حفيدة ناظر المدرسة التي درس فيها بطل تلك الرواية ؟ وهل سأكون حفيده ؟ لقد انتحر بطل تلك الرواية بعد أن أدرك أن أهل الجنوب ليسوا بحاجة الى دراسة الأدب في مدن الشمال، فلماذا أبدأ رحلة انتهت مثيلتها بانتحار صاحبها ؟" وتسألك السيدة : "آه ماذا تقول ؟"، فتخبرها أنك حاولت ذلك في العام الماضي، ولكنك لم توفق. "هذا العام ستأتي. ثق في كلامي" تقول لك.

تخرج أنت والسيدة ألف نون والسيد ألف باء راء معاً. تذرعون شوارع القدس. تقتربون من باب العامود، فتخاف أن تواصل السير. "أحب البلدة القديمة، ولكني أخاف من احداث فجائية" تقول لهما، فتشجعك ألف نون على المسير. تتحدث عن قصصك ذات الرمز التاريخي، وتصاب أنت بالدهشة : "هل قرأت القصص ؟" تسألها، فتجيب : "انها مرحلة وتمر. لقد شهدت القدس مراحل شبيهة، يأتون ويذهبون. أنت أيضاً تكتب شيئاً شبيهاً !". تصمت وتتساءل : "من هي هذه السيدة التي تقول كلاماً كهذا. كلاماً يبدو دفاعاً عنك أكثر منك" وتهمس : "انها ليست كقرنفلة اذن، وليس الامر كما يتصور الكثيرون.

تسألك السيده عن أسرتك، وتصاب بالدهشة حين تعرف أنك ابن لعائلة لا يقل عدد أفرادها عن خمسة عشر فرداً. تخبرها أنك من يافا أصلاً، فتسألك : "يافا ! هل ينتابك حنين اليها ؟" فتعقب : "وأخن أيضاً الى يوم هادي، والى السير في شوارع القدس دون خوف".

وتتوقف عن الكلام. ترغب في أن تقول كلاماً كثيراً عن أشياء كثيرة، ترغب في أن تفصح عن أمنياتك ولكنك تخاف. تهمس : "يأتون ويذهبون يصادقون الناس، يتحدثون عن رغبتهم في مساعدتنا، يأكلون معنا ثم ..."

وتخاطبها قائلاً : "السفر ليس سهلاً. انني في الثلاثين من العمر"، تبتسم السيدة وتقول: "انها بداية الحياة" وتواصل الكلام معها : "ان علي يا سيدتي أن أتعلم لغة جديدة"، "لا بأس "تقول لك"، وتذهب معها الى بيتها في القدس القديمة، تشرب أنت وألف باء راء والسيدة ألف نون القهوة، وتتحدثون عن الدراسة في المانيا، ثم تغادران منزلها على أمل أن تلتقيا، من جديد، في منزلك. تذهب والسيد ألف باء راء الى البلدة القديمة، تدخلان مكتبة (ستيمانسكي) تشتريان كتب العبرية "ألف ميلم" ثم تعودان الى شارع صلاح الدين وتفترقان.

تذهب الى مكتب الجريدة، تنجز إعداد صفحة الثقافة، وتقول للسيد رئيس التحرير : "سأسافر الى المانيا. هكذا تقول السيدة" وتتابع : "إنها أستاذة في احدى جامعات المانيا، وتهتم بالأدب الفلسطيني" ويشجعك السيد رئيس التحرير، ويقول لك : "تذكرنا هناك"

ويضحك.

وتأتي السيدة لزيارتك، يأتي معها زوجها الذي لا يجيد العربية، ويأتي أبناؤها الذين يتكلمون العربية كأنها لغتهم الأم، يتناولون طعام الغداء، وتثرثرون. ويمعن السيد النظر في لوحة فنية على الجدار. يسألك، بعد أن يكون لفت انتباه زوجته اليها، عن الفنان الذي رسمها، "أنها لاسماعيل شموط" تقول له وتواصل : "إنه فنان فلسطيني مشهور واسم اللوحة عروسان على الحدود"، وتنظر الى اللوحة التي لفتت انتباهه : "رجل وامرأة وبندقية، ويرنو الرجل الى الحدود، وتبدو امرأته ساهمة حزينة، كأنها تتساءل : ترى هل حين يذهب سيعود ثانية؟"

تلتقي السيدة بأمك، فتقول لك : "عظيمة هذه المرأة. هل صحيح أنها خلفت أربعة عشر فرداً"، "نعم" تقول لها وتتابع : "وكان بامكانها أن تخلف أكثر".

تمدح السيدة أمهاتنا الصابرات، وحين يثني والدك - جهلاً ربما - على هتلر تحدق في لوحة اسماعيل شموط من جديد. وتتساءل : "ترى هل تظننا نازيين ؟"

تنظر السيدة في مكتبتك، ترى الصحف والمجلات وتخبرك : "إنها تفيدك في دراستك هناك، وتفيدنا أيضاً" وتتحدث لك أنها ترغب في دراسة الشعر الفلسطيني، ويمكن أن تعمل والصديق ألف باء راء معها.

"اذا كان ذلك يهدف الى دراسة أدبنا فلم لا ؟" تقول وتتابع : "ولا مانع من أخذها، فثمة أعداد منها في المكتبات العامة هنا".

وتثق في السيدة، وحين تتحدث أمك اليها، تقول لها السيدة ألف نون : "هناك سأكون له أماً ثانية. لا تخافي" وتتابع : "ابنك كنز، كنز ثمين، وينبغي ألا يبقى هنا".

وتغادر السيدة وزوجها وأبناؤها. توصيك بأبنائها الذين يقيمون في البلدة القديمة وتغادر هي الى المانيا. وبين الفينة والفينة تلتقي بأبنائها، تدعوهم لزيارتك، يقيمون عندك يومين، وتلتقون في شوارع القدس. وحين يتحدثون اليك يمدحون صاحب الجلالة، ويشتمون أبناء العمومة، ويسخرون من لهجة أهل الخليل، ويضحكون قليلاً على أهل القدس.

وتقرر السفر.

"جاء في كتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ :

كان في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم افرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود. فأنس بي وصار ملازمي يدعوني : يا أخي، وبيننا المودة والمعاشرة. فلما عزم على التوجه في البحر الى بلاده قال لي : يا أخي، أنا سائر الى بلادي، وأريدك تنفذ معي ابنك - وكان ابني معي، وهو ابن أربع عشرة سنه - الى بلادي يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية.

واذا رجع كان مثل رجل عاقل. فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل. فان ابني لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه الى بلاد الافرنج".

ويقلك الطائر الميمون الملعون الى المانيا. تتذكر كلمات صديقك البدوي الاردني الذي جاءك ذات نهار فرحاً، وقد سألته عن سر الفرحة غير المألوفة في حياته :"سأغادر الى موسكو. سوف أركب الطائرة لأول مرة في حياتي" وتتذكر سؤالك الساذج : "ألا تخاف ؟". "إنها التكنولوجيا" يجيبك، وتدرك أنك بدوي أكثر منه، وحين تصعد إلى الطائرة لا تشعر بأدنى شعور من الخوف.

تغادر الأشياء الأليفة كلها : قهوة الصباح وبكاء طفلتك الكبيرة وابتسامتها والشوارع المتسخة والمرأة السمينة التي تمازح السائق المسن الذي يجعلك كل يوم تلعن الشرق ألف مرة، وتغادر أيضاً الديكة التي تشبه الجنرالات ولا تملك سوى الرصاص لتطلقه عليكم !! وتتساءل : هل ستحن الى هذا الموت اليومي ؟"

وتبعدك الطائرة عن الشجر ونوافير المدينة وضجر المساء، وتفتقد الدوّار ومكبرات الصوت في الجامعة والطلبة الوديعين كقطط منزلية لا تأكل سوى اللحم البلدي ولا ترتدي سوى الأزياء المستوردة، وتهمس : "لن أرى من الآن فصاعداً شوارع المخيم وأطفاله البائسين" وتتساءل : "هل سأصبح أرنباً سميناً أو خنزيراً برياً"، ولا تدري ماذا يخبيء لك هذا الطائر.

وتخلف العديد من القصص التي لم تكتبها على الرغم من أنها كانت تلح عليك، وتترك الاسماء المستعارة والافكار التي تتزاحم على دماغك، ولحظات الكتابة، تحاول أن تكتب فتأتي الصغيرة وتقولك لك، أو هكذا تفهم من حركاتها : "كفّ عن الكتابة، ستغادر طويلاً". وتترك العديد من القراء ينتظرون قصة جديدة يبحثون فيها عن الأشخاص الذين تسخر منهم، وتنجو من شتيمة بعض منهم : هذا القاص بذيء، يكتب عن أصحابه ساخراً، ويتخلى عنهم أيضاً.

وتفتقد الاصدقاء : الشاعر الذي يذهب الى محام ليرفع ضدك دعوى بحجة التشهير، والشاعر الذي لم تكتب عن ديوانه مقالاً فيغضب منك، والقاص الاستاذ الذي لم يعجبه ما كتبت عنه فاتهمك بالسطحية.

يقلك الطائر الملعون الميمون، وتحزن على مقتل ناجي : "إن زرت لندن" تقول : "سأزور قبره، وسألم جثته وأعيدها الى الشجرة". وفي الطائرة لم تتساءل كما تساءل صديقك المتدين : "كوشير"، وتشرب العصير وتنظر الى جزر البحر المتوسط، وتهمس : وداعاً.

تصل مدينة "قلعة الحرية" قرب الرابعة مساءً. تخرج الى الشارع العام منادراً محطة القطار، وتسأل عن معهد غوتة. تتكلم الانجليزية مع السائق فيبتسم، ويشير اليك باصبعه نحو المعهد : "المعهد هناك، ولا حاجة لاكتراء سيارة"، وحين تصر، خوفاً من عدم الوصول الى المعهد، يقلك ويضحك، ربما بسخرية، وعلى بعد مائتي متر يقف. يقول لك : "تفضل، هذا هو المعهد"، ويتابع الحديث بأدب جم : "على أية حال، سوف أنتظر حتى ترى إن كان ثمة شخص هناك"، تذهب فترى امرأة عجوزاً، تحادثك بلطف وتأخذ الاوراق التي بحوزتك. تذهب الى سائق السيارة وتشكره على انتظاره. تنجز السيدة العجوز المعاملة، ثم تستدعي سيارة لتقلك الى غرفتك في منزل الطلبة الواقع على طريق بازل.

يستقبلك، هناك في المبنى، شاب نحيف طويل أشقر، في العشرين من العمر تقريباً، يتحدث بعصبية زائدة، وتكتشف، فيما بعد، أنه يكره الاجانب. يذهب معك الى الطابق الثاني من المبنى، يفتح الشقة المكونة من غرفتين، يعطيك مفتاح واحدة، يتفحص ما فيها من أثاث ويقول لك : "وقع". توقع على ورقة استلام الغرفة وينصرف.

وتقضي ليلتك الأولى في مدينة الحريه وحيداً. تنظر الى الغرفة والحمام والمطبخ الصغير، فتتحسر على الايام الدراسية التي أنفقتها هناك في الاردن. وتسأل نفسك : هل كنا، حقاً، نحيا حياة طلبة ؟؟ وتقارن بين سكن الطلبة هنا، وسكن الطلبة هناك، وتلعن هناك ألف مرة، تأخذ حماماً ساخناً وقبل أن تغط في نوم عميق، تهاتف صديقك في مدينة توبنجن وتعلمه بوصولك.

في صباح اليوم التالي تتعرف على جارك التركي الذي يقيم في شقة مقابلة. يسألك : مسلم. تجيبه : مسلم. يرحب بك ويدعوك الى غرفته فتقتسمان الطعام معاً، ويخبرك أن شخصاً عربياً جاءك أمس فطرق الباب وانصرف. يصطحبك الى المعهد، يعرفك على المدينة، وتذهبان معاً الى مقهى تركي، تحتسيان معاً الشاي، ولا تتكلمان كثيراً، فالألمانية التي تعلمتها لم تكن تسعفك كثيراً في مواصلة الحديث.

وتذهب في اليوم التالي الى معهد غوتة، تسأل ان كان ثمة عرب قد أتوا. وتلتقي نظراتك، في أثناء فترة الاستراحة، ونظرات شاب تخمن أنه عربي. تقول له : مرحباً، فيصافحك قائلاً : ينصر دينك، من أسبوع ما سمعت العربي. ويعرفك بنفسه : قادم من

دمشق، وأريد أن أواصل دراستي في الطب، وأنتظر صديقاً سورياً آخر. تنفقان النهار معاً، وفي المساء ينضم إليكما شاب مصري قدم نفسه على أنه أول طالب مصري درس في معهد وايزمان بعد معاهدة كامب ديفيد. ويعرفكما، فيما بعد، بدوره على صديقته اليهودية.

يتأخر السيد ألف باء راء عن المجيء. تذهب الى السكرتيرة الجميلة، ملكة الأناقة، وتسألها عنه، فتخبرك أنه سيأتي في العشرين من تشرين الأول.

تذهب الى محطة القطار، تنتظر السيد ألف باء راء حتى ساعات المساء، ثم تغادر المحطة خائباً. تذهب الى مبنى الطلبة، تلتقي بالسوري، وتتعرف على سوداني ثم تخرجون معاً. تذهبون الى مكدونالد، وتتعرفون هناك على مواطن لبناني غادر لبنان في أثناء الحرب الأهلية. يدعوكم هذا الى منزله لتناول كأس نبيذ، فتعلق ساخراً : هنا يتوحد الاخوة الاعداء.

في اليوم التالي يأتي السيد ألف باء راء الى معهد غوتة، تبصره في الصالة وتذهب اليه، تتصافحان، فيعلمك أنه سيقيم في بيت عجوز ألمانية. وتسأله عن الوطن الذي أخذ يبتعد رويداً رويداً، عن سبب تأخره في المجيء، ثم يتركك للحظة ويعود ليكمل حديثه. يرى الجميلات فيقول : أنا لا أستطيع البقاء وحيداً. ويسألك : هل تعرفت على فتاة ؟. فتعلق ضاحكاً : لم تصل بعد. ولا تذكره بزوجته التي ضخت كثيراً من أجله. لا تعيد على مسامعه ما كان يقوله لك سابقاً : "لقد تحدت أهلها واختارتني"، ولا تذكره بالرسالة التي كتبها اليك ذات يوم، يخبرك فيها إنه يائس جداً، وأنه فكر بالانتحار لأن زوجته كانت قد قررت إنهاء العلاقة معه، والموافقة على الزواج من طبيب." وتسترجع عبارته في الرسالة : "إن شجرة حبنا الباسقة قد تهاوت، وقد فكرت بالانتحار."

ويسألك السيد ألف باء راء عن السكن واللغة والحياة. يسألك عن الطلبة العرب، وتقدمه إليهم واحداً واحداً، تقول له : ثمة مصري هنا درس في معهد وايزمن، وله صديقة يهودية من اسرائيل. ويلعن ألف باء راء اللحظة التي جاء فيها الى هنا. يقول أمامك : "أنا لا أريد أن أقدّم نفسي على أنني قادم من الضفة الغربية. وحين يلتقي، في مطعم الجامعة، بالفتاة اليهودية لا يتحدث معها، ويبدي امتعاضه لأنه يسمع العبرية هنا. ويعقب: هل هذه لغة ؟ وتصمت. تقول : هناك أشياء ينبغي ألاّ يجادل فيها. وتتابع : على المرء هنا أن لا يقف عند كل صغيرة لا توافق آراءه، وعلينا أن نبحث عما يجمعنا، لا عما يفرقنا.

وتجوب والسيد ألف باء راء شوارع مدينة الحرية، تعرفه على بعض المحلات المشهورة، على الشوارع الرئيسية والكافتيريا الجامعية. وتمارسان عادةً يومية : ظهراً تذهبان الى مطعم

الجامعة، ومن ثم الى المكتبة، ومساءً تذهبان معاً الى مطعم الجامعة الآخر، تأكلان البطاطا، وتشربان البيرة ولا تكترثان كثيراً لتعلم اللغة.

في الحافلة التي أقلت الطلبة الى الغابة السوداء، تجلسان على المقعد نفسه. وتجلس اليهودية والمصري أمامكما. تنظران الى الطبيعة الألمانية، فتعقب الفتاة قائلة : "إنها تشبه بلادنا، صحراء القب"، وبدون أدنى حذر يبدأ السيد ألف باء راء حديثه معها. يتحاوران معاً، وفيما بعد، يجلس معها على المقعد نفسه. ينسى كراهيته لها وللغتها، وفي المساء، في أثناء العودة، تغادر الى منزل الطلبة الذي يقيم فيه المصري، وتقترح عليكما أن تذهبا معها ومع المصري الذي التفت الى فتاة أخرى. تعتذر أنت ويذهب السيد ألف باء راء معها.

تقول للسيد ألف باء راء في اليوم التالي : "ولكنك كنت تشتم اليوم الذي جئت فيه هنا لوجودها هنا". ينفعل ويقول : "لم أتحدث معها في السياسة. تحدثنا معاً عن الحب. عن مجيئها الى هنا. عن صديقها المصري وعن دراستها" ويتابع : "وسألتها أيضاً عن كيفية ارتداء الفتاة للبنطال الضيق جداً فأوضحت لي الأمر"، ويواصل: "وكانت تحدثني بدون أدنى حرج. لقد ذكرت أشياء تفصيلية" ويتعجب منك لأنك لم تجد صديقة خلال ثلاثة أسابيع من وجودك هنا، ويهمس : "وأنا شخصياً لا أستطيع أن أحيا بدون امرأة. لقد مرّ على افتراقي عن زوجتي ثلاثة أشهر". تقول له : "ولكنّ زوجتك تصبر" فيعقب : "النساء يصبرن".

في المطعم الجامعي يبدي ألف باء راء امتعاضه من طبيعة الوجبات المقدمة. "الألمان يسلقون كل شيء سلقاً" يقول : "يقلون الموز" ويتابع : "وهذا غريب. لأول مرة آكل موزاً مقلياً". "علينا من الآن فصاعداً أن نتعود على أشياء كثيرة. وربما نأكل لحم الخنزير أيضاً. "لقد قال لي أبناء السيدة ألف نون أنني ان لم آكل لحم الخنزير فسأخسر أفضل الوجبات" يعقب. وتتذكر الايام الاولى التي قضيتها قبل مجيئه، تقول له : "يوم الجمعة الأولى التي أنفقتها هنا ذهب الجميع الى المسجد، فدفعني الفضول لرؤية ذلك، وذهبت معهم. في الطريق وقفت والمصري أمام كشك ورأينا المجلات التي تعرفها، وفي المساء كان المصري ينام مع صديقته اليهودية" وتابع : "والغريب في الأمر أن المصري وصاحبته يسألان دائماً ان كانت وجبة اليوم تحتوي على لحم الخنزير، إنه يذهب ليقول للمرأة الألمانية : "نحن محمدانا"، وكذلك تفعل صديقته اليهوديه فتقول "كوشير".

وتعتري ألف باء راء حالة من الكآبة. لقد كان يصاب دائماً بالضجر أيام كان في الضفة وأيام كان هناك في عمان. ويسألك : "كيف ستتعلم اللغة ؟ لقد تأخرت عشرين يوماً عن

المجيء". تشرح له ما فاته وتقول له : "سوف تتعلمها كما تعلمها غيرنا". وفي كافتيريا الجامعة تلتقيان بطالبتين ألمانيتين. تذهبان اليهما وتسألانهما ان كان لديهما متسع من الوقت ليشرحا لكما بعض التمارين. ولا تمانع الفتاتان. وحين تسأل السمراء منهما ان كانت المانيه تبتسم، ثم تعتذر بعد قليل لأن موعد محاضرتها قد حان. وتبقيان : رجلان وامرأة. ويهمس ألف باء راء : إما أن نبحث عن ثانية أو ..." ثم تغادر المكان.

في اليوم التالي، في معهد اللغة، يحدثك عن الفتاة. يخبرك أنها تحب الموسيقى، وأنها فتاة يسارية. "لقد تحدثت باسهاب عن جيل الثمانينات واختلافه عن جيل الستينات" يقول لك ويتابع : "وأخبرتني أن الحكومات الألمانية عرفت كيف تدجن الطلبة. لقد أعفوهم أولاً من دفع رسوم الدراسة، وحسنوا السكن الجامعي، ومنحوهم المزيد من الحريات الشخصية، ووفروا لهم فرص العمل" يصمت للحظة ثم يتابع : "ولقد اتفقنا أن نلتقي غداً، وبدون انتقال طبيعي يتحدث عن زوجاتنا ووفائهن لنا. "إننا نحن الذين نخونهن" يقول لك، ويغادر مكتباً الى حيث يسكن.

يخبرك ألف باء راء أنه تأخر مساء أمس في المدينة، وأنه، وهو مغادر الى غرفته، ضلّ الطريق. "لقد اعترضني بعض السكارى" وشكّوا في أمري لأنني أبدو أجنبياً. وقد شتموني ولولا سائق الحافلة لضربوني"، وكانت نبرة ألم تطفى على حديثه. "هؤلاء هم الألمان" يقول ويتذكر نصيحة والده له يوم قرر السفر : "يا ليتني استمعت الى أبي. ليتني لم أتِ"، وفجأة يبدأ يحن الى أصدقائه هناك : "سوف أتصل بالمعهد حيث كنت أعمل، وأسألهم ان كنت أستطيع العودة الى عملي"، وتواسيه قائلاً : "يا سيد نحن لم نأت لنعود فاشلين. ماذا سيقولون لك غداً : لم تقدر على الغربة" وتذكره بمشكلته الخاصة : "ألم تقل إنك ستسافر الى المانيا لتحل، هناك، مشكلتك الخاصة، ولتحل مشكلة فلسطين هناك ؟" وتتابع : "تذكر التصاريح، وتذكر الاردن واسرائيل. إنها فرصتك الوحيدة لقضاء خمس سنوات، على الاقل، هنا بأمان. ألم تأت، أساساً، لهذا ؟ ألم تقل انك لن تهتم بالدراسة بقدر اهتمامك بزوجتك وطفليك ؟" ويصمت ألف باء راء.

تجوبان، معاً، شوارع مدينة الحرية شارعاً شارعاً. تبحلقان في واجهات المحلات الزجاجية، وتذهبان كل سبت والطلبة العرب الى سوق مدينة الحرية. تسترجعان الصورة المرسومة للمدينة العربية في العصور الوسطى. "هكذا" تقول "يخرج أهل المدينة كلهم الى الاسواق، يجلسون على مقاهي الرصيف، ويتناولون وجبة غدائهم في المطاعم العديدة المنتشرة

في كل مكان"، وحين تذهبان والطلبة العرب إلى بناية المطاعم العالمية تبحثان عن مطعم عربي فلا تجدان. وتتناولان ساندويش الشاورما من المطعم التركي، وتهمس : "حتى هنا يغيب العرب"، وتستمع الى ألف باء راء يعقب على ما يرى : "في أوروبا يجتمع العالم". وفي شوارع مدينة الحرية يحضر العالم بتراثه، يأتي الامريكيون الجنوبيون ليعزفوا موسيقاهم البدائية الجميلة، كأنهم خارجون للتو من الغابة. عالم بدائي ساحر. عالم طازج.

ويهاتف السيد ألف باء راء زوجته. يتحدث مع ابنه الصغير بفرح لا نهائي، وحين يضع يد الهاتف يحدثك ضجراً، يتأفف ويكاد يبكي. يقول لك : "هناك كنا نلتقي كل ثلاثة شهور، وهنا متى سنلتقي ؟" وتعتريه حالة من الصمت والاكتئاب لا يخرج منها إلا حين يبدأ الحديث عن صديقته الألمانية الجديدة. "لقد أهديتها الترجمة الألمانية لكتاب معين بسيسو" يقول لك، ويتابع : "إنها طالبة يسارية، ولكن ما يغيظني فيها أنها تحب الموسيقى الى درجة الجنون. تحفظ مواعيد الكونسرت غيباً، ولا تتردد اذا أعجبها عزف موسيقى معين أن تغيب عن المحاضرات، ولا تمانع أيضاً في السفر الى مدن بعيدة لأجل ذلك. وفي الأسبوع القادم ستسافر الى شتوتجارت لهذا" ويعلمك ألف باء راء بعد أيام أنه قضى معها ليلة كاملة وهما يسيران في الشوارع، "بقينا حتى الثالثة صباحاً نتمشى، وكانت تحدثني عن الطلبة والموسيقى، وقلت لعلها تدعوني لزيارتها في بيتها، غير أنها افترقنا ببساطة متناهية" ويتابع ألف باء راء : "وهل أنا بحاجة الى الحديث عن الموسيقى ؟" ويواصل : "وسألتني ان كنت سأبقى هنا مدة طويلة" وحين أجبتها : "ستة أشهر فقط، أبدت أسفها"، "لقد عقبت على ذلك قائلة : إنها مدة غير كافية لأن تقيم علاقة ما"، واقترحت علي أن نبقى أصدقاء"، ويتحدث ألف باء راء بسخرية مما يقال عن سرعة إقامة العلاقات هنا. "حين كنا نستمع الى غيرنا ممن جاؤوا الى هنا، ونحن هناك، كنا نظن أننا سنحل هذه المشكلة، ونحن على أرض المطار".

يجلس ألف باء راء في معهد اللغة ضجراً . "كنت أقف أمام الطلبة أخاطبهم لمدة ساعة ويزيد، والآن أجلس طفلاً لا يفهم ما يقال" يقول على مسمع الطلبة. ويتساءل : "ما الذي دفعني الى المجيء ؟"، ويتحدث عن أستاذ اللغة "إنه ألماني متعجرف. كيف ينظر إلينا" ويتابع: "ولكن ما يعجبني فيه عداؤه لامريكا. إنه يتحدث، بفرح، عن سقوط الدولار" وتقول له : "إن رأيي فيه لم يكن يختلف كثيراً عن رأيك، ولكن بعد جلسة مساء الاربعاء في أحد البارات بدأت أغير نظرتي هذه إليه. في البار يحدثنا حديث الأصدقاء"، "حقاً" يقول ألف باء راء معقباً على كلامك.

وفي صالة معهد غوته تجلسون عرباً معاً. الجزائري الذي لا يجيد العربية وتفضلون أن تتحدثوا معه بالألمانية، والسوريان والسودانيان الطيبان الى أبعد الحدود، واللبناني الذي يأتي أحياناً قليلة وينعزل أحياناً كثيرة، والمصري وصديقته اليهودية التي تأتي بين الفينة والأخرى، وأنتما : الديكان الفلسطينيان.

"هنا نتوحد" تقول، وتتابع : "وهنا نمتلك جميعاً الجرأة في السخرية من زعمائنا كلهم، وهنا أيضاً تصبح اللغه وطناً" وبفرح الأطفال في سنوات الدراسه الأولى تنتظران إنتهاء الدرس ونهاية الأسبوع.

"صحيح أننا نريد أن نتعلم الألمانية، ولن نتعلمها بسرعة" يقول ألف باء راء، ويتابع : "ولكننا لا نريد أن نخسر أنفسنا أيضاً". وينظر الى سويسري أصلع، كبير السن نسبياً، يتحدث بطريقة لافتة مع الجميلات الأنيقات، فيلفت انتباهنا اليه ويقول : "انظر الى هذا الذليل، من الأن فصاعداً سأسميه الذليل" وتحزن لذلك. تحاول أن تقول له "إن هذا لا يليق بك، وأن هذا أمر خاص، ولكنك تصمت. "علينا هنا أن نبحث عما يقربنا لا عما يفرقنا" تكرر هذه اللازمة. وفي فترة أعياد الميلاد تفترقان. تذهب، مع الطلبة، الى قرية لتقيم هناك أسبوعاً، ويذهب السيد ألف باء راء لاستقبال زوجته التي جاءت تزوره لمدة أسبوعين، وفي أثنائهما تذهبون معاً لزيارة السيدة ألف نون في المدينة التي تقيم فيها.

بعد مغادرة زوجته يعود السيد ألف باء راء الى حالته الأولى. تتفقان وتختلفان، ويبدأ هامش الاختلاف يتسع : اللغة والضجر والبعد عن الأهل والفتيات والمصري وصاحبته. وتزداد الهوة في برلين اتساعاً.

تسافرون الى برلين في الرحلة التي نظمها معهد غوته في نهاية كانون ثاني. ويتفق العرب في أثناء الرحلة، وهم في الحافلة التي أقلتهم وغيرهم من أبناء شعوب العالم، وينفقون أجمل ليلة في التاريخ. تسهرون حتى الصباح، ويشاركهم السائق ضحكهم على الرغم من أنه يجهل لغتهم، ولا يعرف عما يضحكون. يكون لهم حضورهم المميز، ألفتهم غير المعهودة، وحدتهم وجلوسهم، وصوتهم الذي ظل ذا حضور حتى الصباح. ويغيب العالم في أثناء حضورهم.

"نذهب لنزور السيد همسان يقترح عليك ألف باء راء"، بالطبع تجيب، وتتابع : "إن جزءاً من مخطط قدومنا الى برلين يكمن في زيارة همسان". وتتصلان به فيأتي لاصطحابكما الى بيته. وحين تصلون الى هناك يقبل همسان زوجته أمامكما. يهمس ألف باء راء" إنه يفعل ما يفعله الاوروبيون، ويبدو أنه أصبح مثلهم".

وتلتزم الصمت. "لسنا بحاجة الى مزيد من الاختلاف، فثمة سنوات عديدة سوف نقضيها معاً" تقول وتواصل "وهناك في المدينة التي ستقيم فيها ربما لا يكون من العرب سوانا". ولكن الخلاف سرعان ما يدب بينكما. تغادران وهمسان بيت همسان قبل أن تمكثوا نصف ساعة، تذهب الى بيت الشباب الذي تبيتون فيه، ويذهب ألف باء راء وهمسان معاً. وفي اليوم التالي يعود الود بينكما من جديد.

وتغادران برلين مكتئبين قليلا. لقد ذكرتكم برلين بمأساتكم. برلين الغربية وبرلين الشرقية ونقطة العبور. الضفة الغربية والضفة الشرقية ونقطة العبور. الجدار المميت هناك، والسياج المميتة على ضفة النهر. "هنا، تماماً، كما هناك" تقول "تنقسم العائلة الى قسمين، قسم داخل السياج وآخر خارجه". وتستمع الى مرشد السياحة وهو يتحدث عن عدد القتلى الذين حاولوا اجتياز الجدار هرباً.

تقول للسيد ألف باء راء : "لقد حزنت جداً لزيارة برلين" وتتابع : "ويحزنني أكثر أن فكرتي عن الاشتراكية قد بدأت تتهاوى أمام ما أرى" فيجيب : "هذا هو القصد من الرحلة. سيقولون لنا : انظروا كيف يمتاز العالم الرأسمالي عن العالم الاشتراكي". "من يدري" تقول وتتابع : "اذا كان هذا الجدار سيبقى حتى الأبد" وتواصل بألم : "ولكن جدراننا قد لا تزول".

يتذكر ألف باء راء زوجته وأطفاله فيزداد حزناً. ويهمس : "لقد قدمت الى هنا من أجل حلّ مشكلتي الخاصة. هي شرق النهر وأنا غربه" ويتابع : "وأنت تعرف كم كلفتني رحلة زوجتي قبل ثلاثة أسابيع حين قدمت الى مدينةالحرية. لقد كان زواجنا في السنوات الثلاث الاخيرة زواجاً بالمراسلة". ويكرر ألف باء راء مقطعاً من قصيدة محمود درويش : "هذا هو العرس الفلسطيني، لا يصل الحبيب الى الحبيب الا شهيداً أو شريداً". ويوحدكما الهم الفلسطيني من جديد.

تسأل السيد ألف باء راء : "أما زلنا على اتفاقنا بزيارة السيدة ألف نون ؟" وتواصل : "لقد وعدناها وهي بانتظارنا". يتأفف ضجراً ويقول : "أنا لم أقل لك حقيقة ما حدث معي ومع زوجتي حين مكثنا عندها بعد مغادرتك والسيد نبيل وأبو حميد. في اليومين اللذين مكثنا فيهما لم نر وجهها. لقد أهملتنا إهمالاً كبيراً وتمنيت لو لم أت الى المانيا. وقد لاحظت زوجتي هذا، فذكرتني بما حدث معنا ذات مرة في القدس. لقد كنّا على موعد مع السيدة ألف نون، وحين ذهبنا تجاهلتنا. قال لنا أبناؤها إنها ليست هنا، على الرغم من أنها كانت موجودة. ويومها كنت قررت ألاّ أسافر الى المانيا" ويتابع : "ولذا فلن أذهب". "ولكننا اتفقنا"

ترد عليه، وتغادر وحدك "علينا أن نعطي صورة جيدة عنّا نحن العرب" تقول وحين تعود من جديد الى مدينة الحرية تزداد الهوة اتساعاً.

تذهبان الى المدينة الجديدة فاشلين. تقيمان لفترة في منزل ألف نون وتبحثان عن مسكن، وتتعرفان على المدينة الجديدة كلها. حين يرى ألف باء راء أن المدينة صغيرة، وليست ذات تقاليد جامعية يقول لك : "لقد جئنا من الضفة الى الضفة، والأصح من المخيم إلى المخيم" توافقه الرأي، وتتابع : "ولكن الفارق أننا هناك كنا بين أهلنا، وهنا سنكون العرب الوحيدين"، وتتابع : "ومن الصحراء الى الصحراء، ولكن ....".

يعثر ألف باء راء عن مسكن ضيق في منزل الطلبة، فيفرح لذلك : "لقد كان حلمنا دائماً أن نعيش معاً" يقول لك ويتابع : "صحيح أن الشقة صغيرة، ولكن زوجتي ستفرح بها، فهي لا تحب الشقق الكبيرة".

ومنذ اللحظة التي وجد فيها ألف باء راء السكن كفّ عن شتم الألمان. ولم تعد تسمع منه عبارات يشتم فيها هؤلاء بسبب كرههم للاجانب. يمدح المسؤول عن مبنى الطلبة. يتحدث عن استقباله له، ويستخدم، باستمرار، صيغة الخطاب التعميمي : "الألمان طيبون" يقول، وينسى كل ما حدث معه وما قاله. تتغير أحواله وتتبدل، ولم يعد يشعر بالندم إلاّ قليلاً. ويتمنى لو تأتي زوجته الساعة قبل الغد. يباتفها، يتحدث إليها بفرح، يخبرها أنه محظوظ لأنه وجد السكن بسرعة، ويطلب منها أن تعجل في المجيء. وحين تأتي والأطفال يشعر بفرح لا نهائي، ويهمس : "لقد نجحت فيما خططت إليه. هنا سنحل مشكلتنا ونعيش خمس سنوات أو يزيد" ويتابع : "ولعل القضية الفلسطينية تكون وجدت حلاً لها حتى ذلك الوقت".

يتحدث ألف باء راء عن طفليه بفرح، يخرج بهما الى الحديقة العامة، ويذكر أمامك أنهما ذكيان لدرجة لا تتصور، ويتوقع لهما مستقبلاً باهراً. "وإن كنت آسف على شيء، فانما آسف لعدم تعلمها اللغة العربية هنا" يقول على مسمعك، ويتابع "فالكبير موهوب في اللغة العربية". وتبتسم لهذا المديح، فالكبير لم يتجاوز الرابعة من العمر بعد.

يدعوك ألف باء راء الى طعام الغداء. تتحدث زوجته إليك وتبدي سرورها لأنكما معاً. تسألك عن زوجتك، وتتحدث لك أنها حين التقت بها في كانون ثاني في الاردن لم تأخذ انطباعاً مريحاً. "لقد جاءت على عجل مع قريبها، وبدت مريضة نوعاً ما". "لم أجد مسكناً بعد، ولعل زوجك أخبرك" تقول لها. ويأتي فالح والناصرية ليتعارفا على القادمة الجديدة.

حين يعلم ألف باء راء أنك قدمت السيد فالح والناصرية الى الدكتورة ألف نون يشعر

بامتعاض، ويزداد حزناً حين يعلم أن هذه قد سرت لمعرفته، وأنها تحدثت معه ومع الناصرية، وطلبت منهما أن يمكثا هنا لإكمال دراستهما معها، ولكن ذلك لا يفسد عليه أجواءه الجديدة.

وتذهبان من جديد الى محاضرات اللغة والأدب الألماني، لتبدأ مشكلة اللغة من جديد. تستمعان الى المحاضرين، ويؤثر ألف باء راء الانسحاب من مساقات الأدب الألماني. "لم أكن أتوقع أن تكون اللغة على هذه الدرجة من الصعوبة" يقول لك، ويتابع : "وأنا في محاضرات السيد حصوة والسيد ديك أشعر بوجع رأس شديد"، ويتذكر ألف باء راء أحد الطلبة العرب الذين جاؤوا ليدرسوا هنا، لكنه عاد بسبب صعوبة اللغة مرتين. "تعرفه، داوود" يقول لك : "كان يصاب بصداع شديد في محاضرات اللغة". فتهمس : "علينا أن نصبر"، ويحتج ألف باء راء حين تتحدث ألف نون في محاضراتها بالألمانية : "لقد أحضرتنا الى هنا، وقالت لنا إنه بالامكان أن تكتبوا اطروحتكم بالعربية، ويمكن أن تقوموا بترجمتها" يقول ويتابع : "وها هي منذ المحاضرة الأولى تتكلم بالألمانية"، يبلغها بصعوبة ذلك، فتخبره أن فالح يمكن أن يساعده. "إنه يجيد الألمانية" تقول له وتتابع : "ويمكن أن يساعدك في فهم مالا تستطيع فهمه". وتبدأ لعبة ألف نون المفضلة : المفاضلة والتمييز.

يأتي ألف باء راء ويقول لك : "لقد حصلنا على الماجستير من جامعة عربية، ولم يعترف لنا بها"، ويتابع: "وها هي الدكتوره ألف نون توافق لفالح أن يكمل دراساته العليا في الأدب العربي، على الرغم من أنه درس الأدب الانجليزي". وحين يكرر ذلك، فيما بعد، أمام زوجته تعلق هذه : "إن أصدقاءنا في الأردن قد أخبروني عن مرضها في التمييز، وتساءلوا كيف يذهب السيد ألف باء راء ليدرس معها ؟".

تكرر على مسامع ألف باء راء : "علينا أن نصبر. لقد جاءت زوجتك، وبامكانك أن تعيش هنا بهدوء". وتشجعه على زيارة محاضرات الأدب الألماني : "لم أكن أفهم شيئاً مما يقوله الدكتور حصوة والدكتور ديك" يقول لك، ويتابع : "وذهابنا للمحاضرات سدى، وربما أفعل ذلك في العام القادم". ويبدي ندمه الشديد لأنه استجاب للدكتوره ألف نون، وسجل مادة الأدب الألماني تخصصاً فرعياً. "هناك في القدس، اتفقنا على أن ندرس التاريخ تخصصاً فرعياً، ولكنها هنا تطلب منا أن ندرس الأدب الألماني" يقول، ويواصل : "وما حاجتنا هناك، حين نعود، الى مثل هذا التخصص"، وتجيبه : "تحاول، وإن لم نستطع نعود وندرس التربية".

يمكث ألف باء راء معظم الوقت في بيته. يأتي الى الجامعة قليلاً، وحين تلتقيان يبدي أمامك الندم لمجيئه الى هذه البلاد. يتذكر وعود الدكتوره ألف نون له، ويتحدث بأسى.

"تكتبون بالعربية وأنا أترجم لكم" كانت تقول، يقول ويتابع : "وهنا تغضب اذا لم نحضر محاضرات الأدب الألماني، والأصعب من ذلك كله أنها تتحدث في محاضراتها، بالألمانية، وبسرعة عجيبة". وتزداد شكواه : "لقد وعدتنا هناك بالعثور على مسكن واسع، وبايجاد عمل إضافي" ويتذكر أيامه الخوالي في القدس : "صحيح أن حالة الضجر هذه كانت تنتابني هناك، إلاّ أنّ ثمة فارقاً كبيراً، هناك كنت أخرج فأجد ألف صديق، وهنا نوشك أن نخسر بعضنا البعض".

حين تقيم وفالح والناصرية حفلة في بيت الدكتورة ألف نون، تحضر زوجتك، وتحضر زوجة ألف باء راء ويعتذر هو. ولا تعرفون سبباً لذلك. ولكنك سرعان ما تتذكر الأحوال التي بدأت تلم بألف باء راء حين كثر لقاء فالح بالدكتورة ألف نون. يأتيك متأزماً، يتحدث لك عن معاملة الدكتوره له، ويقول : "إنها لم تعد ترى هناك، في هذا العالم الواسع، شخصاً جيداً سوى فالح" ويتابع : "وإنها الآن لم تعد معنية بمجيء كاسب الى هنا"، ويضحك ألف باء راء، ويقول: "إن فالح هو الكنز الجديد، الكنز الدفين المكتشف، وقد أصبحنا الآن تراباً". ويتابع : "وهذه هي الدكتوره ألف نون، تفرح لكل جديد، وتنسى القديم".

تطلب ألف نون من ألف باء راء ذات يوم أن يُترجم نصاً من العربية الى الألمانية وحين يعتذر تجيبه : "لا أريد أن أسمع منك هذا، أنت هنا لتدرس، حاول دائماً." وتخبر ألف نون، فيما بعد، روزو أن ألف باء راء كان يسخر من ترجمات الطلبة العرب، وأنها حين كانت تستمع اليه، كانت تقول له : "وهل ترجماتك أفضل ؟"

يأتي ألف باء راء اليك بين الفينة والأخرى. يتحدث عن فالح والناصرية. يخبرك أن هذه قد قللت من زياراتها له ولزوجته يتحدث لك عن طباعها الغريبة، ويسألك إن كنت تلاحظ هذا. يتحدث عن فالح، ويقول لك: "إن فالح شخص متساقط" ويتابع : "وقد أخبرني صديق لي أنه، وهو هناك، اعترف على صديق له للمخابرات".

تسأل ألف باء راء عن اسم الصديق، فيعتذر. تقول له : ربما تكون هناك عداوات بينهما" فيجيبك : "أنا أثق بصديقي".

تترك ألف باء راء، ومنذ تلك اللحظة تلتقيان نادراً. يحييك وتحييه، وفي نهاية شباط تعرف من ألف نون أنه ينوي السفر الى بون، تسألك أمام صديقه البغل عن سبب ذلك، فتضع إصبعيك في أذنيك وتقول : "لا أعرف، ولا دخل لي".

حين تلتقي مع ألف باء راء من جديد، يردد أمامك : "كنت دائماً أقول : إن عداوتك أفضل من صداقتهم".

ويدعوك لتناول الطعام معاً. تذهب مساءً، تحدث أطفاله وتتذكر أطفالك، ويذهب هو لطهي الطعام. "إن زوجتي في المعهد" يقول ويتابع : "وربما تتأخر قليلاً، وأنا أقوم بشؤون المنزل في غيابها". يحدثك عن الحرب العراقية - الامريكية، ويطنب في الحديث عن أوضاع الناس تحت الاحتلال. يقرأ عليك بعض رسائل وصلت إليه حديثاً من الأهل. يتحدث عن دراسته، ويبدي شوقاً كبيراً للسفر الى الضفة. "كلها عام وتعود حتى الأبد" تقول له.

ويبدأ من ثمّ الحديث عن الدكتورة ألف نون. "لم ألتق بها منذ فترة" يقول " وحتى الأن لم أعطها أي فصل لتقرأه" ويتابع : "إنها دائماً على سفر، وقد عادت حديثاً". تقول له : "حسن علاقتك معها حتى تنهي دراستك" وتتابع : "لقد أخبرتني أن هناك من أبلغها أنتا تتهمها أمنياً، وأنا بدوري نفيت هذا، وقلت لها ألاّ تلتفت كثيراً الى مثل هذه الأقوال"، وتبلغ ألف باء راء أنك أبلغتها أيضاً أنك لن تكمل دراستك معها، وأنها غاضبة الآن منك أكثر من أي شخص آخر. "أنا لن أكترث للأمر كثيراً" تتحدث لألف باء راء" فهي ستسافر في الفصل القادم حيث أنها تعاقدت مع جامعة أخرى، وبالتالي فليس هناك أي خوف".

وأنت في بون، ترسل بطاقة إلى ألف باء راء وزوجته. وحين تعود في فترة أعياد الميلاد يتصل بك، يحدثك بانفعال عن حرب تدمير العراق ويبدي اعجابه الشديد بصدام. وتلتقيان، في هذه الأثناء، في كافتيريا الجامعة. يحذرك من فرانسيسكا : "لقد تغيرت بعد أن ذهبت الى اسرائيل" يقول لك ويواصل : "وهي تذهب الأن للكنيس وتحضر الندوات، وقد أصبحت مقربة جداً من بيو ابنة ألف نون بالتبني. لقد تغيرت كثيراً".

فجأة يتغير ألف باء راء. يزور المحاضرات بشكل يدعو الى العجب، ويتعلم العبرية، وحين تعود من بون بعد اندلاع الحرب يدعوك الى تناول الشاي معاً. تذهبان الى المقهى، وتعتذر عن شرب الشاي : "لقد كنت عند طبيب الأسنان" تقول له. ويثير ألف باء راء العديد من الأسئلة ويكرر كلاماً كان يقوله وكأنك كنت أنت قائله. "لا بأس" تقول، "فأنا لا أدرس مع السيدة ألف نون" وتبلغه أنك اتفقت مع الدكتور وحش ليكون أستاذاً ثانياً لك. وتهمس : "فليبرِ، نفسه إن أراد، ولينسب الكلام الى الشيطان".

يمد السيد ألف باء راء يده الى الحقيبة، يقلب الشريط، ويواصل الاسئلة ويكون لقاؤكما الأخير.

في حفلة الوداع التي أقيمت على شرف ألف نون يلحظك ألف باء راء وماورو وصديقته بربارة لا تفاجأ لجلوسه مع كاسب وفرانسيسكا : "أنا أعرف أنه مزاجي لدرجة لا

تصدق" تخاطب نفسك، وينظر إليك غير مرة. وفي صباح اليوم التالي يذهب ويسلم الشريط الى أستاذ الآداب التركية.

لقد أنتهت الحرب بتدمير العراق، وانتهت علاقتك بألف باء راء حتى الأبد بتسليم الشريط. وتحاول أن تجد كبير فرق بين الجندي العراقي الذي خرج من مخبأه رافعاً يديه مقدماً على تقبيل الجندي الامريكي، وبين تسليم ألف باء راء للشريط فلا تجد. تتذكر ما كان قاله عن فالح : "إنه متساقط" ويتابع : "وربما أخبر ألف نون بما قيل على لساننا عنها"، وتتذكر اتصالك الأخير معه وحديث زوجته : "يا متساقط" وتتساءل : "من المتساقط فينا كلنا ؟، "فالح أم ألف باء راء أم أنت". "لقد حاولت إنقاذه" تقول، وتواصل : "وأسلمني هو إلى الترحيل والإبعاد".

فيما بعد تعرف أن الذي حال دون إبعادك من المانيا كان النظر الى وضعك وفقاً لظروف الحرب. "لقد قلبت الحر أوضاعنا كلنا رأساً على قدم" تقرأ في الرسالة القادمة إليك من الأستاذ وحش.

وتتمنى لو أنك لم تعرف ألف باء راء إطلاقاً.

تتصل من مدينة الحرية بالسيدة ألف نون، تقول لها : "لقد وصلت الى هنا منذ شهر تقريباً" وتتابع : "وها نحن نتعلم اللغة". تشجعك على ذلك وتتمنى لك وقتاً طيباً، ولا تنسى، في أثناء الاستعداد لاحتفال عيد الميلاد، أن ترسل لك الهدايا. تذهب وألف باء راء الى صندوق البريد الخاص بكل منكما في المعهد وتفاجآن : "علبتا ماكنتش وطقما أقلام حبر وبطاقة واحدة على ظهرها كتابة بالعربية". تشكران السيدة ألف نون، وتذهبان بسرعة الى المبنى التجاري في المدينة، تشتريان بطاقتين وترسلانهما الى السيدة ألف نون وزوجها، وتهمس : "تلك عادة لم تألفها" ويتابع ألف باء راء : "إن الأعياد في الشرق تمر دون أن نكتب لأحد" وتعلق : "هناك طعام وكساء وزيارة المقابر" وتتابع : "كان بامكانها أن تكتفي بالبطاقة، ويبدو أنها تعلمت هذه العادة، عادة إرسال مواد للأكل، من العرب"، ويخبرك ألف باء راء إن في السكن الذي يقيم فيه شباباً ألماناً يتلقون باستمرار من جداتهم أشياء كهذه.

وحين تأتي زوجة ألف باء راء يتصل بالبغل صديقه لتلتقوا جميعاً في بيت السيدة ألف نون. "ولكننا سنسافر في شهر شباط لمدة أسبوع" تقول لألف باء راء، فيقول لك : "ونسافر أيضاً في هذا الشهر". وهناك في بيت السيدة تلتقون : عربيان قادمان من مدن ألمانية وأنت وألف باء راء وزوجته، وتنفقون ثلاثة أيام معاً. تثرثرون عما يجري في الوطن البعيد، وتتحدثون عن إمكانية العمل في المشروع الذي تستعد ألف نون لإنجازه. وفي لحظات الهدوء يذهب زوج ألف نون ويحضر الطبل : "دعنا نطرب قليلاً" يخاطب البغل " فأنت تجيد الضرب عليه". يتردد البغل قليلاً، ثم يبدأ قرع الطبل ويتوقف، فيطلب منه أن يواصل : "إنه تراث" يقول زوج ألف نون ويتابع : "ونحن نطرب لهذا أيضاً".

وتزور الدكتورة ألف نون ثانية وأنت عائد، في شباط، من برلين. تحزن قليلاً لأن ألف باء راء لم يف بوعده، ويزداد حزنك لأنك تنفق ليلتك وحيداً في محطة وقود. وتسهر حتى الصباح : يأتي السائقون، يجلسون قليلاً، يشربون القهوة ثم يغادرون. وتنظر الى شابين صغيري السن يسهران حتى الثالثة صباحاً. وتتذكر : "يوم كنت في سنهما، كان ينبغي علي أن أمكث في البيت منذ الساعة السادسة مساءً على أكثر تقدير. هناك الاحتلال والخوف والموت" وتتابع : "والشيء ذاته يعاني منه شبابنا الآن، هذا إذا لم ينفقوا إبان الانتفاضة أسابيع في المنزل". وتهمس : "نحن مساكين، إننا نحيا بيولوجيا فقط" وتتابع : "والبهائم هنا تحيا أفضل بكثير مما نحيا نحن هناك".

تعطيك السيدة مفاتيح شقتها، غير المسكونة، التي أعدتها لاستقبال الضيوف فقط، وتقول لك : "حين لا تجد سكناً يمكن أن تقيم في هذه الشقة" وتتابع : "ولكننا نبحث لكم عن سكن منذ الآن". تقدمك السيدة ألف نون الى الأستاذ ديك، وتدعو هارالد لاصطحابك خلال فترة إقامتك. تتعرف على المدينة جيداً، تهاتف زوجتك: "إنها مدينة جميلة" تخبرها، وتتابع "وعلنا نعثر على سكن في أقرب فرصة". وفي المساء، تصطحبك السيدة الى الجامعة للاستماع الى المحاضرات. تقدمك الى الأساتذة الزوار القادمين. "عربي من لبنان، يدرس في المانيا منذ ثلاثين عاماً، وقد ترجم القرآن الى العربية" تقول لك بعد الانتهاء من الاستماع الى المحاضر ودعوته الى بيتها.

وتنقلك من أجواء الطلبة المبتدئين الى أجواء طلبة الدراسات العليا. "أنت لست طالباً، أنت زميل لنا، وينبغي أن تتخلص من الشعور بالخجل ما أمكن" تقول لك، فتجيبها : "حين أتقن اللغة"، وتشجعك قائلة : "سوف يتم لك ذلك". وتصطحبك السيدة وزوجها الى بيت طالب يسكن في مدينة قريبة : "إنه يدرس الاستشراق، وستتعاونون معاً، وهو يتعلم العربية أيضاً، وبالتالي يمكن أن يستفيد أحدكما من الآخر" تقول وتواصل : "هذه هي طبيعة دراستكم. أنتم تستفيدون منا، ونحن نستفيد أيضاً من وجودكم هنا". تحدثك ألف نون على مسمع من زوجها كارل عن ماضيها. تقول لك : "لقد ذهبت إلى اسرائيل لأدرس فيها عام ١٩٦٨. كنت يومها من الجيل الاوروبي الغاضب الذي ثار على جيل الآباء وتمرد على كل شيء. لقد تعاطفت مع اليهود كثيراً، وهناك التقيت بكارل الذي كان يدرس العلوم التوراتية منذ عام ١٩٦٦ وتزوجنا وأنجبنا في القدس طفلنا الاول". وحين تغادر منزلها، تذكر السائق الذي أقلك الى مدينة الحرية بأنك لا تعرف البلاد بعد، وتطلب منه أن يوصلك الى حيث تريد، وتودعك تاركةً لديك انطباعاً جيداً. تتذكر كلماتها لأمك : "لا تخافي عليه، سأكون له أماً ثانية".

وتعود في نهاية آذار، الى الشقة نفسها، بصحبة ألف باء راء. يعطيكما زوجها مفاتيح الشقة، ويخبركما أن زوجته ما زالت في القدس، وأنها ستعود قريباً. يحضر لكما آلة صنع القهوة وكيلو من السكر ونصف كيلو من القهوة ويتركككما. وفي صباح اليوم التالي يبدأ معكما رحلة البحث عن السكن. يصطحبكما أولاً الى دائرة تسجيل الأجانب، والى بنك درزدنر ومن ثم الى شركة التأمين الصحي، ويشير باصبعه الى سوبر ماركت في ساحة المدينة : "إنّ بضاعته جيدة وأسعاره معقولة" يقول لكما. ولا تكترث للأمر إطلاقاً. وفيما بعد تواصل الذهاب الى

السوبر ماركت نفسه، تشتري منه، وبعد أن تتعرف الى مانويل تلتقي بهذا بكثرة هناك. وحين تستمع الى بعض الطلبة يتحدثون عن اليهود هناك تتساءل : "ربما يكون السوبر ماركت ليهودي". كان الطلبة يقولون : "إنّ من عادات اليهود في المدينة، أية مدينة في المنفى، أن يشتروا فقط من المتاجر التي تخص اليهود، وأنهم، حين يفتتح أحد اليهود متجراً، يشترون منه باستمرار، وبشكل مكثف في الأشهر الأولى". وفيما بعد تفكر: "ربما يكون هذا هنا فقط، أو ربما هي عادة بشرية، وربما ما زال اليهود يعيشون في الغيتو".

تأتي السيدة ألف نون من القدس، تلتقي بكما وتفرح لوجودكما : "نحن عائلة" تقول على مسمعكما وتكرر ذلك دائماً، وتقول أيضاً : "وسنلتقي دائماً خارج إطار المحاضرات". "وحين تأتي زوجتك" تقول لك : "سنجتمع معاً كثيراً حتى لا تشعر بالغربة".

وتسافر أنت وألف باء راء مع زوجها، بسيارته، الى مدينة قريبة. تشترون الأثاث بأسعار مخفضة، وحين تشكرانه قائلين : "لقد غلبناك" يجيب : "إنه جزء من عمل الدكتورة" ويتابع : "إنها بحاجة لكما والى طلبة آخرين".

وتسر السيدة ألف نون كثيراً حين تعرفها بفالح والناصرية. "ها هي الدائرة تكبر" تقول وتواصل فرحة : "وهذا يقلل من غربتكم" وتبدي رأيها الذي كونته عن فالح" إنه يبدو شاباً لطيفاً. إنه كنز. كنز ثمين" وتقول الشيء ذاته عن الناصرية. وتتحدث عن الفتيات الألمانيات، وتقول لك ولألف باء راء مبتسمةً : "خذا بالكما من الفتيات الألمانيات" وتتابع "ولكن لا بأس من الاستمتاع بالحياة هنا أيضاً".

وتفرح ألف نون لمجيء زوجتك : "الآن تستقر جيداً" تقول لك، وتعرض عليك وعلى ألف باء راء أن تسافرا في إجازة الصيف الى سويسرا : "هناك نملك منزلاً صغيراً" تقول "ويمكن أن تسافرا في الاجازة لتنفقا أسبوعاً أو أسبوعين" وتواصل : "فأنتما هنا ليس للدراسة فقط، عليكما أن تعرفا أوروبا جيداً" وتحضر أوراق معاملة الحصول على فيزا للسيد ألف باء راء، وتكتبها له، وحين تحصلان على مبلغ من المال خارج إطار مبلغ المنحة لقيامكما بالتدريس معها، تقول : "هذا المبلغ من أجل أن تستمتعا به وزوجاتكما"، "هذا ليس له، إنه لكِ" تخاطب زوجتك، وتعتذر لها لأنها لم تأت لتسلم عليها : "تعرفين، إنني مشغولة جداً، وأسافر الى القدس كثيراً" وتواصل الكلام مع زوجتك : "ولكني مسرورة جداً لأنك لست وحيدة هنا، فالناصرية وزوجة ألف باء راء وطالبات الاستشراق يمكن أن يساعدوك كثيراً، وأن يخففوا من شعورك بالغربة".

وتسافر ألف نون الى القدس من جديد. تعتذر لكما في أثناء عودتها، بأنها لن تتمكن من توفير عمل إضافي لكما. "لقد جاءت بيبو من بوخم وهي تعمل معي" تقول وتتابع. "والمشروع لم يوافق عليه بعد لعدم حصول نون على الدكتوراة" وتصمتان، في حين تواصل كلامها : "ويمكن أن تصبرا قليلاً" وحين يبدأ المشروع وتوظف البغل وفالح تعتذر لكما من جديد : "حين يحصل فالح على منحة تعملان مكانه".

تقدمان للسيدة ألف نون بحثين، فتردهما لكما : "لا أريد كتابة كهذه" تقول "وعليكما أن تكتبا بلغة أفضل" وتنسى ما كانت قالته لكما في القدس، وتتعمق لديكما فكرة بدأت تتشكل عنها في الفصل المنصرم : "إنّ الدكتورة ألف نون مزاجية" وحين تقصان هذا أمام الطلبة الألمان، يقرون بذلك، ولكنهم يقولون : "ربما يعود ذلك لأوضاعها العائلية، فالسيدة ألف نون تختلف عن الاساتذة الألمان. إنّ اسرتها كثيرة العدد، وتبدو على خلاف مع زوجها".

وحين يأتي البغل في أواخر شباط ليعمل مع السيدة ألف نون في المشروع، تقول أمامه عنك : "إنه الوحيد الذي يعرف لماذا يريد ألف باء راء السفر الى بون" فتعقب : "هذا شأنه"، وتواصل كلامها ، تأتي رورو من مدينة الحرية" فتبلغها أيضاً عن ذلك : "إنّ علاقتهما ليست على ما يرام" تقول لها "وألف باء راء سبب مشاكل صديقه".

وتبصرك ألف نون ذات نهار وأنت قادم من المكتبة الى قاعات الدرس، ترحب بك وتناديك من شباك غرفة مكتبها، تصعد الى أعلى وتفتح الباب فتجد أن ألف باء راء في غرفتها، تحييها وتعتذر للإزعاج الذي سببته، ولكنها ترحب بك على غير العادة، وتدرك سبب هذا الترحيب الحار.

ويأتي في تموز صديق لك من الأردن، يزورها فتستقبله وترحب به، وخلال فترة إقامته تسوء علاقتها بالبغل وألف باء راء. "لقدْ كان مسروراً جداً أيام كان في بون" تقول لك ألف نون عن الصديق وتتابع : "وها هو يأتي كل ثلاثة أعوام تقريباً، ويمكن أن تأتي مثله".

وتساعدك ألف نون. تحضر لك ما تطلبه منها من كتب، تقترح عليك أن تقرأ مقالات لأهود بن عيزر، تصورها لك، وتطلب منك أن تقرأ كتاب غوتين عن العرب واليهود في التاريخ، وفيما بعد، تقدمك الى أستاذ الأدب المقارن في قسم الأدب الألماني : "إنه نصف يهودي" تقول لك وتواصل : "ولكنه لم يزر اسرائيل" وتضيف : "وهو لا يحبهم كثيراً"، وتقترح عليك أن تسافر لتتعرف على الأستاذ "دان.د" : "صحيح أنه يهودي، ولكنه يساري،

ويدافعُ عن الفلسطينين، وله كتاب حول ذلك". وحين تغادر زوجتك المانيا تذهب الى رورو وتقول لها : "لماذا ترك زوجته تغادر ؟" وتتدخل ألف نون في كل كبيرةٍ وصغيرة، وتترك ابنتها بالتبني، بيبو، تلاحقك.

تزور بيبو المحاضرات التي تزورها مع استاذتك. تصغي الى الأحاديث التي تدور بينكما، تراقب وقوفك معها في فترة الاستراحة، وتستمع الى ما تقوله عن مدرستك، وتدرك أنت ذلك فتمدح أستاذتك مديحاً لا حدّ له. وتعرف ألف نون بهذا كله، وتعرف أيضاً من بيبو أنك تضع المصحف معك في حقيبتك. تسألك بيبو في المحاضرات حين تلاحظ ذلك : "هل أنت مؤمن ؟" ولا تجيب. تقول لها فيما بعد : "أنت تعلمين يا بيبو أنني أدرس العلوم الاسلامية، وأن فولا في محاضراتها عن العلوم الاسلامية تقرأ بعض الآيات، وأنني أتابع ما تقول بالالمانية في العربيه"، ولا تدرك أنّ هذا يفسر تفسيراً آخر. وتتذكر ما قالته ألف نون لك في بداية مجيئك : "لا تقل أمام فولا إن القرآن من السماء" وكانت تواصل : "فنحن في القرن العشرين، وأنت تعرف أن العلماء هنا الآن يقولون بلا حرج أن العهد القديم مكتوب ومؤلف".

تعود مع السيدة ألف نون في سيارتها التي أقلتك في الواحدة ليلاً مع بيبو ونيقولا بعد الاستماع الى المحاضرة التي ألقتها محاضرة جامعية قادمة من الضفة الغربية، والسهرة التي قضيتموها معاً في بيت الكسندر صديق شعبك، فتهملك إهمالاً كبيراً، وتسمعك أيضاً كلاماً ملغزاً. تتحدث مع بيبو بفرح، وتشاركهما نيقولا الحديث، وتصمت أنت. تصمت كأنك لست في هذا العالم. تسترجع أسئلة ماورو لك حول زوجها، تتذكر نينا، وتتساءل : "لماذا أخفت ألف نون عني التقاءها ببعض المعارف الذين ما زالو يقيمون بالضفة"، لقد أخبرتك المانية التقيت بها في المحاضرة نفسها، وكانت بصحبتها في أثناء الالتقاء بهؤلاء، بهذا اللقاء، وأرتك بعض الصور معهم. وتغادر الى توبنغن. تنفق شهراً ونيف، وتعود لتلتقي، من جديد، بالسيدة ألف نون. ترحب بك، تبتسم لك، وتقوم ببعض الحركات اللافتة للنظر. وتقول : "يبدو أنك كنت مسروراً جداً هناك" وتتابع : "ويبدو أيضاً أنك كنت تجلس خارج الغرف، إنّ لونك يبدو مسمراً قليلاً" وتضيف "كأنك كنت في رحلة حقاً" وتبتسم لها. تبادلها وداً بود : "ولكن الأوضاع هناك ليست على ما يرام" تقول لها وتقصد بهناك : الضفة. وتعلمك ألف نون بأنها قرأت في الصحافة العبرية عن حادث شخص وإصابته، وتسألك إن كان قريبك. ثم تحدثها بدورك عن المكتبة هناك : "إنها مدينة جامعية حقاً" تقول لها وتتابع : "ولا يشعر المرء بندم حين ينفق وقتاً طويلاً هناك".

يأتي زوجها، فتقول على مسمعه : "إنه على وشك الانتهاء من كتابة الأطروحة" فيعقب : "ليس هذا هو المهم، فليس المهم الكتابة وإنما المهم كيف يطبخ الطبيخ" يقول ذلك بعربية مكسرة ثم يتابع بالألمانية : "وأنت تعرفين فولا تحديداً". ويصبح زوجها أستاذاً جامعياً. ولا تكترث ألف نون لكلام زوجها. تشكرك على البطاقة التي أرسلتها لها من توبنغن، ولا تنسى حين تسافر الى برلين في رحلة جامعية أن ترسل لها بطاقة أخرى من هناك : "لتكن العلاقة ودية". تقول هامساً، وتتابع : "ولأعد، فهذا هو المهم". وتشكرك ألف نون، من جديد، على البطاقة التي أرسلتها.

ولكن ألف نون لا تكف الحديث عن أمورك الخاصة. تتحدث للمى القادمة من بون حين تزورها عن خلافك مع ألف باء راء. تكرر كلامها عن سفر زوجتك، تتواصل شكوكها في أنّ ثمة علاقة ما بينك وبين أستاذتك، ويشاركها في شكوكها بيبو وماورو، ويشتم الأخير أستاذتك على مسامعك حين تكونان جالسين في مطعم الجامعة. وتبلغك بيبو أن ألف نون متضايقة من علاقتك بها : " هي تتحدث عني هنا" تقول لبيبو وتواصل : "وأنا سأتحدث عنها هناك" وتتابع : "وما شأنها بسلوكي هنا وغياب زوجتي".

تذهب الى ألف نون بعد ذلك وتقول لها : "يبدو أننا لن نستطيع مواصلة العمل معاً. إنني أسف لإبلاغك بذلك" ويقترب ابنها الأوسط ليشارك في الحوار فتقول له أنت بأدب جم: "من فضلك إنني أتحدث مع أمك بأمور خاصة" وينصرف على مضض. "ولكن هناك قوانين جامعية" تبلغك ألف نون وتواصل : وإذا سمح لك فليكن، ثم إني أنا التي أحضرتك الى هنا" تشكرها على ذلك، وتقول لها : "ولكنك تتدخلين في كل كبيرة وصغيرة" وتنفي ذلك : "إن البغل هو الذي تحدث لي عن علاقتك بزوجتك" وتتابع : "وألف باء راء هو الذي قال له" فتعقب : "ولكن ذلك لا يليق بك"، ولا تذكر لها شيئاً عن نينا وأسئلة ماورو وزيلكه عن زوجها والكلام الذي ينسب إليك. وفجأة تقول لك : "لقد أبلغني فالح أن الطلبة العرب يتهمونني أيضاً".

وتتأكد مما قالته.

تسافر ألف نون الى القدس بعد أن تركت وإياها الباب مفتوحاً على إمكانية متابعة الدراسة معا، وحين تعود تبلغك تحيات الأصدقاء، وتقدمك في أواخر أيلول الى بعض الأساتذه الألمان الذين شاركوا في مؤتمر حول العالم الاسلامي : "إنه كاتب وأديب" وتتابع : "وكان يكتب في الصحافة هناك" وتضيف: "وقريباً سينهي كتابة الأطروحة. وتهمس في سرك :

"إنها تبدو ملاكاً" وتقارن ما قالته أمامك بما قالته لك رورو التي التقت بها في القدس، وتتذكر كلام رورو الملغز حين اتصلت بك. "لقد كانت هناك تقول كلاماً آخر" تحدث نفسك.

وتسألك بعد عودتك من بون عن الأستاذ وحش. وتقدمك إليه بود حين يأتي هذا ليلقي محاضرة في مدينة قريبة. وتفاجأ بعد أيام بأنه يعيد إليك الكتب التي أرسلتها اليه ليقرأها. "إنه نفعي" تقول ألف نون عنك، ويصدقها الآخرون، وتشرح لهم كيف أنها أحضرتك الى هنا ثم أنك رفضت مواصلة الدراسة معها، وكيف أنك أرسلت زوجتك، لأنك تقيم علاقة مع أخرى، وتقصد بذلك أستاذتك.

تقول لألف نون وأنت في مكتبها : "لقد أرسلت وثيقة السفر لتجديدها، فطلبوا مني وثيقة عقد زواج، وأرفقوا بالجواب طلب تغيير الحالة الشخصية، ولا أدري من أبلغهم بذلك، ويبدو أنهم لن يجددوا الوثيقة بسهولة فهذه أول مرة يحدث معي ذلك"، وتهاتف ألف نون الأستاذ وحش، فيطلب منك ألا تكترث للأمر كثيراً.

تودع ألف نون في حفلة وداعها، تسلم عليك، تقول لك : "كل شيء بيننا على ما يرام"، وتطلب منها أن تقرأ مقالة محمود درويش : "جنون أن تكون فلسطينياً" وتقول لها : "كل شيء على ما يرام"، وتغادر وفي داخل كل واحد منكما ما في في داخله. تحاول أن تنام فلا تستطيع. ثمة حرارة لا تطيقها كأن الفراش كتلة نار، وتخرج الى الشارع لتنفق معظم الليل في البار القريب.

تذهب الى محاضرات الأدب الألماني، فلا تفهم إلاّ أقل القليل. تستمع الى السيد المبجل، حصوة، يتحدث عن الأسواق الأدبية في العصور الوسطى، وتنظر الى الوجوه التي تسترق السمع. هدوء يذكرك، لولا صوت المحاضر، بصمت المقابر. تمر الدقائق بطيئة جداً، وحين يمر من الوقت نصفه، يخرج الطلبة لمدة عشر دقائق ليعودوا بعد انصرامها، من جديد، الى المحاضرة. تقف بالقرب من مدخل القاعة وحيداً فتقترب منك سيدة شقراء، وتقترب أكثر فأكثر ولا يمنعها من الحديث معك سوى ملاحقة صديقتها، لك، بالاسئلة.

في الأسبوع الثاني تنجح في فتح باب الحديث معك، تبدي ملاحظة حول شعرك الأسود والقصة الجديدة، وتدعوك الى الكافتيريا بعد انتهاء المحاضرة. تذهبان معاً. تشربان القهوة، وتتبادلان العناوين بسرعة، ثم تتفقان على موعد للالتقاء.

وتأتي إليك السيدة في الموعد المحدد بالضبط. يعتذر فالح وصديقته الناصرية حين تأتي وينصرفان بسرعة. تنظر إليها، الى شعرها الأشقر الذهبي اللون، الى ملابسها : البنطال والقميص الأسودين. تفتتح الحديث معها بلغتك الألمانية الركيكة. تسألها عن أحوالها فتجيب باقتضاب. تتحدث عن المحاضرة والمحاضر قليلاً فتبدي امتعاضها، "لقد مللت الحديث في هذا الموضوع هذا النهار" وتواصل : "الأدب، الأدب، لقد شبعت أدباً في الجامعة".

× × × × ×

تمد القطة الشقراء يدها، تلمس القطة السوداء، تبدأ اللعب هكذا، تنهض، تزيل ما على جسدها مما علق به، تصعد مرتفعاً ما، وتطلب من القطة السوداء أن تقترب منها. تتلكأ الأخيرة، تتباطأ في النهوض، فتكشر الشقراء وتنظر شزراً. وتهجم القطة السوداء، تنساق فجأة نحو القطة الشقراء، وتشتبكان معاً. وتبدأ معركة تنتهي في ساعة متأخرة. تنظر القطة الشقراء الى الوقت، وترقد حتى الصباح. وتنام القطتان بلا أدنى حركة. لقد أنهكهما العراك، وانتهى العالم في تلك اللحظة كما ينتهي بعد انتهاء المعارك : ظلام وهدوء. وفي الصباح تصحو القطتان وتشتبكان معاً من جديد.

× × × × ×

تغادر بربارة الغرفة على أمل اللقاء. تضع نظارتها على عينيها اتقاءً للشمس الساطعة وتسير في الشارع سيدة بضة. وتلتقيان ثانية في قاعة المحاضرات، تثرثران عن الأدب والمحاضرين قليلاً، وتتحدث بربارة عن الشرق. تبدي إعجابها به، وتتحدث عن صديقها القديم: "إنه فارسي"، تقول: "وكنّا على وشك الزواج !". وتسألها: "ولماذا لم تتزوجا ؟"، "لقد عارض والداه" تجيب بربارة وتتابع: "ولكن الحوار بيننا لم ينته". وتسألها من جديد: "هل ستلتقيان من جديد ؟"، "لا" تجيب بربارة وتواصل: "لا أعتقد، لقد كان حاداً معي، كان يضربني أحياناً، ولكنّ هناك أشياء أحبها فيه".

وتسأل بربارة إن كانت تذهب الى الكنيسة. "كنت" تجيب "ولكنني الآن لا أذهب، فهي لا تعنيني كثيراً" وتتحدث باستطراد: "وأحب الحياة كثيراً، وأعشق الرحيل الى بحر الشمال" وتسألك: "أتذهب معي الى بحر الشمال ؟ في هذا الصيف، بعد انتهاء الفصل، سوف أذهب في رحلة الى هناك لمدة أسبوع أو أسبوعين".

في المساء، يستبد بك الضجر، تذهب الى غرفة الغسيل، وتحاول اشغال الغسالة، فتفشل، تجرب مرة أخرى فلا تنجح "اللعنة" تقول، وتتابع: "سأفعل ما كنت أفعله في مدينة الحرية؟ سأغسل ملابسي على يدي". ويزداد ضجرك. تتصل ببربارة تلفونياً، فتأتي إليك بلا تردد. تحدثك عن وحدتها وعن أمّها المريضة، وتلحظ رنة حزن في صوتها.

× × × × ×

تبدو القطة الشقراء جريئة لدرجة لا تتصور، تجوب المكان، وتحب الوقوف طويلاً تحت الماء، ترفع يديها الى رأسها، وترفع رأسها الى الأعلى، وتجلس على مكان مرتفع، وتموء. ثمة طاقة حركية لا تدري من أين تأتيها. تتقدم وتدور وتعود الى الوراء قليلاً، وتبقى القطة السوداء راكدة لا تبدي حراكاً. تراقب القطة الشقراء فقط، ومن فرط الذهول تنفض قليلاً، فتضحك القطة الشقراء، وتواصل حركاتها، ثم تشتبك القطتان من جديد، تتقلبان على أرض الغرفة، وتصاب إحداهن بخدوش في يدها.

× × × × ×

تغادر بربارة الغرفة، وتهمس لك:

- عنواني معك، يجب أن تزورني، وعليك أن تتعرف على حياة الألمان. وتتفقان على موعد جديد. تذهب الى السوبر ماركت القريب، فتلتقي هناك بكاترين، تتحدثان معاً وتقترض منها مبلغاً من المال: "لقد نسيت نقودي في المنزل" وتتابع: "وسوف أعيدها لك بعد قليل"، وتشعر بالوحدة: "ليس أسوأ من أيام السبت والأحد هنا" تخاطب نفسك، وتتذكر العائلة "لو كانوا هنا لأنفقنا الوقت معاً". وتذهب إلى حجرة التلفون وتتصل بالعائلة، تتحدث عن صعوبة الحصول على شقة هنا وتعدهم بأن تحل ذلك في أقرب فرصة. "إن الصغار عالم لا يعادله عالم" تخاطب نفسك، وأنت تضع رافعة الهاتف. وتذهب إلى غرفتك الصغيرة "مترات في أربعة أمتار" تضيق ذرعاً بالجلوس، وتذهب إلى الشوارع، تسير وحيداً على ضفة النهر، ترقب العائلات: "في هذه المدينة الكاثوليكية ما زال للعائلة حضورها" تلاحظ ذلك، ويفرحك منظر الأب وهو يركب دراجته، وخلفه يجلس طفله، وكذلك منظر الأم وهي تفعل الشيء ذاته. وتحدث نفسك: "كل شيء في بلادهم جميل، الطبيعة والنساء والمدن" وتتساءل: "ترى من استمد جماله من الآخر" وتتذكر أستاذ النقد الأدبي، وهو يتحدث في محاضرة النقد عن ناقد نسيت اسمه يقول: "إن جمال نساء ايطاليا مستمد من جمال الطبيعة الايطالية".

وتسير في الشوارع، وتواصل عادةً كنت بدأتها في مدينة الحرية لتعلم اللغة. تقرأ اللافتات وأسماء الشوارع، وتتذكر بربارة. وتضحك حين تستعيد كلام ذلك الأمريكي الجنوبي الذي تحدث لك عن تجربته في تعلم اللغة الألمانية، وتستعيد عباراته "ثمة هناك طريقة واحدة يتعلم فيها المرء اللغة بشكل جيد وبسرعة. لا بدّ من ـــ".

وتواصل المشي، تقرأ أسماء الشوارع، وتقرع الجرس فتفتح لك الباب ضاحكة. "تفي بالمواعيد" تقول لك، فتجيب: "هل أخالف بذلك الشرقيين"، "نعم" تقول لك، فتسألها: "ولماذا إذن تقيمين علاقة مع شرقي ؟". تضحك بربارة، وتقول: "هناك أشياء في الشرقيين أحبها ولا أجدها عند الغربيين"، "مثلاً" تستوضح منها فتبتسم: "أنت تعرف"، "فقط" تقول فتتابع بربارة حديثها: "لا، وهناك أشياء أخرى، الألفة والحميمية في العلاقة"، وتذهب بربارة لتصنع كوباً من الشاي، فتستأذنها النظر في مكتبتها. تجد كتباً لتوماس مان وبريخت وبوخنر والمجموعة الكاملة لكافكا، وبعض قصص لجونتر جراس. وتسألك: "أي القصص تحب أن تقرأ للأخير: القطة والفأر أم الجرذان أم هل يتقرض الألمان ؟" وتضحك: "لا . لا أحب أن ينقرض هذا العالم المتناسق الجميل" وتصطحبك إلى غرفة نومها، وفجأة تقع عينك على (المينورا)، فلا تبدي أية ملاحظة. تشربان الشاي، وتشعل سيجارة، وتعتذر أنت عن التدخين،

وتذهب بربارة لتحضر منفضة سجائر، وتصاب بالدهشة إذ تقرأ عليها: "الخراز، نابلس"، وتسأل السيدة عن المنفضة وما هو مكتوب عليها، فتقول : "بعض عبارات فارسية واشتريتها من باريس". وتصمت. تتحدث مع بربارة ثم تعتذر منصرفاً، فتستاء من ذلك. تقول لها : "أنت تعرفين أنّ علي أن أبذل جهداً مضاعفاً في الدراسة، وعليّ أن أتعلم كذلك اللغة الأدبية". وتغادر على الرغم من استيائها، وتقول لها : "سنلتقي فيما بعد".

وتذهب إلى الغرفة ، تجلس وحيداً وتفكر في بربارة، تسترجع صورة الشعار والمنفضة وما كتب عليها، وتصاب بالذهول : "أيعقل أن تكون يهودية ؟" إن الشعار هو الشعار الاسرائيلي، "ولكن ـــ" وتتساءل : "هل سأذهب إليها في الغد ؟"

حين تقترب الساعة من السادسة مساءً تتردد كثيراً وتقرر عدم الذهاب. تنتظر بربارة ولكن دون فائدة، وتذهب أنت إلى الحديقة العامة، وحين تعود في ساعة متأخرة، تجد على باب غرفتك ورقة" مكتوبا عليها :

عزيزي ـــ :

لقد تواعدنا أن تصل اليوم الجمعة، في السادسة مساءً، في منزلي. على ما يبدو فانّك لم تجد الفرصة للايفاء بوعدك بالمجيء. أعطيك فرصةً لأن توضح سلوكك، ومن ناحية أخرى فاني اعتبر هذا إهانة لي.

تحياتي
بربارة

وتقرأ الورقة مرة ومرتين وثلاث مرات، ثم تفكر : "ماذا سأفعل ؟" وتلتقيان، من جديد، في الكافتيريا، فتعاتبك وتبدي عدم ارتياحها من الشرقيين وعادتهم هذه بعدم الايفاء بالمواعيد. ولا تعرف بربارة أنك لست شرقياً في هذا، وأنك تلتزم بالمواعيد مثل التزام الغربيين بها وأكثر. ولا تدرك أن عدم ذهابك له سبب آخر : المينورا والمنفضة والريبة التي بدأت تعتمل في نفسك. وتتساءل : "أنا لا أعرف أحداً في هذه المدينة سوى ألف نون وزوجها. أيعقل ؟" وتتحدثان معاً. تقول لها : "تعرفين يا بربارة أنني شخص متزوج، ولدي عائلة، وأعتقد أنّ علاقتنا عديمة الجدوى، فعمّا قريب ستأتي أسرتي" وتضحك بربارة : "نحن أصدقاء فقط" وتقول مازحاً : "أخشى أن يفسدني جمالك" فتعقب بربارة : "هكذا أنتم الشرقيون. كل صداقة تفسرونها على أنها اشتباك بالأيدي" فتهمس "يا بربارة"، "آه" تتنهد، وتتابع أنت : "لا شيء. ولكن الأفضل أن تنتهي قبل أن نبدأ".

× × × × ×

وتتهرب من السيدة، تلتقيان معاً فتغازلها بكلمات لطيفة، وتطلب منك أن تزورها فتعتذر بأن لديك أشغالاً كثيرة. تتحدث عن مواعيدك مع الدكتورة ألف نون، وعن بحثك عن سكن، وعن شوقك للعائلة. وفي منتصف ايار تسافر إلى توبنغن لمدة ثلاثة أيام. تزور الأصدقاء، وتستريح قليلاً من مشكلة البحث عن الشقة، ومشكلة حضور المحاضرات التي تنزعج منها بسبب اللغة.

ولا تكف بربارة عن ملاحقتك. تأتي إليك وأنت جالس في المكتبة، تتحدث معك بهمس، تقول لك : "كن قوياً، ثمة خبر لا يسر" تستمع إليها، وتشرب معها القهوة، وتزورك من جديد. تحضر معها كتاب بريخت "كتابات للمسرح" وتعرض عليك أن تساعدك. "أعرف أنك تزور المحاضرات التي يلقيها الدكتور ديك عن بريخت ومسرحه التعليمي" وتتابع بربارة: "وأعرف أنك تجد صعوبة في فهم ما يقول، فنحن الطلبة الألمان نجد صعوبة في فهم محاضراته". وتحدثك بربارة عن الدكتور ديك، عن علاقته بزوجته، وتخبرك أنهما منفصلان. فتقول لها : "أعرف ذلك، فلقد أخبرتني الدكتورة ألف نون بذلك يوم قدمتني إليه" وتتابع " وأبلغتني أيضاً أن الدكتور ديك معجب جداً بشخصية دون جوان" "وأضافت يومها" تتابع : "لو كنت فتاة جميلة لحصلت عنده على علامة جيدة". وتتحدث عن انطباعك عن الدكتور ديك، تقول لها : "إنه أستاذ لطيف جداً، وأرغب في زيارة محاضراته، ولا يهمني حقيقة ما قالته ألف نون، مازحةً، عنه" وتتابع : "لقد أبدى استعداداً طيباً لقبولي طالباً عنده، ودعاني إلى شرب كأس من النبيذ أيضاً".

وتعرض عليك بربارة عروضاً كثيرة، تقول لك : "أكتب لك البحث أقدم عنك التقارير. لقد كتبت بحثاً عن المسرح التعليمي عند بريخت في الفصل المنصرم" وتخبرها أنك إنما تزور محاضرات الأدب الألماني، فقط، من باب حبّ المعرفة، "لن أتخصص في الأدب الألماني" تقول لبربارة، وتتابع : "فأنا هنا لأدرس الأدب العربي".

وتدرك بربارة أنك رجل خبيث. تتحدث، من جديد، عن ضجرها ووحدتها، عن أمّها وجدتها، وتستدرجها في الحديث، تسألها عن المينورا، وعن اليهود في المدينة، ثم تخبرك أن جدّتها يهودية. وتحضر العائلة، ولا تلتقي ببربارة إلاّ في الشارع، تتبادلان التحية وبعض العبارات، وتبدي اعجابها بجمال زوجتك، وخفة دم طفلتيك، وتفترقان. وبعد أشهر تفي بربارة بوعدها، فتهديك كتابين لجونتر جراس، بمناسبة عيد ميلادك التي مرّت قبل شهور. "أيها السمك، وأيها السمك إن حكاياتك تخرج شريرة".

× × × × ×

تذهب والعائلة، في فترة الاستعداد لأعياد الميلاد، لشراء ألعاب للأطفال، وهناك تلحظ بربارة، تبتسم لك فترد عليها بحركة من عينيك، ثم تحتك بك عمداً. "لعلها تريد أن تستثير زوجتك" تقول وتصمت. وتلحظ زوجتك أنها تتحرك حركة غير عادية، فتلفت انتباهك الى الأمر. لا تعقب ولا تكترث للأمر، وحين تلح في الأمر تخبرها أنها طالبة جامعية تدرس الأدب الألماني. وحين تلتقي مع بربارة في المكان نفسه، في اليوم نفسه، تقول لها : "لماذا تبدين هكذا ؟" "عدوانية". تقصد" "نعم" تجيبها، "هكذا أنا" تقول لك، وتتابع "وهذا هو سرّ اختلافي مع الآخرين. إنني، نوعاً ما، مزاجية".

وبين الفترة والفترة تأتي مكالمة تلفونية، فترد زوجتك، ثم يقطع الاتصال. يتكرر هذا مرتين ثم ينتهي. فيما بعد تعرف أنّ بربارة قد عادت إلى صديقها الفارسي "هكذا كانت تنعته"، وأنها تعيش معه من جديد، وتعرف أيضاً أنّ بربارة قد غادرت إلى نورنبرج لتقيم هناك، بعد أن قطعت دراستها في الجامعة لتدرس الألمانية إلى الطلبة الاجانب.

وتظهر بربارة، من جديد، بعد عدة أيام من الالتقاء بنينا. تراها في مطعم الطلبة، وتأتي، وأنت تقرأ الاعلانات، لتقف بالقرب منك. تنظر إليها فتبتسم لها، وتبدي اعجابك بلباسها الذهبي الأخاذ، ويلفت انتباهك التناسق الكبير بين لون الثياب ولون الحقيبة. "إن التناسق هنا ينعكس على جميع مظاهر الحياة" تقول لنفسك، "المباني والشوارع والسيدات والملابس والطبيعة". وتعرض عليك أن تشربا القهوة معاً. "في منزلي" تقول لها، فلا تمانع وتتبعك إلى المنزل بعد فترة وجيزة. "أين أنت يا بربارة" تسألها، "أعيش في نورنبرج، منذ عام تقريباً، مع صديقي القديم، زوجي الآن" تخبرك بربارة وتواصل : "لقد عدنا لنعيش معاً. ثم عرفت أنك وحدك فجئت"، "ولكنك الآن متزوجة يا بربارة" تقول لها، "ولكنك الحب الكبير. ألا تعرف شيئاً عن الحب الكبير في المسيحية. هو زوجي وأنت حبي" تقول لك، فترد عليها : "ولكننا لم نتعارف جيداً حتى أكون حبك الكبير"، "ليس للحب حدود. ومن الغباء أن يحب المرء الآخر إذا طالت معرفته به. إنّ المرء، أحياناً، لا يعرف لماذا يحب شخصاً ما، ولا يستطيع أن يحدد زمناً لصيرورة حب".

وتشربان معاً القهوة. تتحدثان قليلاً وتصمتان أكثر. وتقول لبربارة بعد أن تودعها : "ربما أسافر إلى توبنغن"، فتخبرك أنّ أخاها يقيم في شتوتجارت، وأنها ستزورك هناك. تعطيك رقم هاتفها في نورنبرج، وتنصرف.

وتبدأ الاسئلة تتوارد وتتزاحم. كيف ظهرت بربارة فجأة ؟ كيف عرفت أنّ زوجتك

ليست هنا ؟ وما هو سرّ ارتدائها هذا اللون الذهبي الأخاذ ؟ وتتذكر نينا. هل جاءت نينا لتعرف منك شيئين اثنين فقط ؟ إن كنت على اتصال مع جهة فلسطينية، وإن كنت تقيم علاقة مع امرأة، وانتهى بذلك دورها المرسوم لها. ومن هو الذي يخطط هذا كله ؟ لقد رتب الأمر، وجاءت بربارة من جديد.

تأتي بربارة إلى الجامعة من جديد. تقول لك : "ها أنت هنا. لقد قلت لي إنك ستسافر"، "غيرت رأيي" تقول لها وتتابع : "ويبدو أن العثور على سكن هناك خلال الفصل الدراسي مشكلة كبرى" وتسألها : "ولكنك تعودين إلى الجامعة" فتجيب : "أريد أن أكمل دراستي. قلت : أزور محاضرات في يومين من الأسبوع"، وتتبع بربارة خطاك. تعرف مواعيد محاضراتك، وتلتقي بك في المكتبة، وتزورك، فجأة، في البيت. "لا بأس". تقول لنفسك، "ولتكن العلاقة عادية تماماً"، وتلتقي بصديقك المصري، ويعجب بها. "هؤلاء هم النساء" يقول لك المصري، ويتابع : "وليس مثل نسائنا الغفر".

تقول لبربارة : "يا بربارة" أنا مريض، ونصحني الطبيب ألاّ أقيم علاقة مع امرأة"، وتدرك بربارة أنك تكذب. تقول لك : "أنت" وتتابع "لا يبدو عليك ذلك"، وأنا متأكدة من أنك تكذب". وتكرر بربارة زياراتها. تقول للمصري : "إذا جاءت بربارة فقل لها إني لست هنا"، "غريب" يقول لك. وتفاجئك بربارة بالزيارة من جديد، وحين يفتح لها المصري الباب، تجلس وحيداً في غرفتك، وتنسى أن تطفيء الضوء. تسأل المصري عنك فيخبرها أنك لست هنا، وتنظر من تحت الباب، فترى الضوء مشعولاً وتجلس. تخرج كمية من الصور، وتريها للمصري ويتحدثان معاً لفترة طويلة، وحين يأتي من يسأل عن المصري يعتذر لها فتخرج ويخرج معها.

ويلتقي معها المصري بعد ساعة في الشارع، يدعوها لتناول الطعام معاً في المطعم، فتعتذر. يكرر دعوته لشرب القهوة معاً، فترفض وتقول له : "إنني أريده".

ولا تلتقي مع بربارة إلاّ في أوائل أيار. لقد انقطعت عن المجيء إلى المدينة في الأجازة، ويبدو أنها كانت على علم أنك لست هنا أيضاً. تراك في الشارع، فتسلم عليك، وتعتذر بأنها على موعد مع صديقتها التي تعمل في المبنى التجاري القريب، هذه التي فجعت بصديقها، وأخذت تعيش وحيدة بعد موته حداداً عليه، وترى في بربارة بعض عزاء لها.

ثم تلتقيان في اليوم نفسه. تحدثك بربارة عن عشيقها الجديد. "إنه فارسي أيضا" وتتابع "ويشرب النبيذ، وتقضي معاً أياماً جميلة".

لقد جاءت بربارة بعد عامين من تعارفكما، بداية أيار، لتزف لك هذا الخبر، وبعد نصف عام من دعوتك الى بيتها في نورنبرج : "تقضي معي ثلاثة أيام" كانت تقول، وتتابع : "فزوجي سيسافر لأن المحكمة ستنظر في طلب قبوله لاجئاً سياسياً. ونورنبرج مدينة جميلة". وتفترقان. وتتذكر بربارة وشارع يوسف عشرين والميتورا والمنفضة، واللقاء الثاني بعد مجيء نينا.

تأتي السيدة رورو من القدس. تنحشر للمرة الاولى بين أربعة جدران. لا تعرف المدينة ولا تعرف اللغة. تحار ماذا تفعل. تتنقل بين السوبر ماركت والمنزل. تتجول لفترة في شوارع مدينة الحرية فلا ترى فيها ما يأسر. تشعر بالضجر فزوجها يذهب كل صباح الى معهد غوتة. وتفكر في أن تسافر الى ايطاليا. يتركها كاسب تفعل ذلك، وحين تعود تكون قد تعلمت طهي البيتزا. ويستمع زوجها اليها ضجرا، فهو يشعر بندم شديد لانه جاء، وهو، في هذه السن، للدراسة، فاللغة تشعره بطفولته. "لاول مرة أعرف معاناة الطلبة" يقول، ويفكر في قطع الدراسة والعودة الى القدس. يتصل بك. يخبرك بقراره هذا فتحثه على البقاء، وتتحدث له عن صعوبة هذه الفترة. وتصر طالباً منه الا يعود. تقترح عليه أن يخرج الى الشوارع، وان يحادث الناس، وان يبحلق في الواجهات الزجاجية للمحلات الاسرة. تخبره عن سقوطك في اللغة، وتتحدث له أيضا عن المشاكل التي كانت تواجه الاخرين، ثم تشجعه قائلا : سوف اسعى من اجل توفير منزل لك، وتبلغه ان راتب المنحة سوف يكفي فيما بعد.

ويصغي السيد كاسب لكلامك، وفي بداية آذار يأتي وزوجته. يقيمان اياما في منزل الطلبة. وتبدي رورو أسفها للمجيء. تذكرك بالحوار الذي دار بينكما في القدس. تقول على مسمع من زوجتك : "الم أقل لك ؟ كيف تقيمون أربع سنوات في منزل ضيق كهذا ؟ وتواصل رورو حديثها بلا انتظام. تسأل، فجأة، عن راتب المنحة. تتحدث عن فترة اللغة. تشكو من قلة النقود. وتسأل عن الدكتورة الف نون. تمدحها بفرح. تقول أنها وعدت زوجها بعمل ما براتب أعلى من راتبك. ويوافقها كاسب الرأي. يثني على الدكتورة قائلا : "الاجانب لا يعرفون الكذب. واذا كذبوا فلاننا نحن العرب أفسدنا أخلاقهم". وتطمئن رورو حين تعلمها أن راتب المنحة، وحده، يكفي. تقول لها : "ان هي إلا سنوات ثم نعود قافلين". ولكن رورو لا تكف عن الحديث. تتحدث كطفلة. وتستمع اليها لانه ليس أمامك الا هذا. تظهر لك مودة كبيرة. تشعرك بدفء عائلي كأنك تعرفها منذ ألف عام. وتشكرك، وزوجها معها، لاستضافتك لهما، ويحمد كاسب ربه لانه وجد سكنا بسرعة، ويهمس : "كيف سارد لك هذا المعروف ؟" وتعقب : "نحن اخوة يا كاسب".

ولكن كاسب فضولي لدرجة لم تكن تتوقعها. يسألك كطفل : "وماذا اذا لم انجح في اللغة ؟ والنقود هل تكفي ؟ المصيبة الكبرى ان يتابع المرء تعليمه وهو في سن كبيرة، والاصعب من هذا كله ان اصبح طالبا انتظر راتبا ما آخر الشهر".

وتتذكر رورو الف باء راء وزوجته. تسأل عنهما، فتخبرها أنهما يقيمان أيضاً في منزل الطلبة في الحي الآخر من المدينة. وتزورهما رورو وزوجها، وحين تقفل عائدة تبدو مختلفة تماماً. تسمع خطواتها مسرعة، تسبق زوجها وتفتح الباب بلا استئذان وتسأل : "ماذا تعرف عن الدكتورة ؟ هل صحيح أنها لن توظف كاسب في المشروع ؟ لقد وعدتنا ونحن في القدس في عمل اضافي ؟!". وتجيب بهدوء : "اسمعا ! نحن هنا لندرس، وقلت لكما، من قبل، إن راتب المنحة يكفي" وتضيف "وأنا شخصياً غير مكترث للعمل. اريد انهاء دراستي والعودة، فثمة التزام هناك مع الجامعة". ولكن رورو لا تخفي شيئاً، فهي من الصنف الذي يجري على لسانه ما يدور في قلبه : "هذه ليست بروفيسورة، هذه مثل جارتنا أم خليل : "وتسألها زوجتك : "مَنْ تكون أم خليل هذه ؟" وتجيب رورو : "امرأة لا عمل لها سوى الافساد ونقل الحديث عن الآخرين. تتحدث عن هذه وتلك ولا تترك امرأة دون أن تتعرض لها".

وفجأة تسألك رورو من جديد : "قل ماذا تعرف عن الدكتورة ؟ لقد أخبرنا ألف باء راء أنك الوحيد الذي يعرف سرها". ويحذو السيد كاسب حذوها.

يقول لك ان الف باء راء نصحه بأن يذهب ليدرس الساميات في جامعة أخرى. وأنه أخبره أيضاً بأنها لا تهتم بطلبتها. تعد ولا تفي بوعودها. كاذبة. وانها تستخف به، فحين حدد معها موعداً للحديث عن اطروحة الدكتوراه أخذت تشرح له عن كيفية استخدام الجزازات، وهي تتكبر أيضا عليه، وترى في الطلبة العرب جهلة، وقد قرر شخصياً السفر الى بون".

وتأخذك الحيرة مأخذ شتى، تقول للسيد كاسب : "أرجو ألا تدخلني في متاهات، قلت لك نحن هنا لندرس فقط، أما من هي الدكتورة ومن هو زوجها وماذا يفعل فلا دخل لي بهذا، لقد درست في الجامعة العبرية، فاقفل الحديث نهائياً. صحيح أنها تعد ولا تفي، ولكن ما تحصل عليه من نقود يكفي".

تذهب رورو وتأتي رورو، تشتم الدكتورة واليوم الذي جاءت فيه الى هنا. تتذكر أيامها الخوالي في القدس. تتحسر على أيام العز هناك. تضحك، كطفلة ساخرة : "علينا هنا أن نعجن وان نأكل البيتزا التي ضجرنا من صنعها وأكلها". وتذهب الى الكنيسة. تقول للمسؤول انها مسيحية كاثوليكية، وأنها وزوجها يحصلان على مبلغ ضئيل، وتبكي أمامه، فيشفق عليها ويدفع لها، كل شهر، مبلغا من المال كل شهر. وتأتي رورو فرحة. تحمل في يدها النقود وتقول لزوجها : لقد كانوا يصفون على الدور. ويبتسم السيد كاسب للنقود.

ترتاح لهذا، فقد يكفان عن الاسئلة. ولكن ذلك كان عبثاً. لقد انتهت اسطوانة النقود

لتبدأ اسطوانة الضجر. فرورو لم تكن تعرف الجلوس في البيت. هناك في القدس كان ثمة خادم يأتي لينظف لها المنزل وكانت تنفق وقتها مع ام خليل. لقد تعلمت من أم خليل اشياءها. تصطحب رورو زوجتك لتخرجا معا الى السوق. وتبدأ رورو اسئلتها الفضولية : "لماذا لا تتكلم مع الف باء راء". وتخبر زوجتك ان الدكتورة هي التي أفسدت بينكما. تقول لها : "لو كانا يدا واحدة لما نجحت في ذلك". وتقول ايضا : "ان ألف باء راء هو المسؤول عن مشاكلك كلها". لقد اخبرتها الدكتورة أنه يغار منك. وانه طفل وعليها ان تكون طبيبة نفسية له. وتستحلف زوجتك الا تبلغك بهذا. تقول لها : "لو عرف كاسب لطلقني". ثم تبدأ رورو حديثها عن فالح. تذمه في البداية. تقول : "أنه أناني، لقد عمل في المشروع مع الدكتورة دون أن يراعي حقنا في ذلك. انه يخجل من أمه. ولقد ترك صاحبته العربية التي عصت اوامر أهلها لتفتدي حبه". وتضيف رورو : "لقد غدر بصديقته"، وانها - أي رورو - كانت تود، يوم زارها مع أمه، طرده.

تتدخل في الحديث. تقول لرورو : "على مهلك ! فأخشى ان تشتمينا فيما بعد". وتضحك رورو بفرح : "لا. نحن اصحاب جيدون،فأنا أعرف الناس من النظرة الاولى. لقد سألتم عنا ونحن هناك، وبحثتم لنا عن مسكن ووقفتم الى جانبنا. "فيما بعد تغير رورو رأيها بفالح. لقد اكتشفت أنه على غير ما قالت عنه ولهذا صادقته، ولا تترك رورو صغيرة أو كبيرة الا وتقولها. تظهر لك مودة كبيرة وحين تغادر زوجتك تحزن كثيرا وتلعنك.

× × × × ×

وتأتي رورو كل صباح، تدخن سيجارة وتشرب وزوجها معك القهوة، تفك ورق النقد أو تستدين منك، ثم تتحدث عن ايام شقاوتها في الجامعة العبرية.

تقول لك : "كنا، هناك، نسرق طعام الطلبة. وكنا نتحايل على البائع في السوبر ماركت". وتتنهد رورو : أيام!! وبعد ذلك تذهب وكاسب معاً، وحين تعود رورو في العاشرة صباحاً تشتمك لانك تركت زوجتك تسافر : "لو بقيت هنا، لو ... لكنا انفقنا النهار معاً. لقد اصبحت وحيدة أيها الخبيث".

وحين تقلع رورو الى لندن تفتقد زيارتها الصباحية، ولا يدفعك احد لشراء علبة سجائر. لقد عودتك رورو عادة جديدة : الدخان، ولم تكن لتحزن لذلك فقد كانت رورو

تطرد عنك بعض غربتك. وتفتقد ايضا ذكرى البلاد التي كانت رورو توقظها في ذاكرتك، "كان كاسب يعمل في جامعتين" تقول رورو "وكانت الصغيرة تصرف يومياً دينارين او يزيد "وتتابع بحسرة" والان اتي اليك كل صباح لندخن معا سيجارة او لاقترض منك مارك حتى اغسل الثياب". وحين اقلعت رورو الى لندن قالت : "اخرج من حالة الضجر. لو كانت زوجتك هنا لسافرنا معاً".

وفي اثناء غيابها تطل دومينو الفرنسية. سمراء، قمينة الوجه ولكنها ذات قوام رشيق. وحين يلتقي بها كاسب يتحدث معها، أمامك، بلغته الالمانية المكسرة، ويطلب منها، مساء، ان تساعده في كتابة رسالة بالالمانية.

فيما بعد تحدثك دومينو هذه عن صديقها الفرنسي، العربي الاصل. تقول لك عن والده الذي كان ضابطاً في الجيش الفرنسي، وقرر بعد انتهاء حرب التحرير مغادرة الجزائر مع الفرنسيين خوفاً. وتعلمك ان صديقها سوف يأتي لزيارتها.

ولا يأتي كاسب، لزيارتك الا نادراً. لقد تخلى عن عادته الصباحية، وأخذ يأتي، فقط، حين يريد استلاف مبلغ من المال. ومن وقت لاخر تلتقيان. وأحياناً يطلب منك أن تصحح له لغته العربية المكسرة أيضاً، وحين تتصل به زوجته من لندن يقترح عليها ان تقيم ما شاءت، يقول لها : "انني غارق في الدراسة". وتستمع الى ضحكتها القادمة من بعيد. تقول له : "غارق في الدراسة أم غارق في النجاسة مثل اصحابك. وهل ستصبح نسخة عن السيد فالح والاخر". وتقصدك أنت. والان، فقط، تدرك السر في زيارتها الصباحية المتكررة. وحين تعود رورو تعرف ان شيئا ما، خلا ما، قد وقع. تتذكر رورو صديقتها الناصرية التي غادرت قافلة الى البلاد بعد ان تخلى عنها فالح عندما تعرف على صديقته الالمانية. تقول لك ذات صباح : "هؤلاء الالمانيات شرسات. فاذا اعجبت الواحدة منهن بشخص فلا يهمها ان كان متزوجا أم لا. انهن يأخذن الرجال من أحضان زوجاتهن". وتعيد رورو على مسامعك قصة فالح والناصرية: "لقد حاربت أهلها، وهي المسلمة، من أجله، وهو النصراني" وتدهش اذ تستمع منها الى هذا. وتهمس سراً : "كيف تتحدث صباحا عن اصدقاء المساء ؟ ثم كيف تستقبل فالح وصديقته الالمانية بفرح عجيب ؟ كيف تلمن فالح الان ؟"

ويبدأ جو العلاقة بينك وبين رورو يتوتر. لقد أخذت رورو ترى في الرجال رجلا واحدا يخون زوجته. وتزداد حيرة وارتباكاً، كل مساء، حين يتأخر كاسب في العودة. ثم تبدأ تفاجئك بزيارات متكررة. تارة ترسل صغيرها، وطورا ترسل صغيرتها، وعاشرة تأتي هي. تدخل غرفة نومك، تدخل الحمام وتصاب بهستيريا البحث عن النساء.

وتدرك رورو أن دومينو سلبت عقل زوجها. "هذه ليست صداقة" تقول وتصمت. تستضيف دومينو في منزلها، تقدم لها النبيذ والفلافل، وتزداد عدوانيتها ازاءك. تقلل من زياراتك لكاسب وتقرر ان تغلق النافذة وتستريح. وحين تتكرر زيارات كاسب لك تخبره بأن زوجته ترتاب منا نحن الرجال. تقول له : "أنت تعرف أن زوجتي ليست هنا. وسوف تزداد قناعة رورو بأننا نمارس سلوكاً مشبوها". ويضحك كاسب قائلا : "وأنا سأتركها تغادر. ها نحن على أبواب الاربعين وعلينا ان نتمتع قدر الامكان. علينا أن نحارب كحصان على وشك الموت".

ذات مساء، تأتي رورو تتفجر ضحكا. تسألها : خير. فتضحك وتستغرق في ضحكها ثم تسألك عن كاسب. تجيب كالعادة : "لا أدري"، وتواصل ضحكها قائلة : "لا تدري". وتنظر في الساعة. تقول لها : "انها الحادية عشرة والنصف مساء". وتكمل هي : "ومع ذلك فكاسب لم يأت"، وتجيب : "لست ولي أمره".

تدخن رورو سيجارة تلو سيجارة. وتضحك من بكاء. تحاول الاعتذار بأن موعد نومك حان. فلا تكترث للامر وتظل حتى يأتي كاسب ليسألك سؤاله التقليدي : "هل سألت عني رورو ؟" فيفاجأ بها في منزلك. وتسأله رورو : "أين حتى هذه الساعة ؟" فيعلمها أنه كان عند شاب أمريكي ليشرح الأخير له بعض النصوص. وتعقب هي ضاحكة : عند صديق !! يثار لضحكها، ويطلب منها أن يغادرا.

فيما بعد تخبرك عن سبب مجيئها في تلك الساعة المتأخرة. تقول لك : "أنت تعرف أنني حامل، وبينما كنت أفتش عن نقود في جيب سترة كاسب عثرت على مادة عازلة"، وتخبرك بصراحة : "ان كاسب لم يكن عند صديق امريكي، كما ادعى. انه يمكث طويلا لدى دومينو". وتخبرك أنها تعرف كل شيء، وأن عليها ان تتحمل حفاظا على مصلحة الاولاد. وتقول لك : "ان دومينو لن تمكث هنا طويلا، وسوف تنصرف بعد شهرين على أكثر تقدير".

ومع انك تحترم رورو لانها أخذت تغلب عقلها على قلبها حفاظا على مستقبل الاطفال الا أنك لم تستطع فهم شيء واحد : كيف تستقبل عشيقة زوجها في منزلها وتقدم لها الطعام وتقرر اقامة حفل وداع لها.

واحتراما لرورو ترفض طلب كاسب الذي جاء اليك راجياً أخذ مفاتيح الغرفة في غيابك من أجل أن تقيم فيها دومينو أسبوعين أو أكثر بعد تركها غرفتها في الموعد المحدد.

توشك دومينو على مغادرة المدينة عائدةً إلى فرنسا دون رجعة، وعلى الرغم من

محاولات كاسب الحثيثة على توفير غرفة لها لتمكث مدة أطول، يقف الحظ إلى جانب رورو: لقد باءت محاولات كاسب بالفشل. "أشكرك على موقفك" تقول رورو وقد أخذت تعتريها حالةٌ من الفرح، وتخبرك : "وأنت مدعو لقضاء أمسية معنا" وتضيف : "لقد دعوت أيضا السيد فالح وصديقته "كاتي".

ويأتي المساء سريعاً، تذهب إلى بيت رورو وكاسب فتستقبلك بفرح لا حدود له، تتركك وكاسب قليلا حتى تنجز الطعام ليحدثك هذا عن همومه ومشاغله هناك. يتحدث عن البناية والأهل وتعب الدراسة. ويأتي فالح وكاتي فيرتفع صوت رورو مرحبةً بالضيوف جميعاً. وتقدم النبيذ، ثم تعتذر قليلاً لتصنع البيتزا والفلافل. "اشربوا ما شئتم من النبيذ" تقول رورو وتضحك من أعماق قلبها، فتبتسم أنت موضحاً بذلك أن ثَمة شيئاً غير طبيعي يجري، تلمح رورو ذلك وتفهم قصدك، فيرتفع صوتها : "لا تنسى أنك ستسافر غداً إلى مدينة أخرى، وقد تغيب شهراً أو شهرين، ونحن نحتفل بوداعك" وتتابع رورو "أنت تعرف كيف كنّا نعيش في القدس" وتأسف لاعنةً حياة الطلبة، وفجأة تضحك بصوت مرتفع. وتلحظ كاتي التي أبدت قبل أسبوعين اشمئزازها ازاء سلوك رورو حين أصرت الأخيرة على اصطحابها إلى منزل الدكتورة ألف نون لتتأكد إن كان كاسب حقاً هناك، تلحظ أن رورو على غير طبيعتها. كانت كاتي تقول لفالح : "إن الأجواء بين رورو وكاسب متوترة بسبب دومينو، ولا أدري إذا كان العرب جميعهم على هذه الشاكلة". وكان فالح يأتي ويقول لك : "يبدو أن علاقتي بكاتي ستسوء بسبب سلوك كاسب مع زوجته، إنه يحتقرها وقد لاحظت صديقتي ذلك، وبدأ انطباعها عنا يسوء". وتتحدث كاتي بالألمانية السريعة حتى لا يفهم كاسب، تقول : "إنّ رورو فرحة لأنّ دومينو ستنصرف، إنها تتصرف كما لو أنّ دومينو انصرفت فعلاً".

في صباح اليوم التالي تأتي رورو إليك تتحدث عن أمسية الليلة المنصرمة فرحةً. تبدي اعجابها الشديد بكاتي وتقول : "إنها ألمانية" نارية" وتضيف : "ومن حق فالح أن يصادق فتاة جميلة، إنه شاب والناصرية بدأت تهرم"، ويغيب عن رورو، للحظة، كابوس الخيانة، خيانة الرجال، وتنسى أيضاً صداقة صديقتها الناصرية، وتنسى كلامها عن فالح يوم قرر التخلي عن صداقته للناصرية. وكلما اقترب موعد مغادرة دومينو يبدأ شبح الخيانة يفارق رورو رويداً رويداً. وتعيد رورو على مسامعك سؤالها اليومي : "لماذا لا تصادق امرأة ؟" تضحك قليلا وتجيب: "بامكانك أن تفتشي المنزل جيداً فقد تعثرين على امرأةٍ في الخزانة"، وتطمئن رورو، للمرة الثانية، قائلا : "لا تكترثي سوف أعطيك مفاتيح بيتي في غيابي، وأرجو منك أن

تعطيها،فقط، للشيخ غضبان حين يأتي من مدينة الحرية". تشكرك رورو على موقفك هذا، وتعرض عليك أن تصطحبها الى غرفة الغسيل لتساعدها قليلاً في تشغيل الغسالة.

تحدثك رورو، وأنتما تصعدان الدرج، عن احتيالها على مسؤول المنزل. تخبرك عن حيلتها الجديدة : "أذهب اليه بين فينة وأخرى وأقول له : لقد فقدت ماركين، وحين يسألني عن السبب أقول له تارة : لم أحسن تشغيل الغسالة، وطوراً لقد وجدت الغسالة خربة ولم أنتبه الى الورقة المكتوبة الملصقة بها"، تبتسم وتقول لها : واليوم ماذا ستقولين ؟". تضحك رورو وتقول لك : "اليوم، لا شيء. لم أت لهذا الامر. لقد أردت أن أطلعك عن سر كرمي الزائد ليلة الأمس" وتشير رورو، وأنتما في الصالة، الى زاوية مهملة في السقف الخالي، ثم تذهب بسرعة الى حيث أشارت فتخرج ثلاث زجاجات نبيذ، وترجو منك أن تحملها، وتقول لك : "لقد ترك الطلبة قبل أسبوع العديد من الصناديق، ولم يعودوا، بعد، الى أخذها" وتضيف : "وأنا آتي يومياً إلى غرفة الغسيل فأضع بين الملابس زجاجةً أو اثنتين، ولأنني لا أملك اليوم ما أغسله جئت معك"، وتضحك رورو فتقول : "وهكذا أصبح اللص".

× × × × ×

تأتي رورو اليك مساءً. تجلس قليلا، تطلب سيجارة وتصنع القهوة ثم تتحدث عن حياتها الماضية، وتكرر لعناتها عليك : "لقد أحضرتنا إلى هنا، ثم تركتني وحيدة". وتستحضر من جديد، أيامها الخوالي في القدس، وتكرر مفرداتها : الفيديو، التلفاز الملون ذو الشاشة الكبيرة، المسجل الجديد الذي اشتروه هناك. وتبتسم لتقول من ثَمّ : "غداً ستسافر ولا أظن أنك ستأخذ معك المسجل. لو تتركه لنا حتى تعود". وتأتي في صباح اليوم التالي، تجلس قليلاً بصحبة فيرو وابنتها، وتمد يدها إلى علبة السجائر فتتناول واحدة تشعلها، ثم تضع أخرى على الطاولة. وتأخذ المسجل والسيجارة وتودعك.

× × × × ×

تصل المدينة متعباً. تتصل بصديق سوري فيأتي ليقلك من محطة القطار، ويصطحبك الى الغرفة التي استأجرها لك، ويتركك حتى تستريح قليلا. وفي المساء يأتي اليك ليصطحبك

إلى منزله. تسترجمان معاً أيام مدينة الحرية وصعوبة الأيام الأولى، يسألك عن الأصدقاء الذين معك ويتحدث لك عن الأصدقاء الذين يقيمون هنا. يخبرك أنه رزق بمولود جديد، ويعتذر للوجبة المتواضعة.

في اليوم التالي تهاتف السيدة رورو، تقول لها : "ها إنني أفي بوعدي وأتصل، كل شيء على ما يرام." وتخبرك أن المسجل لم يكن صالحاً. تقول لك : "لقد حاولت اللحاق بك لاخبارك بذلك قبل سفرك، ولكنني لم أتمكن من اللحاق بك". فتضحك وتقول لها : "حين أعود يمكن أن نتحدث في الأمر". وتضع سماعة الهاتف هامساً : على عادتها، تكذب وتعتبر ذلك شطارة.

حين تعود إلى المدينة التي تقيم فيها من جديد تستقبلك رورو. تضع لك الطعام، ثم تجاملك قائلة : "لقد افتقدناك"، وتأتي على ذكر المسجل، تكرر ما قالت أمام ابنتها. تقول لك: "لقد كان خربا"، فتجيب ابنتها ببراءة تامة : "إنّ فيرو ضرب المسجل، وهو يدور، بحذائه، فخرب". تبتسم رورو وتقول لك : "على أية حال سنرسله إلى الفني ليعيده إلى حالته الأولى ونعيده لك من جديد".

في الأيام التالية لعودتك تكرر رورو زياراتها لك، ترى مارغوت طالبة الاستشراق التي أقامت منذ فترة قريبة في السكن عندك فتعلق، "إنّ أنفها طويل. صحيح أنّها شقراء وطويلة إلاّ أنّها ليست جميلة" وتتابع : "ولكني سأدعوها لزيارتنا. هناك فلافل وبيتزا وأمام كاسب مشوار طويل في الدراسة".

وتأتي لمى من بون. تتصل بك وتخبرك أنّها قدمت إلى هنا لتلتقي بالدكتورة ألف نون بناءً على نصيحة أستاذها هناك. تحدثك لمى عن أشياء كثيرة فتكتشف أنّها تعرف عنك وعن الطلبة العرب الشيء الكثير. تسألها: "من أين عرفت هذه الأشياء كلّها ؟" فتجيبك : "لقد أخبرتني الدكتورة ألف نون عن علاقتك بالسيد ألف باء، وأوضحت لي أن هناك مشاكل بينكما" فتغضب قائلاً بحدة : "ومن أعطاها الحق في ذلك ؟"، وتكون رورو حاضرة. تستمع إليكما، وفجأة تبدأ بالدفاع عن الدكتورة ألف نون. تقول رورو على مسمع لمى : "إنّها جيدة. لقد ساعدتنا كثيراً، وأعتقد أنّها أفضل دكتوره هنا". وتنظر في عيني رورو لتلمح لها أن رأيها كان غير ذلك، وأنّها تقول كلاما غير ما كانت تقول. وتهمس لك رورو حين تتحدث لمى مع كاسب : "ينبغي أن نحسن العلاقات مع الدكتورة، من الآن فصاعداً. أنت تعرف أنّ كاسب يجد صعوبة في الدراسة، وأنه بدأ يعمل ". وتضيف رورو : "وحتى تسهل الامتحان عليه وتقرأ

له بسرعة وترسل له الطلبة ليساعدوه في ترجمة ما يكتب، لا بدّ من تحسين العلاقة مع الدكتورة".

تودعكم لمى، وتكرر دعوتكم لزياتها في بون، وتذهب أنت وكاسب ورورو والأطفال إلى الغابة القريبة. وفي الطريق لا تبدي رورو اعجابها بجمال الطبيعة الألمانية الأخاذة فهي لم تكترث لها أصلا، ولكنها تأخذ، من جديد، تشتم السيدة ألف نون والساعة التي حضروا فيها إلى هذه البلاد.

بعد أيام تفاجأ بأن رورو ستسافر إلى القدس. تبدو فرحة لذلك. تحدثك عن مشروع البناء الذي تركوه. تخبرك أنها ستقدم السيدة ألف نون إلى الشاعر س.ق. وأنها أيضاً ستدعوها إلى بيت أهلها هناك. وتهمس رورو : "إنّ همي أن تنهي بسرعة وتعود. فأنا أخشى أن تظهر لنا دومينو من جديد، أو دومينو جديدة". وتلحظ أن شبح دومينو ما زال يلاحق رورو. وتأخذ رورو بملاحقة كاسب. تأتي إلى الجامعة لتأكل في المطعم. تذهب إلى الطاولة التي يجلس عليها كاسب لترى إن كان موجوداً أم لا. تصعد إلى الكافتيريا. وفي أيام الصحو تجلس في ساحة الجامعة لتتحدث مع هذه وتلك. وبعد أن تضع رورو مولودها تهتم بنفسها اهتماماً لافتاً للنظر. تشتري الملابس. وتقص شعرها وتحاول أن تبدو على أحسن ما يكون.

× × × × ×

من القدس تتكلم صباحاً. تخرج من غرفتك لتجيب على الهاتف وتخرج من وحدتك في منزل الطلبة الخاوي إلاّ منك. تخبرك رورو أنها اتصلت غير مرة في البيت فلم تعثر على كاسب. تسألك إن كنت تعرف عنه شيئاً. تطلب منك أن يتصل بها للضرورة. وعند الظهر تتصل من جديد. تخبرك أنها اتصلت أيضاً به في مكان عمله فلم تجده. وتسألك من جديد إن كنت تعرف عنه شيئاً. وتجيب بحدة : لست ولي أمره. وأنت تعرف أنّ كاسب الذي يتهرب من لقاء الأصدقاء إلاّ قليلا، بسبب النقود، يغادر إلى ساربروكن ليلتقي هناك بدومينو. وتتظاهر بالغباء. تتصل رورو مساءً، للمرة الثالثة، وتكاد تجن. ثم تركز طالبة منك أن يتصل بها للضرورة. وتقول لك كلاماً ملغزا : "قل له إن الثلاجة كبيرة. وأنا أريد أن أبلغه عنها. أريد أن أسأله ماذا نفعل بها ؟". فيما بعد تعرف أنّ رورو، لعدم وجود علاقة ظاهرة لك مع امرأة، تسميك بالثلاجة. وتعرف أيضاً أنها التقت بالسيدة ألف نون في القدس، لتخبرها هذه، بدورها،

عن أشياء تخصك. وأن رورو كانت تستمع إليها وتصدقها وتعزز لديها أشياء من أجل أن تساعدها في التسهيل على زوجها في الامتحان.

× × × × ×

تأتي رورو إليك، في صباح اليوم التالي لعودتها من القدس. تدعوك لزيارتها. تدخنان معاً سيجارة ثم تشربان قهوة عربية، وتلحظ أن رورو على غير عادتها. تعرض عليك أن تخرجا معاً إلى السوق، وفي الطريق تخبرك قائلة : "اسمع. لقد أخبرتني الدكتورة أنّ فالح قال لها إن بعض الطلبة العرب يتهمونها أمنياً" وتطلب رورو منك أن تكون حذراً. ولا تفاجأ بهذا. تخبرها إن السيدة ألف نون أخبرتك أيضاً بذلك، وأنك وكاسب لم تصدقاها، وأنكما سألتما فالح في الأمر، فأخبركما هذا، بدوره، أنه تحدث عن السيد ألف باء راء وزوجته. وتتنهد رورو وتهمس : "اسمع أنت الوحيد الذي نحترمه لأنك الوحيد الذي بقي خارج المستقع. نحن نعرفك ونقدر لك موقفك يوم رفضت العمل معها لأجلنا، خلافا للآخرين. فكن حذراً". وتشكر رورو لصراحتها.

× × × × ×

وتعتري رورو حالة من الفرح من جديد. لقد مرّ عليها عام أو يزيد وهي قلقة، خائفة، متوترة من معاملة كاسب لها. والآن يسافر معها في رحلة إلى مدينة بعيدة، بعد أن كان يرفض أن يصطحبها إلى مقاهي الطلبة، ليلاً، لأنها حامل. "غداً ألد وأعود كما كنت بل وأجمل من هؤلاء الفتيات" كانت رورو تقول له حين يرفض أن تخرج معه مساءً. وفي الطريق تسألك رورو من جديد : لماذا لا تصادق فتاة وتنسى ؟" وتنظر إلى فالح وكاتي، فرحةً : "أنا مسرورة لهما" تقول لك وتكرر : "صحيح أن الناصرية صديقتي ولكن فالح شاب جذاب، وهو يستحق فتاة مثل كاتي، النارية" وتصمت متذكراً مشاكل رورو مع زوجها أيام وجود دومينو. تقول لنفسك : "لماذا لم تكوني تبررين لكاسب، إذن، صداقته لدومينو وأنت حامل ؟"

وتتحدث رورو من جديد عن مشروع البناء في القدس. ويتدخل كاسب ليحسب كم دولاراً سيدر عليه المشروع. يتحدث عن أجور السكن في القدس. ويتذكر شقته وأجرتها، ويعرض عليك أن تستأجر شقة عنده لأن أجواء مدينتك، اجتماعياً، لا تحتمل.

ولا تتحدث رورو وكاسب عن النقود. لقد استمر كاسب يعمل في الأجازة، غير مكترث كثيراً لأمر الدراسة. "أحسن علاقتي مع الدكتورة، وهذا يكفي" كان يقول، وكانت رورو تضيف : "وندعوها إلى وجبة طعام جيدة، فهي من الصنف الذي يحب الدعوة الى الطعام. لقد تعلمت هذا من العرب".

في المساء المتأخر، حين تصلون إلى المدينة البعيدة، باحثين عن فندق، تثور كاتي وتغضب منكم جميعا. تقول : "لماذا لم ترتبوا الأمر من قبل ؟". لقد كانت الفنادق شبه مكتظة، وكانت الساعة تقترب من الواحدة صباحاً. وأبدت كاتي استعدادها لدفع مائة مارك للفندق، إلاّ أن كاسب ورورو يترددان. تنزعج كاتي كثيراً، ولأن بعض الفنادق لم يكن فيها إلاّ أسرة لأربعة أفراد تلتزم بأن تحل مشكلة الجميع. وتذهبون إلى مسكن الطلبة. تسألون عن طلبة عرب حتى يساعدوكم في العثور على فندق، فيقترح فلسطيني أن تبيتوا في المسكن حتى الصباح. وتوافق كاتي التي تبدي في الصباح امتعاضها، خلافاً لرورو التي قالت، وأنتم تشربون القهوة، : "لقد وفرنا مائتي مارك"، فيجيبها فالح : "إننا هنا لنرى المدينة ونرتاح لا لنوفر النقود". ولكن رورو وكاسب يفكران في إتمام البناية هناك في القدس. لقد كانت رورو في السيارة، في أثناء الرحلة، تتحدث عن البناية كثيراً. وكان كاسب يصدها حتى لا تكثر الاسئلة عن مصادر الدخل. وتتوتر العلاقة هناك. تتدخل رورو في كل صغيرة وكبيرة. تريد أن تأكل كما ترغب هي. تتنافر مع زوجها فتفرغ حقدها عليك. يلاحظ الفلسطيني الذي تعرفتم عليه هناك هذا. وحين يصدها زوجها طالبا منها ألا تتدخل في شؤونك يعقب هامساً : هل يغار ؟ ويحتد الأمر حين تطلب من رورو ألاّ تتدخل في أمورك "افعلي ما تريدين يا رورو وأنا أفعل ما أريد". ويثور كاسب حين يستمع إلى هذا. يشتمها بحدة فتبكي وتنسحب من المطعم. ثم تشرح، فيما بعد، الأمر لكاتي ولفالح وتقول : "إن كاسب يحتقرني، وأنتم تعرفون كم تحملت في أثناء وجود دومينو، ولكنها أصبحت عادة".

بعد العودة من الرحلة يخبرك كاسب أن السيدة ألف نون أخبرت زوجته، وهما في القدس، أنّ البغل" كما كانت رورو تسميه، صديق ألف باء راء وهذا أيضاً، قد تحدثا عنك للسيدة ألف نون وزوجها كثيراً، وأنهما هما سبب مشاكلك. تذهب إلى ألف باء راء فينفي هذا بدوره ويتهم فالح، كما كان اتهمه من قبل، ويأتي كاسب ليستمع إلى نفي ألف باء راء، وتغادر المدينة إلى بون.

× × × × ×

تقترب أعياد الميلاد، فتودع بون قافلاً إلى المدينة التي تقيم فيها. تودع الناس والشوارع وشجرة عيد الميلاد والعائلة التي تقيم عندها وكاترين التي تنتظر منك بطاقة معايدة ذكرى للقاء عابر آثرتَ ألاّ يستمر طويلاً. وتسترجع وأنت في محطة القطار الفتيات : يأتين ويذهبن ويخلفن وراءهن الخوف. فجأة يأتين وفجأة يكبر الخوف منهن، تهمس : "إن بربارة لا تختلف كثيراً عن نينا، ونينا لا تختلف كثيراً عن كاترين إلاّ في الشكل. ثمة نساء نساء وثمة نساء رجال" وتصعد القطار السريع فينطلق بك في رحلته الطويلة، وتمعن النظر على جانبي الطريق. تقارن بين الصورتين : النهر والأشجار في نهاية اكتوبر، والنهر والأشجار في النصف الثاني من كانون الأول. تتذكر أستاذ الاقتصاد الذي زارك قبل عام وتحدث عن جمال الطريق بين فرانكفورت وبون في أوائل الخريف، وتتذكر أطفالك الذين غادروا. حين يقف القطار في محطة مطار فرانكفورت يستبد بك الشوق. يحملك إلى الماضي القريب. تتذكر لحظة ودعت الطفلتين. هل شاهدتاك والدمعة تسقط خفية. هل شاهدتا قلبك يفر من بين ضلوعك ؟ وتتمنى لو أنّ القطار غير طريقه، تتمنى لو أنك عدت بالسيارة.

وتصل المدينة.

كان المساء يخيم عليها، وكانت زينة أعياد الميلاد تملأ الشوارع. وأنت في محطة القطار تحمل حقائبك وحيداً. تنظر إلى الآخرين فتفرح لفرحهم وتنظر إلى البعيد. تتذكر يوم غادرت بلادك وتتصور يوم تعود. تمر قرب شارع يوسف عشرين فتتذكر بربارة والأيام التي مضت، وتسترجع الخوف الذي كان، وتمشي وحيداً، تحاول أن تطرد البرد وبرد الوحدة بالنظر إلى واجهات السينما، ولكنك تسير مسرعاً. تصل ماكدونالد فتدخل لتشرب القهوة وتشتري بعض الطعام.

في منزل الطلبة كانت الأضواء تشع. تشعر بالراحة، فما زال الطلبة موجودين. تقول : "لعلهم يجهزون حقائبهم للرحيل" وتتابع : "وستعود، كعادتك كل عيد ميلاد، حارس البناية الوحيد" تفتح باب الغرفة، وتنتظر الصباح. يأتي ستيف، ويخبرك أنّه سيسافر غداً إلى (ويلز)، يقول لك أن ثمة رسائل قد وصلتك، "لقد وضعتها على الطاولة" ويتابع : "وفي غيابك جاءت امرأة عربية قالت إنها زوجة صديقك، وأخذت بعض الأشياء". ويودعك ستيف بعد ساعتين مغادراً وصديقته.

مساء اليوم التالي تراك رورو في الطريق. تبتسم لك، فتسألها : "كيف تأتين يا رورو إلى غرفتي في غيابي؟ وبأي حق تأخذين ما تريدين دون إذن ؟"، وتجيب بسذاجتها المعهودة :

"لقد أخذت منشر الغسيل" وتتابع: "وحين يأتي كاسب فسيعيده إليك". تقول لرورو : "هذه وقاحة". فتهددك وتقول لك "هناك من يؤدبك على وقاحتك". ويأتي كاسب في المساء ليراجعك في الأمر، فتطلب منه الانصراف.

وتبدأ رورو بمتابعتك. تتقصى أخبارك وتسأل عنك باستمرار. تدعو فتيات الاستشراق إلى منزلها، تسألهن: "أليست له صديقة ؟" تقول لهنّ : "أحيانا أراه مع بعض الفتيات. يأتين ويذهبن." وتتابع : "في الفترة الأخيرة أخذ يبدو غير طبيعي. يشتري الملابس الأنيقة جداً، يهتم بشكله لدرجة لا تتصور. يجلس في غرفة التلفاز مع الفتيات الألمانيات. الهندية مانو تخبرني أنه لا يتحدث معها حين يكون هناك ألمانيات إلاّ قليلاً. تقول لي أيضاً : إنه يذهب إلى الغابة وحيداً، وأحياناً بصحبة الفتيات. بين الفينة والفينة يحادث فيفيا السمراء ويسيران معاً. وفيفيا "تتابع رورو" تخبرني أنّه يشرب البيرة والنبيذ ويعود إلى منزله في ساعة متأخرة. وبرنو أكّد لنا ذلك. لقد ذهب لزيارته غير مرة فلم يجده.

× × × × ×

ذات مساء، تبصرك رورو، وهي عائدة من المطعم العربي - اليهودي الذي أخذت تعمل فيه مؤخراً، مع فتاة ألمانية طويلة ونحيفة وذات شعر قصير. كانت الفتاة تشبه نينا إلى حد بعيد. تبتسم رورو وتبحلق في الفتاة التي هبطت فجأة من السماء. وتنظر رورو وتعاود النظر، كأنما تريد أن تقول لك : "حين أتي إليك في الحادية عشرة مساءً لأسألك عن كاسب تقول لي : حان موعد نومي، وها أنت تخرج مساءً مع السيدة". وتعمم رورو الخبر. تخبر كاسب وفالح وعدوتها القديمة : زوجة ألف باء راء، التي كانت، كما أخبرتك رورو، تتكبر عليها وتتهمها بأنها لا تجيد شيئاً سوى طبي الطعام والثرثرة والحديث عن الملابس والأشياء التافهة.

تعود رورو من المطعم، وتذهب رورو إلى المطعم. وهناك تلتقي بمانويل ويوسف اليهودي المغربي الذي يشبه العرب. وتتحدث بفرح عن عملها الجديد. "كنّا هناك نعرف طلبة يهوداً" وكانت تضيف : "وكنّا نعمل معا". وتتذكر أنت الحفل الجامعي، تتذكر رورو ومانويل واليهودي المغربي. كانت رورو ترغب في الحديث معه لكنها كانت تتردد. ثمة طلبة عرب كانت تقول. وتتذكر البغل وألف باء راء وزوجته وحوار هؤلاء مع مانويل يوم شارك الطلبة الأجانب باحتفال الجامعة.

تذهب رورو وتأتي رورو. وتجلس أنت وحيداً في غرفتك. تستمع إلى أخبار الجبهة العراقية، تتابع نشرات الأخبار، ولا تغير زيارة قريبك لك من الأمر شيئاً. تستمع إليه، تحاول أن تخفف عنه غربته، وتطلب منه ألا يغادر عائداً إلى البلاد ثانية إلاّ بعد انجاز دراسته. يذهب قريبك إلى مدينته وتغادر إلى بون من جديد، فلا تمكث إلاّ قليلا. لقد اندلعت الحرب، وتعود تاركاً بون.

ترسل وثيقة السفر إلى السفارة لتجديدها فيأتيك الجواب على غير العادة : "نريد منك وثيقة عقد زواج وشهادة دراسية عن الفصل الدراسي الأول".

بعد أيام تعود إلى المنزل فتجد الغرفة وقد افتتحت. تنظر إلى المزهرية فتجد وردة قد اقتطعت منها ووضعت على الطاولة. "لقد دخلوا الغرفة إذن". تتحول إلى حيوان بري، ويبدأ العالم في الاهتزاز. تراك رورو في الشارع فتبتعد عنك. وتدرك أن هناك شيئاً ما ليس على ما يرام.

نـيـنـا

تجلس في المكتبة الخالية من الطلبة، تقرأ قليلاً ثم تعتريك حالة من الضجر. هذا هو تشرين الأول، تنظر إلى السماء من خلال النافذة فلا ترى زرقتها، رماد رماد داكن يجلس في الأعالي. تتذكر الصغيرتين" لو كانتا هنا لخرجت معهما إلى الغابة، ولربما تحدثت مع عجوز ألمانية بسببهما". تضحك : "هكذا تطرد العواجيز هنا غربتهن التي تسببها الوحدة : بعض حلوى يقدمنها للأطفال ويبدأن حديثهن معك".

ثمة هدوء ما، هدوء يبعث على القلق، تهمس : "اسبوعان ويعود الطلبة، وستثرثر معهم، سوف تطرد غربتك بحضورهم".

بين لحظة وأخرى يأتي قيم المكتبة، يدخل كتباً ويخرج أخرى، ويكسر صوت الباب رتابة قاتلة. وفجأة تأتي صبية. تجلس أمامك، تتصفح جريدة، ترفع نظرك عن الكتاب، فتلتقي النظرات، تبتسم لك فتبادلها ابتسامتها بأخرى، ثم تواصل القراءة والترجمة. "اللعنة على اللغة. كيف يمكن لي أن أنقل هذا النص الأعوج". تقوم لتتناول القاموس، فتمر بالقرب منها. تبتسم لك ثانية، فتبادلها الابتسامة بالكلام : "ماذا تقرأين ؟" تضحك : "ألا ترى ؟"

تنظر إلى عنوان الصحيفة فتتذكر القدس : "الجروزالم بوست ؟" تقول متعجباً وتضيف: "هل يهمك موضوع الشرق الأوسط ؟". "نعم" تقول لك وتسألك عن اسمك، ثم تعلمك باسمها.

في عصر اليوم التالي تأتي نينا، تجلس على المقعد نفسه. فتاة في العشرين ذات جمال أخاذ. شعر قصير وقوام رشيق وعيون ساحرة. تجلس مقابلك، لتتقابل العيون من جديد، وتتبادلان الابتسامات. لا تسأل إطلاقاً عن سر جلوسها في المكان نفسه، فأنت تجلس أيضاً على المقعد نفسه.

كان ابتعاد الصغيرتين وضجر الوحدة وهموم الدراسة وفراغ المكتبة إلاّ منك ومن موظفين، وحاجتك إلى تعلم اللغة، كانت هذه الأشياء كلها تدفعك لأن تصبح حيوانا اجتماعيا يبحث عن الآخرين الذين بدا حضورهم ضرورة ملحة. وتتذكر الشرق، تهمس : "هناك تتمنى أن تجلس وحيداً بدون ازعاج، وهناك لا تجد يوما يمر بدون زيارات، وإذا جلست وحيداً فسوف تنعت بصفات لا نهاية لها".

وتفكر : ألهذا لا ننتج ؟" وتتابع : "ولكننا هناك لا نعاني من الكآبة التي يتحدث الناس عنها هنا بسبب الوحدة".

تقوم من مقعدك تهبط إلى الطابق السفلي لتبحث عن كتاب. وتلتقي وأنت صاعد الدرج بنينا. تقول لك : "أبهذه السرعة تصعد ؟" فتجيب : "عليّ أن أنجز أشياء كثيرة". وتسألك نينا : "أليس لديك وقت للراحة ؟" فتجيب : "لدي، وفي نهاية الأسبوع أكون وحيداً، وكذلك في ساعات المساء". وتحددان موعداً تلتقيان فيه خارج هذا المكان.

تذهب يوم الأحد إلى مقهى الطلبة في تمام الساعة الرابعة فتجدها تنتظرك، تجلس على الكرسي، وتبدأن الحديث. نينا الجميلة الساحرة القادمة للتو من قرية قريبة من مدينة نورنبرج، وأنت القادم من بلاد ما وراء البحار، البلاد التي لم يبق منها سوى اسمها وبعض المباني القديمة التي تدل على أنّ عرباً كانوا هناك. وتبدي نينا بعض حزن حين تخبرها أنك قادم من المناطق المحتلة، وتواسيك بأن والدها كان إبان الحكم النازي يعيش في المنفى. تسألها : "هل كان شيوعياً أم ـ ؟" ولا تكمل. وتبتسم نينا ولا تقول شيئاً.

وتسألها : "ماذا ستدرسين هنا يا نينا ؟" فتجيبك : "الأدب الانجليزي، وسأتعلم أيضا اللغة العربية. أعرف أنها صعبة التعلم ولكنّي سأحاول. لقد كنت في منزل الدكتورة التي تعلمكم ونصحتني بأن أفعل ذلك". وتقول لها مبتسماً : "إذن ستصبحين تلميذتي يا نينا". "ولم لا ؟" تجيب بفرح.

ويمر الوقت سريعاً. تقترب الساعة من السابعة مساءً فتقول لها : "ينبغي عليّ الآن أن أنصرف. عليّ أن أنجز بعض الأشياء." وتقترح نينا عليك أن تذهب معها إلى بيتها لترى موقعه حتى تزورها فيما بعد. وتذهب وراءها كالمسحور.

كان المساء قد هبط، وكانت هناك ثمة لسعة برد بدأت تذكرك بالشتاء القادم. ولا يقطع عليك ذكرياتك للقادم من الأيام إلاّ حديثها. وبعد خمس دقائق تصلان إلى البيت القريب من مركز المدينة.

تجلسان في الصالة الكبيرة الفارغة من الأثاث. تقول لها : "إن الجو هنا يبعث على الضجر. ثمة برودة ما، ولعل خلو الصالة من الأثاث يزيد الجو برودة". وتبدأ تبعثر في أشيائها التي على الطاولة، ترى جريدة الجروزالم بوست الاسرائيلية. فتسألها : "ولكنك كنت تقرأين في المكتبة العدد نفسه ؟" تبتسم نينا وتتحدث : "أنا الآن وحيدة، ولم أعتد بعد على مثل هذه الأجواء، وغداً سوف تحضر زميلاتي، والجريدة تأتيني لأني مشتركة فيها". تصمت قليلا ثم تبدأ أنت تخربش على هامش الجريدة خربشات لا تدري دلالتها، تنظر نينا إليك، تقترب منك وتمعن النظر في الخربشات وتعلق بعدها : "تحتاج إلى محلل نفسي، ولكن يبدو أنك

قلق". "الدراسة والوحدة والبعد عن الأهل ولا تستطرد أكثر". تقوم نينا. تقول لك : "أضع القهوة وأعود" فتستأذنها : "ألقي نظرة على الكتب يا نينا".

تدخل نينا إلى الغرفة قادمة من المطبخ، تضع القهوة على الأرض، ثم تجلس بالقرب منك. تسألها : "تقرأين عاموس عوز". فتجيبك : "نعم، أحب أن أعرف كثيراً عن الاسرائيليين والفلسطينيين. لقد كنت في اسرائيل لمدة شهرين". وتسألها : "هل التقيت بعرب هناك ؟" "نعم، ولكن كان اللقاء مجرد لقاء عابر" وتتابع بعد أنْ تصمت قليلا : "وأحب أن أتعرف عليهم، ولكن اليهود كانوا يحولون دون ذلك !"

تقترب نينا منك، تبتسم لك، تشرب القهوة وتضع الفنجان على الأرض، وتقترب منك أكثر.

× × × × ×

تشتبك القطط اشتباكا عنيفا. تجهز كل قطة على الأخرى، كأنها تريد أن تسد جوعها الأبدي، تروي ظمأها المتجدد. ثمة قطة صفراوية وأخرى سمراء، قطتان وحدهما في هدوء المساء، وليس هناك من يحول دون الاشتباك.

× × × × ×

تسأل نينا : "أليس لك صديق ؟" فتجيبك : "كان ... ولكننا اختلفنا منذ فترة" وتستفسر عن السبب، فتصمت قليلا ثم تقول بنبرة حزينة : "إنه يريد أن يذهب للخدمة العسكرية وأنا ضد ذلك ؟" وتعقب على ذلك : "ولكنهما عامان وسرعان ما ينصرمان". فتهمس: "ليست القضية قضية وقت. إنها قضية مبدأ".

بعد فترة من الوقت يأتي صديق ما، يدخل المنزل، يضع بعض الحقائب، ويقول على مسمعك : سوف تأتي غدا. ويغادر.

ويبدو التعب على نينا. تقول لك : "إنني متعبة، وبامكانك أن تذهب الآن، وسوف أتصل بك بعد أيام".

تلتقيان في اليوم التالي، هكذا بلا تخطيط، في مكتبة بيع الكتب. تنظر إليها فتلحظها

هادئة تماما. تسألها : "كيف قضيت الليلة يا نينا ؟" "نمت نوما عميقا" تجيب، "وجئت لأبحث عن كتاب عاموس عوز" في أرض اسرائيل" تسألها : "ألم تنسِ الاسم والعنوان على الرغم من التعب الذي ألمّ بك ؟" تضحك نينا وتقول : "سأزورك اليوم مساءً. هل لديك وقت ؟" فتجيبها: "بعد السادسة مساءً. ساعتها سأكون أنهيت ما علي انجازه".

وتأتي السادسة مساءً، وتأتي نينا أيضاً. تتحدثان في الأدب والسياسة. تخبرك عن رواية عاموس عوز "ميخائيل لي" وتطلب منك قائمة بأسماء كتاب فلسطينيين يمكن أن تقرأ أعمالهم، بالألمانية أو بالانجليزية، وتقول : "إنه لمن المجدي حقا أن أقرأ الطرف الآخر." وتقترح عليها أن تقرأ كتاب برنيع وزوجته : "أصدقاء على الرغم من الإرهاب والموت"، وتعطيها النسخة التي تمتلكها. تتقبل ذلك، ثم تقول : "ولكني أريد منشورات سياسية". وتسألك: "كيف يمكن أن أحصل عليها ؟" هل لديك عنوان ما أتصل به لأحصل عليها ؟"

تسأل نينا عن اسم عائلتها، فتكتب لك العنوان كاملا. تعرض عليها أن تذهبا معا إلى بار الطلبة القريب فتعتذر زاعمة أنها على موعد مع زميلتها التي تقيم في البناية نفسها. تهمس: "وهذا أفضل" وتذهب نينا وتبقى وحدك، وحين يعود زميلك المصري مع صاحباته يراها وهي خارجة، فيعقب مازحاً : "من أين هذا الجمال ؟ إنها لا تتجاوز العشرين ٦"، ثم سرعان ما يخرج لتبقى وحيداً.

ثمة تواريخ لا تنسى : ١٠/٢٠. وثمة أفراد لا ينسون : نينا. تحاول أن تنام فلا تستطيع. تتذكر وزير مالية اسرائيل وتقارن بين اسمي العائلتين. "إذن كان كل شيء مخططا، نينا والدكتورة وزوج الأخيرة". ويلح عليك سؤال واحد : "هل كانت القطط تشتبك هكذا وحيدة في ذلك المساء، أم أن عينا خفية كانت تؤرخ الحدث ؟"

تخرج إلى الشارع، تسير وحيداً في المساء. تذهب إلى بار الطلبة. تلتقي ببعض الطلبة العرب. تجلس قليلا ثم تغادر إلى الشوارع ثانية، ولا تنام في تلك الليلة. وتواصل في اليوم التالي السير في الشوارع. " اللعينة وزوجها الخبيث. كيف تبيح أستاذه جامعية لنفسها أن تكون امرأة مخابراتية. وزوجها ذو اللحية الحمراء وعربته المكسرة، الجالس وحيداً في البيت بلا عمل". وتسأل نفسك : "هل حقا هو بلا عمل ؟" وتسترجع حواراً عابراً تم في إحدى الحفلات:

"-أنت تعرف الفلسطينيون يريدون فلسطين كلها. ونحن - (كيف أخطأ في التعبير يومها فاحمرت ملامح وجهه) - نريدها كلها. أنت تعرف أن نابلس كانت شخيم أيضاً. ولكن الفلسطينيين متعلمون ولا بدّ من حل ما".

لقد كنت يا نينا إذن رسول السادة. وتعود بذاكرتك إلى الوراء : "تذهب الأستاذه إلى مكتب الجريدة دون أن تطلب منها ذلك، تحضر لك عنوان رئيس التحرير المبعد، فتشكرها على ذلك وتكتب له ثلاث رسائل تطلب منه فيها أن يرسل لك منشورات فلسطينية، ولا يأتيك أي ردّ. هل كان الأمر مخططا ؟ هل كان العنوان خاطئاً ؟ ولماذا تطلب نينا منك عنوانا تراسله للحصول على منشورات فلسطينية ؟"

في المساء تلتقي السيد هارالد، ربيب السيدة وزوجها، الصديق المبجل الذليل. تذهبان معاً إلى الغابة. يعرفك على مناطق لم ترها من قبل. يحدثك عن جمال الطبيعة الألمانية. وتبدأ تسأله عن أسماء عائلات معينة، وتستفسر منه إن كان لها ارتباط ديني معين. تختار في البداية اسماء مسيحية ثم تسأله عن الاسم (نينا).

ويسألك هارالد، هكذا بلا تردد، : "هل أنت خائف من العودة ؟" وتفترقان.

تقول لنفسك : "إذن لقد كان كل شيء مخططا ! هل كان يعرف إذن الحكاية كلها أم أنهم طلبوا منه أن يثير أمامك هذا السؤال فقط ؟"

فيما بعد حين كنت ترى نينا، كانت تغض الطرف وتغادر المكان مسرعة. وحين كنت تذهب إلى البار وتجدها هناك، كانت ترتعد وتضطرب وتغادر المكان.

يأتي، ذات نهار، مانويل إلى مطعم الطلبة، يجلس بالقرب منك، يبدأ الحديث معك، فتسأله إن كان اسم عائلة كذا يرتبط باليهودية. يضطرب، يحمرّ وجهه، ويسألك : كيف عرفت هذا ؟.

تلحظ في قاعة المكتبة الخالية من الطلبة، بسبب الإجازة، طالباً مربوع القامة، أشقر الشعر مع جبهة عريضة. يأتي يومياً، ويجلس في الجهة المقابلة، يقرأ ساعات عديدة، وبين الفينة والفينة ينزل الى الطابق السفلي من المكتبة ليبحث عن كتب. تعرف، فيما بعد، أنه قدم حديثا ليكمل دراساته العليا هنا، وأنه يعمل مع أستاذ الأداب التركية. ولا يكلم أحدكما الآخر، فقد كانت نينا تأتي وتجلس أمامك، ولم تكن تكترث لأمره كثيراً. وبعد أيام يأتي السيد هارالد إلى المكتبة، يلتقي به ويقدمه إليك : "- ماورو، طالب الدراسات العليا الجديد في قسم الاستشراق".

وفي الأيام اللاحقة لهذا اللقاء، تذهبان معاً إلى المقهى القريب من الجامعة. يقول لك ماورو : "إن طلبة الجامعة يجتمعون هنا في الإجازات" فتعلق : "أبهذه السرعة تكتشف الأشياء؟" يبتسم ويقول لك : "هكذا ينبغي". ويسألك ماورو عن دراستك. يقول لك : "لقد درست العربية ولكنني لم أمارسها" ويتابع : "ولعل اللقاء معك يساعدني على استعادة ما تعلمت". وتتفقان على موعد أسبوعي. تتحدثان ساعة بالعربية وثانية بالألمانية. يأتي إلى منزلك غالبا، وتذهب إلى غرفته البعيدة مرة واحدة. يقول لك : "أنا أسف لأنني لم أدعك من قبل. أنت ترى هذه الغرفة الضيقة. هنا أنام وهنا أقرأ وليس هناك من متسع". وتنظر في الغرفة التي استأجرها قبل شهر تقريبا فلا ترى فيها سوى ما يبعث على الكآبة والضجر. شيء ما يقبض على قلبك ويزيد الامر اكتئاباً لهجته الهامسة. وحين يأتي ماورو لزيارتك يحضر معه أربع قطع من الكاتو، ويقول لك : "أنت تقدم القهوة"، وفيما بعد يحضر ثلاث قطع ثم تتقلص مع الأيام إلى قطعتين.

وتتحدثان معاً، مرة بالعربية وثانية بالألمانية. تتحدثان عن الدراسة والحياة الاجتماعية عند العرب والألمان، ويعرفك ماورو بصديقته اللطيفة فتدعوها لزيارتك، وتفعل الشيء ذاته. ثم تسافرون معا بصحبة صديق ماورو إلى المناطق القريبة. تزورون القلاع والأماكن الأثرية وبعض الكنائس الشهيرة. وفي هذه الأثناء تقص عليك بربارة قصة حياتها. تتحدث عن الرجال واهلها وهم النساء، وتذكر أمامك أنها عاشت وأختها مع أمها بعد أن تركها أبوها. "كنت طفلة" تقول لك بربارة وتضيف : "ولا أشعر بأية عاطفة ازاء والدي" وحين تعلم أنك متزوج، وأن زوجتك ليست هنا، تقول : "وأنت مثلهم. جميع الرجال هكذا. في البداية تقولون الظروف ثم تبحثون عن امرأة أخرى".

يتحدث لك ماورو، فيما بعد، عن دراسته في فينا. يقول لك "لقد قاطعني الطلبة العرب هناك، لأنهم كانوا يعتقدون أنني يهودي"، فتعقب ببداهه : "ولكن ذلك سبب غير كاف". تقول ذلك، أنت القادم من بلاد يقتل فيها الاسرائيليون اليهود أبناء وطنك بلا تردد. تقول ذلك وأنت تشاهد كل مساء شاشات التلفاز التي تبث ما يجري هناك في الوطن المحتل، وأنت تقرأ أيضا الصحف اليومية التي تكتب عن الانتفاضة مستخدمة هذه المفردة التي فرضت نفسها على الصحافة. ولكنك ما زلت مقتنعا بفكرك : "إن المشكلة تكمن في الصهيونية لا في اليهودية". وتوضح له أن هذا ليس سببا كافيا، ولا تسأله إن كان حقا يهوديا أو غير يهودي، ولكنك تسأله عن أهله ومكان إقامته الأصلي. فيخبرك أنه من عائلة تتكون من أربعة إخوة، وأن والديه يقيمان بالقرب من ميونخ.

تواصلان اللقاء الأسبوعي، تتحدثان بالألمانية عن حياة الطلبة الألمان، وعن اهتماماتهم الفكرية والسياسية، ولا تتحدثان كثيراً عن الشرق الأوسط. وفجأة يسألك ماورو عن زوج الدكتورة، يقول : هل صحيح أن زوج الدكتورة ألف نون اسرائيلي ؟" وتعتريك حالة من الدهشة، وتتساءل في داخلك : "لماذا هذا السؤال ؟". تتذكر ما قاله لك عن موقف الطلبة العرب منه، وتجيب باقتضاب وتغاب : "- إن هذا الأمر لا يعنيني كثيراً. كل ما أعرفه أنه ألماني، ثم إن لقاءنا لقاء عابر".

وتقص ذلك الحوار على كاسب، فيسألك عن اسم عائلة ماورو، وحين تعرف ذلك من ماورو وتقول لكاسب، يقول لك الأخير : إنه اسم عائلة يهودية. وتتعامل معه منذ تلك اللحظة بحذر شديد، لا لأن اسم العائلة يوحي إلى كونه يهوديا، ولكن لأسئلته الفضولية التي بدأت تكثر. وحين يسألك عن الدكتورة ألف نون، تتحدث بايجاز : "لقد ساعدتنا في المجيء إلى هنا، وبين فترة وأخرى نلتقي بها، تتحدث لنا عما يمكن أن تقرأه حتى يساعدنا في دراستنا".

في مطعم الجامعة تقرآن معاً إعلاناً علقته المجموعة الماركسية ينص على أنّ ثمة ندوة ستعقد هناك. يقترح عليك أن تذهبا معا. ثم يبدأ الحديث عن المجموعة الماركسية. يتحدث باطناب عن هؤلاء الطلبة الذين لا هدف لهم سوى النقد فقط، "إنهم ينقدون المجموعة الاشتراكية ولكنهم لا يضعون برنامج عمل" يقول ماورو، ويتابع : "كل هدفهم النقد : نقد "هنا" ونقد "هناك". وهناك أقاويل تزعم أنّ هذه المجموعة تمول من السي أي ايه". وتفكر في الأمر : "هل يريد السيد ماورو أن يستدرجني ليعرف إن كانت لي ثمة صلة بالمجموعة ؟" وتعتذر له قائلا : "لا أعتقد أنني سأستطيع المجيء في هذا الوقت".

يتحدث ماورو حين يتعرف على صديقك المصري، عن هؤلاء وفهلوتهم. يسألك عن سبب اختلافك مع ألف باء راء. يسألك أيضا من جديد عن الدكتورة ألف نون. يقول لك : "إن علاقتها بالسيد ألف باء راء ليست جيدة، وهي بالتالي لا تكترث لما يقوله عنك أمامها". وحين يعرف أنك اختلفت معها، ولن تواصل العمل معها في الدراسة لا يوافقك على رأيك. "إنها ليست مزاجية كما تزعم" يقول لك، ويواصل "أنت تعرف أن السيدة ألف نون امرأة متزوجة ولها العديد من الأطفال، وهذا يسبب لها المشاكل، وهي تختلف عن الأكاديميين الألمان : "إنهم إن تزوجوا فقد ينجبون طفلا واحداً وقد لا ينجبون" يقول، ويتابع : "إنّ عليهم أن يقرأوا يوميا ما لا يقل عن ثماني ساعات حتى يثبتوا أنفسهم أمام زملائهم" ويواصل حديثه: "إن روح المنافسة تسود بينهم. كل واحد منهم يريد أن يتميز. والسيدة ألف نون تسافر كثيراً، وهي لهذا، لم تنجز شيئا منذ خمس سنوات" وينصحك ماورو أن تنهي دراستك معها "فهي" يقول ماورو "طيبة القلب وتريد أن تساعدك".

تعود من بون قبل اندلاع حرب تدمير العراق وتلتقي مع ماورو. تتحدث عن دراستك هنا، عن الأساتذه ومستوى الطلبة وعما كتبت، فيسألك : "هل التقيت كثيراً، هناك، بالسيد وحش، أستاذ الاستشراق؟" تقول له : "مرة خارج إطار المحاضرات" ويتابع ماورو أسئلته : "ولكن كيف انتبهت إلى هذه النقاط في موضوع دراستك؟" "بالصدفة" تقول، وتتابع : "من خلال قراءات عابرة". ويخبرك السيد ماورو أنه سيأتي إلى بون في النصف الثاني من كانون ثاني ليلتقي والسيد وحش، بناءً على توصية من السيدة ألف نون. يقول لك : "ربما يساعدني في الحصول على منحة للسفر إلى اسرائيل" ويتابع : "وقد أقيم هناك لتعلم العبرية جيداً عاما أو يزيد" وتعرف منه أنه سيكتب، بناء على نصيحة السيدة ألف نون، عن شعراء التعايش هناك "إن الفكرة تستهوي السيدة ألف نون كثيراً" يقول ماورو، ويتابع : "وأنا مقتنع بآرائها".

وتلتقيان في بون. تتحدثان عن حرب تدمير العراق، ولا تلحظ أية رنة حزن في صوته. لقد كان يهمس كعادته. تدعوه الى الطعام وبعد ذلك الى كافتيريا الطلبة التابعة للكنيسة. تقول له : "إن الكنيسة هنا تقوم بدور اجتماعي جيد. تقدم خدمات لا بأس بها للطلاب، وهذه الكافتيريا تابعة لها". وتتابع : "وهؤلاء النسوة العواجيز يأتين دوما ليقدمن الشاي والقهوة وقطع الكاتو للطلبة. إنهنّ من المتقاعدات، يأتين متبرعات ويعملن بلا أجر، وهن فوق هذا طيبات جداً".

ويكرر ماورو سؤاله : "هل تلتقي بالأستاذ وحش كثيراً ؟" "أحيانا قليلة" تجيبه، "فهو لا يتعامل مع الطلبة بدون مواعيد رسميه". وتتابع : "إنّ الأمور هنا مختلفة بعض الشيء عن

هناك ثمة ساعة مكتبية يقابل خلالها الطلبة، ولا يرى بعد إلاّ في المحاضرات. وإن احتاج المرء منه إلى كتاب يحضره على وجه السرعة". وتواصل : "والنقطة الأخيرة يمكن أن تسجّل حقا لصالح الأساتذة الألمان".

وتستمع إلى السيد ماورو، يتحدث عن هناك كثيراً. "إن السيد ألف باء راء لم يقدم حتى الآن للدكتوره أي فصل مما كتب، وهي لذلك متضايقة جداً منه" ويتابع : "وأنا شخصيا لم أره إلاّ قليلا، ولا أدري لماذا يتخذ منّي هذا الموقف ؟" ويتحدث ماورو عن الآخرين : "أما السيد كاسب فلا يأتي إلى الجامعة إطلاقاً، يضع الكتب على طاولة في المكتبة ويكتب اسمه وعبارة "سأعود بعد قليل" ولا يعود إلاّ في السادسة مساءً لمدة نصف ساعة. ولا أدري كيف يتكلم الألمانية، شخصيا لا أفهم منه شيئا، فهو لا يزور المحاضرات إطلاقا" ويتابع ماورو حديثه: "وبين الفينة والأخرى تتصل زوجته بالدكتورة ألف نون، تطلب منها أن تساعد كاسب وتخفف عنه في الدراسة. وهي تذكرها دوما بلقائها الذي تم في القدس في الصيف الأخير، وكذلك بالحوار الذي كان بينهما قبل المجيء إلى المانيا" ويقول ماورو : "وهناك حديث بين الطلبة الألمان عن ذلك، فالسيدة رورو تفتخر أمام هؤلاء، وهي تتحدث معهم بالانجليزية، ويذهب هؤلاء ليخبروا السيد ألف باء راء عن ذلك، وأنّ الأخير يعقّب على ذلك قائلا: "ينبغي أن نحسن علاقتنا بالسيدة رورو حتى نحصل على الدكتوراة، إذ يبدو أنّها هي الدكتورة".

ولا تدري لماذا يقول السيد ماورو أمامك هذا الكلام. تصمت وتقول له : "هذا شأنهم".

ويسألك السيد ماورو عن مفتاح غرفتك. يقول لك : "لقد علمت من السيد فالح أن كتاب بيرجيت سي كامب عن القصة القصيرة في فلسطين موجود لديك، فهل تسمح لي بأخذه ؟" "سأعود هذا الاسبوع" تقول له، وتتابع : "وسوف أعطيك الكتاب".

يسألك السيد ماورو إن كنت اتفقت مع الاستاذ وحش للاشراف على رسالتك. "لا" تقول له، وتتابع : "ولكنني سأذهب إلى جوتنجن للحديث مع الأستاذ باخمن، فقد ألقى محاضرة عن خليل حاوي وأعجبت به، وكنت قد تعرفت عليه، إنه يبدو انسانا جيداً" وتواصل الحديث : "فأنا لا أعتقد أن السيد وحش سيوافق على ذلك، إنه صديق جيد للسيدة ألف نون، والعلاقة التي تربط بينهما وطيدة. لقد كانت زميلته في الدراسة، وكانت ترسل له سابقاً الطلبة العرب".

وتفترقان لتلتقيا هناك من جديد. يستشيرك السيد ماورو عن موضوع معين في الأدب الفلسطيني يمكن أن يكتب فيه. فتجيبه : "ولكني فعلت ذلك من قبل ورفضت ذلك" وتتابع :

"ولقد اقترحت عليك السيدة ألف نون موضوعاً أخبرتني به ونحن في بون" وتواصل : "وبامكانك أن تستشير السيد كاسب في هذا الأمر" وتسأله : "ألم يقترح عليك مؤخراً أن تقيم عنده في القدس لتتعلم العبرية هناك ؟".

ويسألك السيد ماورو من جديد عن علاقتك بالأستاذ وحش، ويستفسر منك إن كان سألك عما يجري هنا، عن علاقة الطلبة بالسيدة ألف نون، فتجيبه بسخرية : "ألا تعرف أنني أصبحت مخابرات ألمانية. إنني لا أقول هذا للأستاذ وحش، فالأستاذ وحش أستاذ جامعي. إنني أقول هذا الكلام للجستابو".

في أواخر شباط، وعلى الرغم من أجواء الحرب التي كانت تسيطر، تذهب لحفل وداع السيدة ألف نون. لقد ترددت في البداية، ورضخت أمام إلحاح سيركس وفرانسيسكا : "ولماذا تكون الوحيد الذي لا يأتي ؟" تقول لك سيركس الطفلة الوديعة، فتجيبها : "ولكنني لم أُدْعَ من السيد فالح والسيدة رورو وبربارة. هم الذين نظموا الحفل". يجلس السيد ماورو وصديقته بربارة، ويقف استاذ الآداب التركية ليمدح الأستاذتين وعودة الود بينهما، ويفترق الطلبة العرب.

ويبدي لك ماورو وداً كبيراً، والشيء ذاته تفعله صديقته بربارة. تقدم لك قطعا من الطعام، وتسكب لك المشروبات. "إنك بحاجة إلى غذاء جيد" تقول بربارة، وتتابع : "لقد بدا عليك الإنهاك. فحين التقينا معا قبل عام تقريبا لم تكن على هذه الحال". "حقا" تقول، وتواصل : "الدراسة والأهل والحرب والسفر".

يعلم ماورو، فيما بعد، عن تردي العلاقة بينك وبين السيدة ألف نون، وعما يقال من أن فتيات يرسلن إليك قصداً، فيسألك إن كنت أخبرت السيد وحش بذلك. تقول له "لا" وتتابع : "وهذا كلام". وتتفقان معاً على اللقاء في مقهى الطلبة في الساعة الرابعة من عصر اليوم التالي.

تذهب إلى هناك في ساعة مبكرة، وتجلس وحيداً، يأتي النادل الألماني ذو الوجه البشع، فتستاء من ذلك. "كانت العادة الدائمة أن تقدم الفتيات الجميلات القهوة" تهمس : "ولم تكن ترى من قبل شخصاً ذكراً يقدم الطلبات للزبائن". يسألك النادل : "ماذا تشرب ؟" "قهوة" تقول له. ويأتي بالقهوة فتتركها بعد أن ترتشف منها رشفة واحدة. ويلفت انتباهك، في هذه الأثناء، خروج يهودي اسرائيلي كان صديقا لمانويل، يرفع يده بالتحية فيما بعد تتساءل : أكانت تحية الوداع الأبدي. يأتي شخصان عربيان من الجليل، أحدهما مسيحي من حيفا، ويجلسان بالقرب منك. يسألك ابراهيم عن الحياة هنا، ويبدأ في الحديث عن الناس تحت

الانتفاضة. يعرفك بالشاب الذي بصحبته، فتقول له : "إنني أراه مع رورو وهو يزور مبنى الطلبة". يشربان الكوكا كولا، وفي الرابعة والنصف يأتي ماورو، فتقدمه إليهما.

"لقد التقينا في بيت كاسب" يقول ماورو "وأحياناً في مطعم الباذنجان". ويذهبان.

تقول لماورو الذي اعتذر عن تأخره : "لقد طلبت القهوة ولكني لم أشربها، بامكانك أن تشربها" يعتذر ماورو ويقول لك : "سوف أشرب كوكا كولا"، وتترك القهوة على حالها وتعتذر سريعا. ثمة صداع ما. تسير على ضفة النهر وحيداً ثم تعود لتذهب إلى البيت. وتهمس: إن للقهوة حكايات لن تنسى".

تذهب إلى مطعم الطلبة في الجامعة فتلتقي بعبد الطالب العربي القادم من المناطق المحتلة عام ١٩٤٨. تثرثران معا حول أمور شتى : منحة الكنيسة والسفر إلى أرض الوطن في الإجازة والعمل أيضا في أثنائها. وفجأة يطل عليكما شخص يبدو وديعاً مسالماً هادئا منكسر النظرات. يتحدث للحظة مع عبد بلغة ألمانية جيدة. تصعد أنت وعبد بعد الانتهاء من وجبة الطعام إلى الكافتيريا التي تقع في الطابق العلوي من بناية المطعم. يخبرك عبد أن الشخص الذي تحدث معه يهودي يحمل الجنسية الاسرائيلية. ويضيف : اسمه مانويل يقيم في كفار سابا، ويدرس معنا في كلية التجارة، وقد أبدى استعداده لمساعدتي. وتعقب قائلا : "- كن حذراً. هذا هو المدخل".

وتثير العلاقة بين الطرفين الفضول لديك، فتدفعك لمعرفة المزيد عن هذا اليهودي الألماني الاسرائيلي الذي يذهب إلى الطلبة العرب ويعرض عليهم تقديم المساعدة لهم إن احتاجوا.

ويتكرر اللقاء بين الطرفين في مطعم الجامعة. وأحيانا كثيرة تجلس أنت وعبد فيأتي مانويل لتصبحوا ثلاثة. يتحدثان حديثا عابراً عن الطلبة والألمان والحنين إلى الوطن، والرغبة في السفر إلى الوطن في فترة الإجازة. ويستبد بك الشوق حين تستمع إليهما وهما يخوضان في هذا الموضوع. "هكذا يسافرون متى أرادوا، وأنا أبقى وحيداً أحرس المبنى" وتخاف، في أثناء الإجازة، من العودة إلى الوطن المضطرب خوفاً من ألاّ تعود ثانية إلى المانيا، فتخسر كثيراً.

وتلحظ مانويل وحيداً دائما. وحين تكون وحيداً يأتي ليجلس بقربك. يجاذبك أطراف الحديث. تقول : "لعله يريد أن يطرد غربته". ويأخذ يكرر القدوم في الموعد الذي تكون فيه في المطعم. تحاول أحيانا كثيرة أن تتجنب معه الخوض في موضوعات سياسية. تسأله ذات مرة : "يا مانويل : أليس لك صديقة ؟"، "كانت" يجيب، وتتابع : "والآن ؟"، "لقد انفصلنا". وتسأله : "ألا تبحث عن أخرى ؟"، "أريد. ولكني أريدها يهودية هذه المرة"، تبتسم وتقول : "ولكنك نصف يهودي. ألست المانيا ؟" "نعم، ولكن ..."، "ولكن. ماذا ...؟" ويتحدث مانويل قائلا : "لعلك لا تعرف عنّا الكثير، إنني أحب أن أقضي مساء السبت مع امرأة تحرص على اتباع العادات والتقاليد اليهودية. إن المسيحيات الألمانيات لا يكترثن كثيراً للدين". وتسأله : "وهل تكترث أنت كثيراً لهذا الأمر ؟" فيجيبك : "نعم" وتسأله من جديد : "وتذهب

للكنيس؟"، "ولدي المفاتيح أيضاً".

ولا تصدق هذا. تسأل عن اليهود في المدينة وتعلم أنّ عددهم يقارب المئتي مواطن. وتمر بالقرب من الكنيس وتتأكد من كلام مانويل. ويحدثك مانويل عن شوقه للبلاد. يبدو فرحاً لأنّ موعد الإجازة أخذ يقترب. "سأسافر إلى كفار سابا" يقول لك.

وتلتقي فيما بعد مع عبد. تقول له : "إن صاحبك يملك حقا مفاتيح الكنيس". وتواصل: "ولذا كن حذراً".

وتعرف، فيما بعد، أنّ مانويل ينظم الحفلات والندوات ويستقبل القادمين من اسرائيل يهوداً وعربا. وتعرف أن ثمة عربا هنا يذهبون إلى الكنيس حين يأتي وفد عربي - يهودي مشترك. وتستغرب من سلوك هؤلاء الذين يبدون متطرفين في ارائهم.

يأتي مانويل يوميا إلى المطعم. يراك وحيداً أو مع الآخرين. يحدثك. يعرض عليك أن تقيم ندوة في الكنيس مقابل مبلغ من النقود، تعتذر قائلا : "إنني لا أجيد الألمانية" ويبدو عليه الامتعاض وهو يرد عليك : "هذا تبرير، فأنت تتحدث بلغة جيدة، وهذا يكفي". ثم يواصل مانويل عروضه، يقول لك : "ما رأيك في أن تزورني في البيت. لدي قهوة عربية مع هال" تبتسم وترد عليه : "يمكن أن نشرب قهوة هنا أو في المقهى القريب" وتتابع: "ثم إنني لا أحب القهوة العربية".

وتلتقي مع مانويل في السوبر ماركت، تتحدثان حديثا عابراً وتفترقان. وتلتقيان في الشارع تتبادلان التحية والسؤال التقليدي وتفترقان. وتحتار في أمره. يبدو حزينا إلى درجة لا تتصور. يسير وحيداً. يشتري أغراضه وحيداً، ويقيم وحيداً، وليس له أصدقاء بين الألمان. وبين الفينة والفينة تجده بصحبة يهودي أخر وامرأتين.

ويسألك مانويل عن زوجتك وأطفالك. تقول له إنهم هنا. وحين يواصل الكلام قائلاً : "ولكنني لم أعد أراهما" تجيب : "أحيانا يذهبون في إجازة ثم يعودون".

ويغادر مانويل، حين تسأله عن عائلة نينا، وإن كان الاسم يخص عائلة يهودية فقط، مطعم الجامعة غاضبا. تلتقيان. تتبادلان التحية ببرود. تلتقيان من جديد حين يقف مانويل مع عبد وباسم ومؤيد وأخرين. تصغي إلى الحوار الدائر بينهم حول احتمالات الحرب العراقية - الامريكية. يدين مانويل العراق بشدة، ويتمنى لو تقدم أمريكا على ابادة ترسانة الأسلحة التي يملكها صدام. وتتدخل في الحديث الدائر. تقول لمانويل : "وماذا عن ترسانة الاسلحة التي تملكها اسرائيل" فيجيبك "إننا نستخدمها للدفاع" تضحك وتقول "ولكنكم هاجمتم العراق عام ١٩٨١" فيجيب : "كان ذلك دفاعا"، تقول : "ولكن العراق لم يكن في حالة حرب معكم"

ويوضح الأمر قائلا: "صدام ديكتاتوري ونحن دولة ديمقراطية" وتضحك من جديد : "دولة ديمقراطية. وتحتلون أرضنا وتقمعون شعبنا. لماذا لا تنسحبون إذا أردتم أن ينسحب صدام من الكويت ؟ ولماذا لا توافقون على تدمير الاسلحة الذرية التي بحوزتكم ؟". ويجيب مانويل: "وماذا ستفعلون ببعضكم حين ننسحب ؟"، "هذا شأننا" تقول، وتتابع : "نحن نريد انهاء الاحتلال"، "ولكنكم لم تصلوا بعد إلى مرحلة تحكمون فيها أنفسكم بطريقة ديمقراطية، ونحن نخاف من التطرف"، "- ولكن هذا شأننا".

تقول لمانويل : "إنّ اليهود لم يتعلموا من تجاربهم" وتتابع "لقد زرت (داخاو) قبل فترة وجيزة وأحزنني ما رأيت" وتواصل الحديث : "ولكن ما يحزنني أكثر أنكم تفعلون بنا ما فعلة النازيون بكم".

يحمر وجه مانويل، يحتد ويطلب سيجارة من عبد، يشعلها. يسحب نفسا عميقا ويصرخ: "إنني أرفض هذه المقارنة" وينسحب مانويل وينسحب الآخرون، وتبقى وحيداً أمام مطعم الجامعة. تهمس بينك وبين نفسك : "بعد شهرين تبدأ الإجازة وسيسافرون إلى بلادك بلادهم" وتخاطب نفسك : "وعليك أن تبقى وحيداً حتى تنهي دراستك".

يأتي مانويل إلى المطعم. تلتقيان فلا تتحدثان. أحيانا تتبادلان التحية، وأحيانا تتجاهله كليا. يدرك مانويل هذا، وحين يراك تتحدث والسيد كاسب يأتي ليتحدث معك. يكرر ذلك مراراً. تدرك لعبته الخبيثة وتهمس : "لا بأس". وتقتنع أنّ مانويل لم يكن سهلا على الإطلاق. تتذكر ما قاله لك عبد في البداية، وتوقن أن عليك أن تكون أكثر حذراً.

يعرف مانويل مواعيد ذهابك وإيابك، يعرف الطرق التي تسلكها، ويأتي يوميا إلى المطعم في المواعيد المحددة. تتجاهله كليا، ومن بعيد تمعن النظر في شكله : طوله، وسترته التي تشبه سترتك، وعيونه وما فيهما من انكسار، وصلعته التي تكبر، وحين تسترجع الأحاديث التي كانت تدور بينكما أمام الآخرين أو في مطعم الجامعة لا يبقى عالقا في ذهنك سوى طريقته في الكلام التي تشير إلى انكسار حاد، انكسار ربما ورثه عن بعض أجداده الذين كانوا هنا، وتتذكر الصور التي شاهدتها في (داخاو)، والأفلام التي شاهدتها، حول الكارثة التي ألمت بهم، في مبنى البرلمان الألماني في (برلين)، وتحزن قليلا على الضحايا الذين قضوا، وتحزن أكثر لأن بقايا الضحايا لم يتعلموا أبداً من ماضيهم وتجاربهم. تتذكر أهلك هناك وفي المساء تجلس أمام شاشة التلفزيون لترى مانويل البعيد يلاحق إخوتك الصغار. وتهمس : "هذا العالم مهزلة".

تقترب أعياد الميلاد. وتتابع أخبار الاستعداد للحرب. تذرع مبنى الطلبة : "لقد غادروا جميعا، وعليك أن تنفق ثلاثة أسابيع وحيداً"، تخرج إلى الشوارع. تذهب إلى مكتبة الجامعة : "لقد سافر الطلبة" تهمس حين لا ترى في الساحة العامة أحداً : "وحدك في هذا الصقيع" تناجي نفسك وتتابع : "لقد غادر الطلبة جميعهم إلى حيث يقيم أهاليهم، الألمان منهم وغير الألمان، وعليك من الآن فصاعداً أن تبقى حارس المبنى الوحيد". وتمر أمامك ذكرى الأعياد الماضية. "في العام الماضي زارني أستاذ التاريخ، مكث ثلاثة أيام وانصرف" وتتساءل : "وهذا العام من سيزورك ؟" تسترجع الطلبة الأجانب واحداً واحداً : "حتى مانو الهندية سافرت إلى أمريكا، وتشي الكورية القميدة ذهبت لتقيم ضيفة بين العائلات الألمانية"، "لا بأس" تقول "فتلك عادة ألفتها" وتخاطب نفسك "وعليك أن تنجز أشياء كثيرة، فلم يبق أمامك شيء كثير، ثلاثة أشهر أو يزيد قليلا وتعود إلى الضفة نهائياً".

تفتح باب المكتبة. تنظر خلفك فتبصر فتاة شقراء، شبه ممتلئة، ذات شعر طويل نوعاً ما، تقترب من الثامنة والعشرين من العمر. تبتسم وتحييك : "أنت لا تعرفني" تقول لك وتتابع : "ولكنني أعرفك جيداً". "كيف؟" تسأل، فتجيب : "انجيل وبرنو، انجيل الاسبانية وبرنو الألماني. لعلك تذكرهما جيداً"، "بالتأكيد" تقول. وتسترجع يوهان حفل زفافهما : "لقد رأيتك يومها، رأيتك في الكنيسه وفي صالة الاحتفال. كانت فيفيا تجلس بالقرب منك، وكذلك مارغوت طالبة الاستشراق، ولم تلتفت يومها إليّ، وحتى في صالة الاحتفال ظللت تتحدث إلى مارغوت، وكنت أراقبك" وتتابع يوهان : "وكنت يومها أتساءل ما الذي يعجبك فيها ؟ صحيح أنها تجيد عدة لغات، ولكنها تبدو متعجرفة، ولا أعتقد أنها تأسر لب رجل" وتقترح عليك يوهان أن تزورها. تقول لها : "لا مانع" وتعطيها عنوانك وتتفقان، في اليوم نفسه، على موعد.

تأتي يوهان في الموعد المحدد. تجلس في غرفتك. تشرب القهوة فتندلق على ثيابها. تقول لها مازحا: "يمكن أن تغسلي البنطال"، "بهذه السرعة" تجيب، "لم أقصد" تقول لها.

وتعرفك يوهان بنفسها، "لقد كنت في اسبانيا لمدة عام" تقول لك : "وهناك التقيت بانجيل وسكنا معا، وكانت تذكر اسمك حين تتحدث عن برنو، وأحببت أن أتعرف إليك". وتضيف : "وكنت سابقا قد درست في هذه المدينة، ثم ذهبت إلى المانيز، وها أنا أعود ثانية". وتخبرك أنها ستسافر إلى هناك في أعياد الميلاد وستعود بعد ذلك : "وستدعوني إلى

الطعام" تقول لك يوهان "ولكني سأغادر إلى بون"، فتجيبك : "حين نلتقي، هنا، ثانية". وتغادر يوهان، وحين تعود تغادر إلى بون.

تبدأ الحرب فتعود إلى المدينة، تشاهد الأخبار يومياً. تحزن لخسارة العراق. تشتري على غير العادة، زجاجة نبيذ. وفي المساء بعد نشرة الأخبار تخرج إلى الشوارع دون أن يعيقك برد شباط اللعين. وفجأة تجد نفسك في غرفة يوهان : "تثرثر معاً قليلاً" تقول : "وأنسى هزيمتنا". لقد كانت هزيمة العراق هزيمتك أيضاً. وحين كان بعض الطلبة الألمان يشربون النبيذ احتفالاً بهزيمة العراق وانتصار الحلفاء، كنت تشعر أنهم يشربون نخب هزيمتك أيضاً.

تنظر إلى يوهان وتصمت. "أريد أن أتحدث معها فقط" تقول. تتذكر بربارة ونينا وقرارك ألا تذهب إلى بيت فتاة في هذه المدينة إلاّ وأنت مصر على عدم ممارسة أي فعل قد يضرك. تنظر إليك يوهان "لم تنس العنوان" تقول لك، "لا". تجيبها وتواصل : "لقد تهت في البداية، ثم أخذت أقرأ العناوين الملصقة على البيوت واهتديت".

تقول لك يوهان : "إنّ كتابة اسمي على هذه الشاكلة تجعل البعض يظنني رجلاً، وقد حدث هذا فعلاً. قبل أيام جاء موظف البريد وقال : أيها السيد يوهان، فضحكت، وحين دخل غرفتي ورآني فتاة ضحك كثيراً". "كل هذه الأنوثة ويظنونك رجلاً" تعقب، وتبتسم ولا تتكلم وتترك يوهان تتكلم عن نفسها وعن انجيل وبرنو وعنك أيضاً.

"أعرف أنك من الأردن" تقول يوهان : "وأنك تدرس الاستشراق أيضاً" وتواصل "وعلمت من انجيل أنك تهتم كثراً ببريخت وهاينريش بول أيضاً". وتتحدث لك يوهان عن الأدب الاسباني. تسألها عن ماركيز وأمادو وبورخيس "هل قرأت هؤلاء بالاسبانية ؟"، "ليس جميعاً" تجيب. وتقول ساخراً : "ما دمت تدرسين الاسبانية والأدب الاسباني فلا شك أنك ستحبين العرب، إن دماءنا تجري في دمائهم، وبعض العرب يحبون لوركا لأنهم يعتقدون أن دمه دم عربي" وتضحك لهذا.

تنظر إلى يوهان وتنظر إليك. تقوم من مكانها وتحضر زجاجة العصير، ثم تسألك إن كنت تفضل القهوة في هذه الساعة المتأخرة. تشكرها وتقول لها : "جئت لأثرثر معك فقط" وتتابع : "فلقد ضجرت من متابعة شاشة التلفاز، إذ ليس هناك سوى الحديث عن الحرب" وتسألك يوهان : "ماذا فعلت في الإجازة ؟"، "لا شيء" تجيبها: "بقيت أقرأ وزارني قريب لمدة أسبوع" وتواصل : "وقد دعيت من أستاذة في قسم الاستشراق لأتناول معها ومع زوجها

وجارتهما العجوز طعام أعياد الميلاد"، وتتذكر فولتا أستاذة الاستشراق، تقارن بينها وبين يوهان. ويسود صمت للحظة، تتبادلان النظرات وتصعدان إلى القسم العلوي من غرفة يوهان. تجلسان على الأرض وتتحدث يوهان عن أصدقائها في الجامعة. تذكر (يواكيم) وتسألك عن فالح : "لقد درس معي الأدب الانجليزي" تقول : "وأعرف أن له صديقة عربية" وتسألك : "أما زالت هنا ؟"، وتجيبها : "لا"، وتلح يوهان في الحديث : "هل تركها بعد أن تعرف على فتاة ألمانية ؟"، "لا أدري" تقول وتتابع : "وهذه أشياء خاصة يا يوهان". وتسألك يوهان : "أليست لك صديقة ؟"، "ولدي طفلتان أيضاً"، "ولكن هذا لا يمنع. أنت لوحدك"، وتضحك : "أنت صديقتي يا يوهان". وتصمت لتواصل حديثها.

تسألك يوهان : "كم امرأة عرفت ؟" ولا تترك لك مجالاً للاجابة، وتكمل كلامها : "أربع إلى خمس نساء. هكذا أقدر" وتتحدث يوهان عن الاستاذة ألف نون : "أعرف أن لديها العديد من الأولاد، وأتساءل كيف يمكن لامرأة أكاديمية أن تنجب هذا العدد من الأولاد" تقول على مسمعك، وتواصل : "والحقيقة أنها لا تعجبني كثيراً، إنها تبدو متعجرفة" وتصمت لتقرأ أفكارها. تتذكر بربارة ونينا وزيلكة وماورو وأسئلة هؤلاء المريبة.

وتسألك يوهان : "لماذا لا تخرج مع أستاذتك ألف نون إلى المسرح ؟". وتبتسم ثم تجيب : "يا يوهان إنها امرأة متزوجة، ثم إنها تذهب إن أرادت وزوجها، وتعرفين أنني طالب وأنها دكتورة". وتصمت.

وتسألك يوهان إن كنت تحب الاستماع إلى الموسيقى. تسألك ماذا تحب أن تسمع، فتقول لها : "موسيقى اسبانية". "لماذا ؟" تسألك، فتجيبها : "ربما لأن فيها بعض أجواء موسيقية عربية، وربما لأنها كما قلت لك، تذكرني بماض ما" وتتابع : "لقد تحدثت لك عن موقف الشعراء العرب من لوركا".

وتطلب من يوهان أن تقص لك شيئاً عن حياتها. "إنك، ولا شك، يا يوهان جميلة جداً"، تقول لها، وتسألها: "لماذا لا يوجد لديك صديق ؟"

تصمت يوهان للحظة، تتنهد ثم تبدأ الكلام : "أنا لا أستطيع الآن إقامة علاقة مع رجل. لقد كنت في كندا لفترة، وهناك كانت لي علاقة حب انتهت بالفشل" وتتابع : "وأنا فتاة لاحظ لها مع الرجال" وتذرف يوهان الدموع : "وتعرفت أيضا على شاب عربي اسمه ماهر سالم" وتصمت فتسألها " "وكيف كان ؟"، "لا أحب أن أقول شيئاً عن تلك العلاقة".

تستمعان إلى الموسيقى. تنظر إلى جدران الغرفة. تحلق في الواجهات جيداً، وتقرر

المغادرة، وحين تبدي يوهان أسفها لذلك، وتقول لك : "ما زال الوقت مبكراً، وأنا أرتاح للحديث معك" تجلس.

تقترح على يوهان الخروج إلى بار الطلبة القريب "البطة" فترفض. "لا أحب تلك الأجواء، ثم إنّ الجو بارد جداً". تقول لها : "ولكنّي أجلس في البيت بما فيه الكفاية، والبار قريب"، "أعرف" تقول لك، فلقد زرته مراراً وهناك رأيت الدكتور ديك، "أعرفه وزرت مساقات يدرسها"، وتسألك يوهان عنه، فتبدي اعجابك به. "لكنه..." وتصمت يوهان، ثم تكمل أنت : "ستقولين إنه يعرف فتيات كثيرات، لقد سمعت هذا، وهذا شأنه". وتتذكر الحوار الذي كان بينك وبين بربارة . تقارن بين يوهان وبربارة، ويغيب خوفك أمام جمال يوهان.

× × × × ×

تشتبك القطتان معاً. تموء القطة الشقراء. تصدر أصواتا أقرب إلى الغناء. وينسى القط الأسود وقاره. يسأل القطة الشقراء : هل تجيدين الغناء ؟ وتسأل القطة الشقراء القط الأسود : هل اشتبكت ذات يوم مع قط ذكر ؟" وتغيب القطة الشقراء عن وعيها، لقد أنهكها القط الأسود، وبدأت تبوح بالأسرار التي تعرف : "هل تحب الأدب؟ لماذا لا تشتغل في مشروع الشعر ؟ إن للقطط آدابها وأشعارها. وحين يقرر القط الأسود المغادرة تحزن القطة الشقراء.

× × × × ×

تقترب الساعة من الواحدة صباحا، فتقول ليوهان : "وداعاً"، تحزن لذلك. "إن الجو بارد جداً الآن" لماذا لا تبقى هنا حتى الصباح ؟" فترد عليها : "لا أستطيع النوم خارج غرفتي"، وتواصل : "وهناك نصوص ينبغي أن أتحقق منها". وتدعوها لزيارتك. فتأتي يوهان في الأيام القادمة. وتبدأ لعبتك معها. تستدرجها لتقول لك ما قيل لها أن تقوله لك لتعرف جوابا عليه.

تفتح زجاجة النبيذ وتصب ليوهان : "اشربي يا يوهان، اشربي فهذه الزجاجة كلها لك"، "وأنت ألا تشرب"، "أشرب معك يا يوهان" وتشرب قليلا لتشرب يوهان كثيراً.

حين كانت يوهان تغيب عن الوعي رويداً رويداً كانت تبدأ باثارة اسئلتها التي أرسلت من أجل إثارتها ومعرفة رأيك فيها. تسألك يوهان عن فالح، وتسألك عن مشروع الشعر الذي

تشرف عليه الدكتورة ألف نون، وتطلب منها، عند منتصف الليل، أن تغادر، ولكن يوهان تثور: "لا. أريد أن أبقى هنا. لا أستطيع الذهاب في هذه الساعة المتأخرة من الليل"، "ولكن عليّ أن أنام يا يوهان".

تدرك لعبتها الخبيثة. تتذكر بربارة حين جاءت إليك وأنت في المكتبة بعد تعارفكما : "كن قويا ثمة خبر لا يسر". وها هي يوهان تنتظر حتى يعود جارك ستيف ليكون الشاهد على وجودها.

قبل أيام قال لك ستيف : "ثمة فتاة ألمانية حقا، جاءت وسألت عنك" وأخذ يصفها لك. تتذكر اللقاء الأول مع يوهان : "أعرف أنك من الأردن" وتتساءل : "ولكنني كنت أقدم نفسي دائما على أنني فلسطيني، وأن انجيل وبرنو يعرفان ذلك جيداً، فكيف تقول لي إنني من الأردن". تطلب من يوهان أن تغادر. تخرج يوهان من الصالة. تغلق الباب. تنظر إلى الشارع فلا تراها. تنتظر للحظات ثم تفتح الباب وتجد يوهان واقفة في الممر الطويل، تدخل مرة أخرى، وتتساءل : "هل أرادت أن تنتظر حتى يأتي ستيف ؟" تقول ليوهان : "اذهبي الآن وسأتصل بك غداً في الثالثة ظهراً، وقد أتي في هذا الموعد". وتغادر يوهان.

تتصل في اليوم التالي بيوهان وتعتذر لها عن الذهاب، تقول لها : "إنني مصاب بنزلة صدرية"، فترد عليك قائلة "لا يبدو هذا من صوتك"، وتضع يد الهاتف.

وتأتي يوهان إليك بعد ثلاثة أيام. تقرع الجرس، فتسأل عن الطارق : "يوهان" تقول لك، وتعتذر عن استقبالها "لدي ضيف سيأتي بعد قليل يا يوهان" ولكنها تأتي. تقول لك : "أريد أن أتحدث معك لمدة خمس دقائق ؟"، "تفضلي" تقول، ولكن على ألاّ تطول المدة، فبعد قليل سيأتي ضيف ليتناول معي طعام الغداء". "وأنا كذلك" تقول لك، فتجيبها : "ولكنني أعددت طعاما لاثنين" "لا آكل كثيرا" تقول لك، وتتابع : "ونخرج بعد ذلك إلى الغابة". تقول بحدة : "يا يوهان أنا أتصرف معك بأدب جم. الرجاء ألاّ تحرجيني. إن هارالد سيأتي بعد قليل وسنخرج معا إلى الغابة"، "أنت تكذب" تقول لك وتتابع : "إنك تهرب مني، ولكني سأظل هنا"، "سأستدعي المسؤول عن السكن" تقول لها، ثم تلاطفها على أمل أن تلتقيا معاً، وتذهب يوهان ويظل سؤال واحد يدور في ذهنك : "ماذا تريد يوهان، ولماذا ظلت حتى جاء هارالد وفعلت أمامه ما فعلت ؟"

× × × × ×

حين كانت القطط تشتبك معا، كانت القطة الشقراء تبدو غير طبيعية. لقد كانت قطة مجربة، وحين كان يسألها القط الأسود عن المسموح والممنوع، كانت تجيب : كل شيء مسموح، وكانت تقوم بحركات غريبة، كما لو أن قطين ذكرين كانا معا. وكانت تصر أحيانا على أن تنشب المعركة التي ينسى فيها القط الاسود نفسه ليثمر هذا الاشتباك شيئا مشهودا. وحين تذهب القطة الشقراء تخلف قليلا من الخوف لدى القط الأسود.

× × × × ×

تتذكر يوهان، بعد مغادرتها، تصيبك حالة من القلق. إن يوهان ليست سهلة، ولكن النشوة التي يسببها لها النبيذ وأشياء أخرى كانت تترك ذكاءها ودهاءها يتراجعان.

في شهر أبريل حين استدعيت يوهان لتسأل عن العلاقة بينك وبينها تلتقي بك في الشارع، وتقول كلاماً ملغزاً، وقبل ذلك حين كانت لديك زائرة من (بوخم) سألتك يوهان : تبدو مسروراً جداً اليوم، ماذا كنت تفعل في الليلة الماضية ؟ وتصاب بالذهول : من الذي قال ليوهان إن ثمة زائرة تقيم عندي ؟

تفترقان. وحين تلتقيان في الشارع، تنظران إلى بعضكما دون أن يكلم أحدكما الآخر، وتسير يوهان امرأة بضة، غزالة برية، وتخلف لديك مشاعر ملؤها الخوف والريبة، وتذكرك ببربارة ونينا وأصابع خفية.

تذهب إليها في الموعد المتفق عليه. تقرع الباب فتخرج إليك سيدة في الأربعين تقريبا. ملامح شرقية ووجه ضامر وشعر قصير. تحييها بألمانيتك المكسرة فتجيبك بالعربية، وتقول لك : "نتكلم الآن بالعربية فهذا أسهل لك"، وتتابع : "أعرف أن تعلم اللغة ليس سهلاً" وتضيف : "ويحتاج فوق هذا إلى وقت طويل".

تجلسان في غرفة مكتبها الواسع، فتتمنى لو كنت تملك غرفة بهذا الاتساع، وتعود بذاكرتك إلى منزلك في بلادك : "علينا هناك أن نفكر في الأطفال وأطفالهم فيما بعد". تسألك عن مشروبك، فتجيبها : "نشرب الشاي" وتنسى أنك تتعامل مع الألمان، ولا تكترث هي للأمر كثيراً، وحين تعتذر لك وتتركك وحدك لتصنع الشاي، تبتسم لاستخدامك صيغة الجمع "نشرب" وتهمس : "شرقي حتى النخاع، هكذا تفضحك الكلمات التي تعبر عن ثقافة تشربتها عاما فعاماً وشهراً فشهراً ويوما فيوماً ولحظة فلحظة". تتصفح الكتب العربية وتنتظر عودتها والشاي. وتأتي. تحضر الشاي وقطعا من البسكويت، وتسألك إن كنت ترغب في المزيد من السكر. ويسود الصمت للحظات فتبدأ الحديث، كعادتك دائما. تخبرها شيئا ما عن دراستك، عن الموضوع الذي اخترته. تسألها عن المكتبة، وتستفسر منها عن الكتب العربية فيها فتجيبك أنها غير كافية لانجاز رسالة دكتوراه. تذكرها بالرسالة التي كتبتها لها في العام المنصرم، فتخبرك أنها تلقتها ولم تكتب رداً عليها، لأنها لم تر في المكتبة ما يساعدك على انجاز أطروحة الدكتوارة التي رغبت، في حينه، في الكتابة في موضوعها"، ولكن حين أخبرتني، فيما بعد، السيدة ألف نون أنك ستحضر معك جميع الكتب التي ستساعدك في انجاز دراستك، لم أتردد في قبولك "تقول لك وهي ترتشف الشاي.

تحتسي الشاي، ويعتريك شعور بالرهبة. تبدو خجلا، وتبدو هي أيضاً كذلك. تتساءل بينك وبين نفسك عن زوجها، عن أطفالها إن كان لها أطفال، تنتظر مجيء أحدٍ ما، ولكن عبثا يكون الانتظار. يسود الصمت، صمت كصمت القبور، هدوء لم تألفه من قبل إطلاقا. "في منزل الطلبة حيث أقيم ثمة هدوء أيضا، ولكنه قابل للانكسار" تناجي نفسك، وتتذكر تلك الصبية الحسناء، صباح كل أحد. تأتي الصبية الحسناء إلى سكن الطلاب المنفصل عن سكن الطالبات في هذه المدينة الكاثوليكية المحافظة، مدينة الحرية، السكن التابع للكنيسة، وتنام مع صديقها ثم تصحو صباح الأحد فرحة فتصحو على صوتها وتفرح لفرحها، وحين تجلس في المطبخ

المشترك تتحدث معك ومع الطلبة الآخرين بفرح انساني غامر، وتنظر إلى اللوحة التي علقها الألمان على الجدار، وتهمس : "في هذا العالم ما يدعو للفرح" وتقرأ العبارة التي حفظتها عن ظهر قلب : "عالمنا عالم واحِد".

تحاول أن تقول شيئا لتكسر حاجز الصمت. تتحدث عن الطقس في هذه المدينة، تقول: "إن الطقس هنا بارد جداً" فتوافقك قائلة : "إنه كانون الثاني" وتتابع : "أبرد أيام السنة هنا" وتعقب أنت : "ولكن مدينة الحرية ذات طقس جميل ودافيء نوعاً ما". ويسود الصمت من جديد، فتحاول أنت أيضا، من جديد، كسر هذا الحاجز. تسألها عن سكن الطلبة الجامعيين، تخبرها أنك ستحضر عائلتك بعد ثلاثة شهور تقريبا. تصمت لحظة ثم تقول لك: "سنحاول ذلك، ولكن الوقت ما زال مبكراً" وتتابع : "وسأهتم مع الدكتورة ألف نون بهذه المشكلة". "حقا إنها مشكلة" تعقب على كلامها وتواصل : "فأنا أعرف هذا قبل أن آتي إلى المانيا، ولقد سمعت من آخرين عن صعوبة الحصول على مسكن".

وتصمتان. تأمل أن يأتي زوجها، أن يأتي شخص ما، ولكن أملك يذهب أدراج الرياح. تحاول، من جديد، أن تتحدث معها، فتتراجع : "ينبغي أن يكون الكلام موزونا" تقول "فهذا هو اللقاء الأول وعلى المرء أن يعطي انطباعاً جيداً عن نفسه". تحتسي الشاي بسرعة ثم تشكرها على حسن ضيافتها، وتغادر عائداً إلى منزل السيدة ألف نون. تنظر إلى الساعة فتجدها الرابعة وعشرين دقيقة. تهمس : "هكذا كانت إذن الدقائق العشرون، هكذا كانت طويلة". وتبحث عن منزل ألف نون في المدينة التي تزورها لأول مرة، تتعثر قليلا وتخمن الاتجاهات ثم تعثر أخيراً على المنزل.

وتفكر في أمر فولا، ترغب في معرفة المزيد عن أخبارها، ولكنك تكفّ عن السؤال، لتستمع إلى ما تقوله السيدة ألف نون وزوجها عنها. يسألانك عن اللقاء، فتكتفي بالقول : "تبدو وديعة جداً" ويعقب زوج ألف نون : "ولكنها عالمة ومشهورة أيضاً". وتلتقي بفولا بعد شهر لقاءً عابراً، وتعود إلى المدينة، من جديد، بعد ثلاثة شهور. تتصل بفولا فتدعوك وألف باء راء لتناول الطعام معا. تشتريان باقة ورد وزجاجة نبيذ وتذهبان. تلتقيان هناك بأستاذ التركية وزوجته. تتحدثون معا بلغة المانية، ويغض الطرف هو عن أخطائكم اللغوية، يخفف عنكما شعوركما بالخجل لعدم إتقان اللغة، يتحدث بالعربية قليلا كأنما ليقول لكما : "وأنا تعلمت العربية ولكني لا أتقنها" ثم تغادران.

يسألك ألف باء راء عن فولا اسئلةً عديدة. "لماذا لم يحضر زوجها ؟ أليس لها أولاد ؟"

ويتابع : "إنها تبدو شرقية". "حين زرتها قبل ثلاثة أشهر" تقول لألف باء راء "لم أر أيضا زوجها". وتعرف فيما بعد أنّ زوجها الذي أنفق معها ثماني سنوات تقريبا قد هجرها حين تعرف على فتاة صغيرة في العمر. ويمر عامان لا تلتقي بفولا إلاّ في المحاضرات، وتزورها، فقط، حين تشفى من مرض ألم بها، تذهب وزوجتك وأطفالك، تجلس ساعة أو يزيد فتفرح فولا بالأطفال فرحاً كبيراً، تقدم لهم العصير، تداعبهم وتمدح جمالهم.

تقول لك فولا بعد ستين من اللقاء الأول : "هكذا تركني. كان في البيت، وفجأة عدت فوجدته قد سافر. انتظرت أياما فلم يعد، ثم اتصل بي تلفونيا وقال لي إنه لن يعود. لقد حاول أن يستغلني. أراد أن أمّول له مشروع زواجه. لقد كانت تقودي باسمينا وأراد أن تتقاسمها. ورفضت ذلك" وتصمت فولا، تحتسي العصير وتتابع : "ولقد فجعت حقا. لقد أنفقت عامين هكذا مضطربة. أذهب إلى المحاضرات، وأحاضر وأنا أتناول المهدئات" وتلحظ أنّ فولا تستخدم دائما صيغة "زوجي السابق".

بعد عام من اللقاء الأول تقريبا تلحظ أن ثمة اختلافا في سلوك فولا. تذهب إلى السوق باستمرار، تشتري ملابس أنيقة، يتغير نوع لباسها. تهتم بشكلها اهتماما لافتا للنظر، تعتني بقصة شعرها، وتهمس لك ذات مرة أنها على عجل لأنها ستذهب إلى الكوافير. يلحظ صديق جاء لزيارتك لمدة اسبوعين فولا. يسلم عليها، ويقول لك : "ثمة تغير واضح في سلوك فولا" ويتابع : "حين كانت تدّرس في الجامعة التي كنت أدرس فيها لم تكن تبدو هكذا". ويضيف بعد صمت : "تبدو الآن متصابية جداً". ويحدثك صديقك عن زوجها وعن اضطهادها له، ويخبرك أنه لا يرتاح إليها كثيرا. "لقد كانت تزور زوجتي باستمرار ونحن في بون" يقول لك ولكنه يتابع : "ولكنها من ناحية علمية على أية حال ممتازة جدا، ويمكن أن تستفيد منها كثيراً".

تدعوك فولا، ذات نهار، إلى مكتبها. تطلب منك أن تصحح لها نصوص محاضرات كتبتها بالعربية وستلقيها في العالم العربي. تتذكر كلماتها يوم وافقت أن تقرأ لك الفصل الأول من أطروحتك بلغتك. "أعرف" قالت لك فولا يومها "أن الكتابة بلغة متعلمة صعب" وتابعت "فأنا شخصيا لا أستطيع أن أكتب رسالة دكتوراة بالعربية". وترحب أنت بذلك، وحين تهم بالانصراف تقول فولا لك : "وأنا أيضا ذاهبة إلى المطعم". تذهبان معا، وتصطحبك بعد ذلك إلى مقهى قريب. تجلسان على طاولة وتنظر إلى الرواد الآخرين فلا تلحظ سوى شباب وشابات في سني المراهقة، وتتناولان القهوة، وتدفع فولا ثمنها ثم تغادران.

وبعد أسبوعين أو يزيد تذهب إلى المقهى نفسه بصحبة نينا، وتخبرك هذه عن المقهى قائلة : "إنه خاص بطلبة التوجيهي والسنة الجامعية الأولى فقط" وتتابع : "وقليلا ما يزوره طلبة كبار في السن".

تذهب إلى فولا حاملاً معك نصوص المحاضرات مصححة. تسألها عن بعض الأشياء غير المفهومة، تطلب منها أن تتحدث بالألمانية حتى تفهم ما تقصد قوله في كتابتها. وتسألك فولا عن أسلوب كتابتها بالعربية. "إنه خال من الأخطاء النحوية" تخبرها وتتابع : "ولكن ثمة ركاكة في التعبير" وتضيف "وثمة عبارات غير مفهومة". وتطلب فولا منك أن تكون جاداً في تصحيح ما كتبت "إنني أتقبل ذلك بدون حرج" تقول لك وتتابع : "وها أنذا أصبحت تلميذتك". وتبتسم قائلا : "إنّ هذا التواضع هو حقا تواضع العلماء".

تسألك فولا عن زوجتك. تستفسر منك إن كانت ستعود ثانية إلى المانيا. "لا" تقول لها وتتابع : "ولكني سأحاول إنهاء دراستي بسرعة وسأعود ثانية إلى الوطن" وتبتسم فولا، ثم تقول لك : "ولكني سمعت" وتتوقف عن الكلام. تعرض عليك أن تقرأ لك الفصل الثاني بالعربية. تقول لك : "حين أقرأ ما تكتبه بالعربية أجد فارقا كبيراً عما تكتبه بالألمانية" فتعقب : "تذكري أنه لم يمض على وجودي هنا سوى عامين وبضعة أشهر".

وتبدو، حين تلتقي فولا في المحاضرات، واحداً من تلاميذها العاديين. ترحب بك، تتحدث معك كما تتحدث مع أي طالب آخر. وتفرح لذلك. "ينبغي أن تبقى العلاقة رسمية بيننا" تهمس في سرك. وحين تأتي فولا إلى مطعم الجامعة وتلحظك جالساً على طاولة تأتي وتستأذن منك : "أتسمح لي ؟" فتبتسم لأدبها الجم وتواضعها المتكلف. تتحدثان عن الطعام الألماني، وعن محاضراتها في العالم العربي. تذكر لها أن الطلبة معجبون جداً بلغتها في المحاضرات. تخبرك شيئاً عن أهلها، عن أخيها وأبيها وأختها، وتتحدث بفرح عن فوزها بجائزة لأسلوبها المميز لغويا في الكتابة، وتدعوك مع اقتراب أعياد الميلاد إلى منزلها. "في العادة أقضي حفلة عيد الميلاد مع صديقة لي درست التاريخ" تعلمك وتتابع : "وبما أنك وحيد فيمكن أن تنفق وقتا ما معنا، وكذلك" تقول فولا متابعة : "تتعرف على كيفية احتفال الألمان بعيد الميلاد". تشكرها على دعوتها وتنتظر منها مكالمةً لتحديد الوقت.

تتصل فولا بك، تخبرك عن الموعد وتقترح أن تأتي لتقلك فتشكرها وتقول لها أنّي في السابعة. تغادر، في السادسة والنصف، منزل الطلبة عمارة خاليةً من السكان وتبقى الحارس الوحيد كل عام في فترة أعياد الميلاد. تذهب مشيا، تذرع الشوارع وحيداً وتتغنى بزجاجة

النبيذ التي أخذتها هدية لها. تتذكر طفلتيك واحتفال العام المنصرم معهما. تذرف دمعة ما وتكرر مقاطع أغنية : وحين أعود للبيت وحيداً. ويرتفع صوتك ولا تكترث فالشوارع خالية إلاّ من شخص يتحرك : هو أنت. تهمس : لو قبلت عرضها وتركتها تأتي لتقلني بسيارتها، "اللعنة عليك" تخاطب نفسك وتقرعها أيضا : "حقا إنني برجوازي صغير" وللحظات تتمنى لو أنك الآن في بلدك الآن تدرك معنى العيد جيداً. تفتقد العائلة والناس، الناس الذين يحبونك والناس الذين يكرهونك. وتهمس: "كان ينبغي أن أسافر إلى مدينة أخرى. أن أزور الأصدقاء في هذه المناسبة" وتلعن الدراسة والالتزام بها إلى هذا الحد.

تقرع الجرس فتخرج فولا لاستقبالك. ترحب بك ورنة فرح لا يخفى في صوتها. تهنئها بالعيد، وتشكرك هي بدورها على زجاجة النبيذ ثم تقدمك لصديقتها التي تشبهها : "إنها صديقتي، ونحن نحتفل، دائما، معا بأعياد الميلاد"، ثم تتركما صديقتها لتعد الطعام، وتعتذر فولا منك بين فترة وأخرى لتساعد الصديقة في إعداد الطعام. وتنظر في كتبها من جديد. وحين تأتي تقول لها : "إنني حاولت قراءة توماس مان، ولكنني وجدت أسلوبه صعبا" فتوافقك الرأي : "إنه يحتاج إلى قارىء غير عادي" تقول لك وتتابع : "وحتى الألمان يجدون صعوبة في أثناء قراءته". وترحب فولا بك من جديد. تسألك إن كنت تذهب في الإجازات إلى الضواحي، تسألك إن كنت زرت المناطق الأثرية القريبة من المنطقة، وحين تجيبها بالنفي، تقول لك : "سوف أحاول في الأيام القادمة أن أعرفك عليها" وتواصل : "فمن غير المعقول ألا تعرف المنطقة جيداً". وتصمت، تصمت ولا تبدي رأيا. وتقضي احتفال ليلة عيد الميلاد مع السيدتين. وحين تقترب الساعة من الحادية عشرة مساءً توصلك فولا بسيارتها إلى منزل الطلبة.

وتحافظ على علاقة ودية مع فولا. أستاذة وطالب. تلتقيان معا، تتبادلان التحية، تجلسان معا في مطعم الجامعة أو في مكتبها. تسألها عن بعض الكتب فتلبي طلبك. تقرأ لك بانتظام ما تكتب، وتقول لك رأيها، تطلب منك بعض تعديلات هنا أو هناك، وتتقبل ذلك بارتياح. تكرر على مسمعها : "المهم أن أنجز رسالة جيدة، إذ لا يكتب المرء دائما كما يكتب حين يطلب منه". وبين الفينة والأخرى تسألك فولا عن الوطن، وعن الزوجة والأطفال. وحين تعيد لك الفصل الثالث تتحدث لك فجأة عن بعض الأساتذة وعلاقتهم بالطلبة : "ثمة أساتذة مشرفون يكتبون لطالباتهم رسائلهم" تقول لك، فتجيبها باندهاش : "حتى هنا في ألمانيا"، "نعم، حتى هنا، في ألمانيا" ترد عليك. وتبدي فولا بعض حركات، تراقب حركاتها، وتلاحظ لهجتها

غير العادية. تلتفت إلى حركات يدها التي تتحسس شعرها، وتقول لها : "الطقس، اليوم، جميل" وتتابع : "ويبدو أن الطلبة يجلسون الآن في الحدائق العامة، فالكافتيريا ومقهى الطلبة شبه فارغين". توافقك فولا الرأي. تقول لها هذا لأنك تدرك أنّ فولا تحاول دائما أن تبدو أمام الآخرين أستاذة جامعية رصينة، وتعجب، أحيانا، كيف تأتي إلى المطعم لتجلس بالقرب منك. وتعجب أيضا كيف اصطحبتك معها إلى مقهى المراهقين من الطلبة، ولكنك حين تسترجع تلك الجلسة تدرك السر فيزول عجبك : "لقد تمّ ذلك في يوم شتائي ماطر، وتحديدا في أواخر كانون أول حيث كان الطلبة قد غادروا الجامعة كليا إلى مدنهم وقراهم".

في أواخر آب تسأل فولا عن رأيها في الرسالة المنجزة، تقول لها : "إن الأوضاع، بسبب مشكلة الكويت، ليست حسنة" وتضيف : "وآمل أن أنجز الامتحانات، وتكرر سؤالك : "هل قرأت ما كتبت ؟" فتجيبك بلغة قديس يتعبد : "إنها خبزي اليومي" وتسألك : "ماذا تسمع من الوطن ؟".

تعرف قصدها، تقرأ ما بين كلماتها وتدرك ما معنى أن تكون امرأة في الأربعين بلا رجل، وبلا أطفال أيضا، امرأة تجلس وحيدة في منزلها الواسع المنعزل، المكون من شقتين فقط، شقة تقيم هي فيها وأخرى يقيم فيها أخرون ربما لا يزورونها إلاّ نادراً.

وتكرر على مسامعها : "إنني أريد أن أنجز دراستي بسرعة ما أمكن وأغادر" فترد عليك : "ليست الأمور بهذه البساطة، ثمة تغيير في النص ينبغي أن تقوم به". وتتابع : "وحتى بعد إنجاز الرسالة واجراء الامتحانات فانك تحتاج إلى إذن طباعة مني". تبتسم قائلا : "- لا يهم إنني على استعداد لاجراء كل ما يطلب مني" وتكرر عباراتك : "المهم انجاز رسالة جيدة، فالمرء لا يكتب، كل يوم، رسالة دكتوراة" وتثني هي على كلامك : "إنها بداية طريقك العلمي" تقول وتتابع : "وسوف تشكل لبنة أساسية في انجازاتك العلمية فيما بعد". وتطلب منها أن تحدد موعداً للالتقاء معا، فترد عليك بجدية لم تكن بادية قبل دقائق : "يمكن أن تمر عليّ في المكتب، في الساعة المحددة لمقابلة الطلبة، وسنحدد موعداً".

تذهب إلى فولا. تضع الدراسة بين يديك وتعطيك ملاحظاتها مطبوعة على الآلة الكاتبة. تودعها وتنفق ساعات في قراءة الملاحظات. "لا بأس" تهمس، وتضحك للمفارقة "قبل شهرين كانت فولا ذات رأي مغاير". تتذكر ألف نون التي تتعامل معك بمزاجية ألعن، وتهمس : "ليس سوى الصبر، هنا امرأة هجرها زوجها، وهناك امرأة يجلس زوجها في البيت، ويقيم أبناؤها في البعيد" وتواصل الهمس : "وعليك أن تنفذ رغباتها في كذا وكذا وإلا-" وتواصل "وهناك طلبة عرب ينافقون لألف نون حتى يغطوا عجزهم الأكاديمي وعدم

حضورهم إلى الجامعة". وتكرر الهمس : "لا بأس. لا بأس".

وتذهب إلى فولا من جديد، تضع بين يديها الفصل الأول فالفصل الثاني، وتسألك فولا سؤالها هاجسها : "ماذا تسمع من الوطن ؟". تعرف قصدها. إن فولا تريد أن تعرف إن كانت ثمة صلة ما باقية بينك وبين زوجتك. تتحدث لها عن الأطفال. تخبرها عن اتصالك الأسبوعي بهم، ثم تتحدث عن واقع الناس تحت الاحتلال إبان الانتفاضة. وتستغرب فولا ما تسمع. تقول لك : "إن هؤلاء المحتلين يفعلون بكم ما فعله غيرهم بهم، إنهم لم يتعلموا" وتصبح فولا فلسطينية. تبدي أسفها لما يجري. وتقترب فولا منك، تقرأ لك بعض ما كتبت، ثم تعقب بين الفينة والأخرى مبدية رأيها، ولا يقطع الحوار بينكما سوى رنين الهاتف. ترد فولا على الهاتف، تتحدث مع صديقة لها بتصابٍ بادٍ، تبتسم وتضحك بفرح، تخرج عن طورها تلحظ ذلك وتهمس دون أن تسمع" ثمة شيء ما، ثمة شيء ما". وتحدثك فولا بعد انتهاء المحادثة قليلا عن أوضاع الجامعة، عن عملها في مجلس الكلية، ثم تخبرك أنها بحاجة إلى من يساعدها في تدريس مساقات اللغة العربية؟ "يحق لي" تقول لك "توظيف طالبين مساعدين" وتسألك : "ما رأيك بهذا الخصوص ؟" وتضيف : "لقد سمعت من الطلبة أنك مدرس جيد". وتكتب فولا كتابا إلى مكتب الطلبة الأجانب تذكر فيه أنها بحاجة إلى شخص كفء يدرس العربية. تذكرك شخصيا حتى يسمحوا لك بالعمل. ثم تتذكر فولا موعدها مع الكوافير، تعتذر لك وتحدد لك موعداً آخر.

وتلتقيان من جديد، ولا تكف فولا عن سؤالها التقليدي : "ماذا تسمع من الوطن ؟" وتكرر من جديد كلامها عن علاقة بعض الأساتذه مع الطلبة. تذكر على مسمعك قصة أستاذ كتب رسالة الدكتوراة لطالبة أحبها، وتقترب منك، فتخبرها أنك على وشك الانتهاء من كتابة أطروحتك وتصحيح ما طلبته منك. وفجأة تقول لها : "أنا لا أريد أن تكون السيدة ألف نون مشرفة ثانية" وتواصل : "ثمة مشاكل بيننا" وتضيف بعد لحظة صمت : "ثم إنها تتعامل معي بمزاجية واضحة"، وتجيبك فولا : "هذا مبكر" ثم تتابع : "ولا تكترث للأمر كثيراً" وتصمت للحظة ثم تخبرك أن السيدة ألف نون ستغادر إلى برلين مع نهاية الفصل "وهكذا" تقول لك "ستحل المشكلة بدون مشكلة"، وتعلمك أن رأيها هو الرأي الملزم. وتصمت. تريد أن تبلغها بحقيقة الأمر ولكنك تتراجع : "ثمة كلام لا يقال" تهمس، وتواصل "لو أبوح بالأمر فربما أقتل" وتتذكر مأساة الحلاق الأخير للاسكندر المكدوني. لقد ضاق ذرعا بالسر فأفشاه وهرب في البراري يصرخ : الاسكندر له قرنان، الاسكندر له قرنان" وحين مات في الصحراء، على حافة البئر، كان الصدى يعلم الجميع بحقيقة قتل الاسكندر لحلاقيه.

تخبرك فولا، فيما بعد، أن السيدة ألف نون مزاجية حقا، تقول لك مواسية : "ولكنك لست ضحيتها الأولى" وتتابع : "فقد كنت أنا أيضا ضحية من ضحاياها، وكذلك السيدة فولتا القادمة من المانيا الشرقية"، وتؤكد لك فولتا أيضا هذا، تخبرك حين تقترح عليها أن تكون مشرفة ثانية لك أنّ ألف نون خدعتها وزوجها، فقد كانت مشبوهة في جوتنجن، وحين تستغرب قائلا : "إلى هذه الدرجة ؟" تجيبك فولتا : "لقد منعت هناك من دخول بيوت معينة".

ولا تلتقي بفولا إلاّ قليلا، وحين تراك جالساً مع بيبو القصيرة ذات الشعر الأحمر، تنظر إليكما وتقول : "جلسة اجتماعية" وتضيف : "بعيداً عن أجواء الدراسة" فتبتسم لها، وكذلك تفعل بيبو، هذه التي تتعقب خطاك في المحاضرات وتحصي عليك أحاديثك حين تلتقي بفولا في فترة الاستراحة التي تقررها في المحاضرة الطويلة. تتساءل عن سر الكراهية بين فولا وألف نون، أهي الغيرة أم الحسد أم هي العلاقة بين أبناء المهنة الواحدة ؟ وتحاول بيبو باستمرار إغاظة فولا. تتحدث أمامها معك بفرح طفولي، وتظهر لك وداً عجيبا كافيا لإثارة فولا وتحويلها إلى عطيل نسوي.

وتغادر فولا في أواسط تشرين الأول إلى القاهرة، وتغادر أنت في نهايته إلى بون. وحين تهاتفها، بعد عودتها، تفاجأ بحديثها. ترد عليك وثمة فرح طفولي في صوتها. وتتساءل : أمن الممكن أن تكون فولا قضت أياما جميلة في القاهرة فعادت مسرورة من العرب ؟؟" وحين تلتقي بها تعرف أنها التقت هناك بأندريا.

تتذكر أندريا طالبة الاستشراق ولقاءك العابر معها. تحدثك أندريا عن عملها في المكتبة وتساعدك على إصدار بطاقة ثم تعرفك على أقسام المكتبة. تدعوها إلى العشاء فتأتي غزالة برية تركض في السهول. تنفقان معاً أياماً جميلة، وحين تغادر المدينة تحتفل أندريا بك، تدعوك إلى المطعم اليوناني وتهديك كتاب "اوفي جونسون" تخمينات حول يعقوب". وتتساءل بعد أن تضع يد الهاتف : "هل حدثتها أندريا بما دار بينكما ؟" وتهمس: "إن كانت تلك اللعينة فعلت ذلك فلا شَكَّ أن فولا لن تطلق سراحك بسهولة" وتخاطب نفسك بصوت عال : "وقد أتحول إلى يوسف وتتحول فولا إلى زليخة. اللعنة عليك يا أندريا" وتعود بك الذاكرة إلى الوراء. تتذكر الاشتباك الأول فالثاني فالثالث فالأخير.

× × × × ×

كانت القطة الحنطية اللون تأتي شجاعةً. تتحدث عن القطط هنا. عن صداقات متعددة. تتحدث عن قطط عربية شرسة، قطط عربية تبكي في البداية ثم تبحث عن مخرج لها ليبدو الحرام حلالاً. تمد القطة السوداء يدها إلى رقبة القطة الحنطية اللون مازحةً، فتقابل القطة الحنطية الحركة بمثلها، وتتجرد من كل شيء، ويبدأ اشتباك يدور حتى الصباح. تتحدث القطة الحنطية اللون، تتحدث عنا يحول الحرام إلى حلال، عن القطط التي ترغب في فعل كل شيء، ولكنها تمتنع في البداية. وتبوح بأسرار القطط العربية.

× × × × ×

تتساءل : ماذا تقصد أندريا حين تحدث فولا بما جرى ؟ تتذكر سؤالها الأول لك بعد اللقاء الأول : من أنت بالضبط ؟؟ وحين تهديك كتاب "تخمينات حول يعقوب" تذكرها بسؤالها، وتقول مازحاً : "تخمينات حولي" وتتذكر كلامها لك : إنّ الطلبة العرب يأتون إلى هنا مترددين في البداية، ثم سرعان ما يجدون مخرجاً لورطتهم" وتضحك أندريا : تتحدث عن زواج المتعة، عن العرسان الذين لم يكلفهم زواجهم سوى ماركين ونصف ثمن فنجان القهوة. وتهمس من جديد : "اللعنة عليك يا أندريا".

تتصل بفولا بعد الالتقاء بيوهان. تسألها عن أطروحتك، فتخبرك أنّها لم تقرأها بعد : "لقد عدت للتو من السفر بعد أعياد الميلاد" تقول لك وتتابع : "وعلي أن أعيد ترتيب البيت وأشغل التدفئة المركزية" وتسألك عن التدفئة حيث تقيم. تتذكر لقاءك بيوهان وحديثك معها : "إن التدفئة في غرفتي يا يوهان جيدة نوعاً ما" تقول لها، وتتابع : "وغرفتك باردة نوعاً ما".

وتحتار في أمر فولا.

تذهب إليها ذات نهار فتعتذر لك أنها لم تدعك قبل فترة إلى بيت ألف نون بعد انتهاء محاضرة المستشرقة السويسرية، تقول لك : "لقد كانت ألف نون موجودة، وكان ينبغي أن تدعوك هي" فتخبرها أن علاقتك بألف نون ليست على ما يرام. تقول لها : "إن ألف نون وزوجها يبعثان الريبة عندك" وتحدثها عن نينا وعن بربارة من قبل وكذلك عن يوهان.

تقول لك فولا : إذا كنت خائفا من العودة إلى الوطن فبامكانك البقاء هنا عاما أو عامين، وقد تحل المشكلة الفلسطينية خلالها فتعود. وتذهب فولا إلى عميد الكلية، تسأله عن امكانية توظيفك، تقترح عليه اسمك دون أن تطلب منها هذا. ثم تخبرها، فيما بعد، أنك عازم

على السفر إلى الوطن مهما كانت النتائج، وتحث فولا على قراءة ما كتبت. تشرح لها سبب إلحاحك، وتخبرها أن السفارة الاسرائيلية تضيق عليك، "لقد أرسلت وثيقة السفر لتجديدها" تقول لفولا وتتابع : "ولأول مرة يطلبون مني شهادة من الجامعة تثبت أين أنفقت الفصل الدراسي المنصرم". ولا تبدو فولا فرحة لكلامك. وحين تضع الجزء الأخير من الدراسة في صندوق بريدها، وتلتقي بها بعد عشرة أيام، تسألها إن كانت قرأت ما كتبت، فتخبرك أنها لم تجد شيئا في صندوق بريدها يخصك. وتكرر سؤالها دون كلل : ماذا تسمع من الوطن ؟" ثم تخبرك أنّ كتابة الأطروحة لا يعني الانتهاء من الدراسة : "حتى بعد الامتحانات" تقول لك "فلن تحصل على الشهادة إلاّ بعد طبع الرسالة، وهذا يحتاج إلى إذن خاص مني شخصياً".

تنظر إلى فولا وتصمت للحظة، ثم تفكر في أمرها من جديد : "امرأة في الأربعين من العمر، هجرها زوجها لتعيش وحيدة" وتعلق على حالتها : "ربما تجن فولا من الوحدة" تخاطب نفسك : "وعليك أن تحتمل".

تصطحبك فولا إلى الكنيسة، تستمعان معا إلى خطبة الأحد. تتحدث لك بعد مغادرة الكنيسه بفرح عن نشاطها مع الفرقة الموسيقيه. تقول لك : "إنني أخرج من وحدتي حين ألتقي مع النسوة" وتتابع : "ونحن نجتمع معا كل ثلاثاء مساءً لنعزف الآلات الموسيقيه"، وفي لقاءات تالية تحدثك فولا عن جارها وابنه : "إنهما وحيدان" تقول لك، وتتابع ربما لأمر ما في نفسها : "وأحيانا نزور بعضنا، فأنت تعرف أنّ ثمة رجالاً يحتاجون إلى مساعدة النساء في بعض الأشياء، وكذلك النساء" وتخبرك عن ابنه، فتصرف الذهن عن هذا الكلام، وتتحدث لفولا عن العائلة الفلسطينية الكردية، تبلغك أنها ترغب في التعرف إليها، وتعرض عليك أن تذهبا، ذات نهار، معا.

وفجأة تختلف فولا.

تهاتفها ذات صباح لتسألها عن تقديم الرسالة إلى العميد، فتعرض عليك أن تذهب إلى طبيب نفسي. تقول لك على الهاتف : "إنني أنصحك أن تستشير طبيباً نفسانيا فأنت لست سويا" تكبت الأمر وتصمت لتعرف السر.

تتذكر ألف باء راء وما فعله يوم سلّم الشريط بصوتك إلى الألمان. تتذكر حوارك مع بيبو ومدحك للأستاذ وحش أمامها. تتذكر اختلافك مع الف نون وحاشيتها، وتهمس : "وعليهم الآن أن يوقعوا بيني وبينها تلك المسكينة".

تسير في شوارع المدينة هاربا من عالمك كله، تجلس في غرفة التلفاز لفترة طويلة كل

يوم، تذهب صباحا إلى المكتبة، وتعتريك حالة من الضجر والخوف، ثم تذهب إلى فولا وتقول لها : "ما دمت كما قلت فأنا أفضل أن أنهي الامتحانات وأعود، وهكذا أحل مشكلتي النفسية وترتاحون جميعا". وحين تبلغ الأستاذ وحش بما يحدث معك، يتصل بفولا، ويختلف أمرها.

تهدي فولا من روعك، تقول لك : "لا تكترث للأمر كثيراً" وتتابع بعد رؤيتها لبربارة ونينا ويوهان : "ثمة أصابع ما تحرك الأمر" وتعرض عليك أن تذهب إلى بيت أخيها، في شتوتغارت. "إن لديه طفلين، وهو مهندس" تقول لك وتواصل كلامها : "ويمكن أن تقيم مع عائلته دون أن يعرف أحد ما شيئا ما عنك" تنصحك بأن تحافظ على أعصابك حتى تتقدم للامتحان، وتقدم عروضا أخرى : "وإذا كانت لديك أوراق ما تخاف عليها فبامكانك إعطاءها لي وأنا أحتفظ بها، فلي في البنك صندوق خاص" وتقترح عليك، من جديد، أن تقيم هنا في المانيا، "ويمكن أن يصدر لك جواز سفر ألماني مؤقت". وتظهر لك وداً كبيراً. تقرأ ما بين السطور. تتذكر كلامها لك يوم كانت راضية عنك : "إن رسالتك هي خبزي اليومي، والطلاب يحمدون طريقتك في التدريس وهم مسرورون جداً منك". وتخرج فولا عن رصانتها.

تذهب إلى بون في أيار، وحين تعود في أوائل حزيران تجدها مختلفة تماما. لقد أخبرها أستاذ التركيه عن الفتاة الألمانية التي جاءت إليك وعرضت عليك أن تشربا القهوة معا، وأضاف قائلا ما قالته له تلك الفتاة الألمانية : "إنه شخص لا يعرف للعلاقات الوديه مع النساء سبيلا".. تتصل بالأستاذ وحش. تقول له عن أمر الفتاة، فيرد عليك : "لعلها تحبك" فتجيب : "إنها مرسلة خصيصا لتعرفوا من خلالها ما أفعل مع الفتيات". يبلغ الأستاذ وحش فولا بذلك فتعود إلى عهدها في ساعات الرضى بعد أن تأخرت في تقييم أطروحتك. ويوم الامتحان تدعوها وأستاذة أخرى لشرب القهوة احتفالا بنجاحك. وتفترقان لتلتقيا من جديد. تدعوك فولا لتناول الطعام احتفالا بنجاحك وتدعو معك أستاذا عربيا قادما من الأردن.

تذهبان في السادسة مساءً، تنتظران قليلاً فتأتي فولا، ترحب بكما وتدخلان المطعم معا. يأتي النادل ويسأل عما تريدون، ثم يذهب ليحضر الطعام والمشروبات. ترحب بك فولا وتهنئك بنجاحك، تخرج أوراقا من حقيبتها وتقدمها لك. مغلف وردي اللون نوعا ما وبداخله ورقتان إحداهما أصلية والثانية نسخة كربونية عنها، ثم تقدم لك هدية بمناسبة تخرجك ونجاحك "قصائد المانية"، وقد غلفتها بأوراق جميلة وأحكمت ربطها، كأنها تقول لك : "ستجد فيها ما يناسب وضعك. أنا أقدم لك الأدب والشعر. أنا الثقافة. أنا المرأة التي تناسبك". تشكر

فولا ثم تتحدثون عن أمور عامة. يتحدث معها الأردني وتستمع أنت إلى أحاديثها وأحاديثه. وتعرض عليك أن تشرب مزيداً من البيرة، فتشكرها وتقول لها : أشرب القهوة. ولا تنتظر فولا مجيء النادل. تقوم. تذهب شخصيا وتطلب القهوة. وحين تشرب القهوة وتغادر وزميلك الأردني، زميلك الجديد لمدة ثلاثة أيام جاء ليقيم خلالها عندك بناء على طلب الأستاذ وحش، كما يبدو، تسهر حتى الصباح في حين يغط هو في نوم عميق. لقد اعتذر عن شرب القهوة وفضل شرب العصير وكذلك فعلت فولا.

تذهب وضيفك في اليوم التالي إلى فولا. تجدانها في المكتب. تقدم لك أوراق طباعة الرسالة. تضع رقما ما عن عدد صفحات الكتاب، ثم تقول لك : "يمكن أن تغيره لأن ثمة إضافات ما تخص فهرس الأعلام". تفعل ذلك، وأنت تدرك أنّ الصفحات مضافة من فولا نفسها. لقد أرادت فولا، حين ينست من إمكانية بقائك، أن تقول: انظروا إنه لا يعرف عدد صفحات كتابه". تفعل ذلك، هبلا، ولا تدري أن فولا ستؤخر طباعة الكتاب عاما أو يزيد أملة أن تعود إليها.

تسافر ثانية إلى برلين في رحلة جامعية. تلتقي في الحافلة بطلبة جاؤوا من جميع أنحاء العالم : اسبانيا وأمريكا وفنلندا وايطاليا وانجلترا وفرنسا والعراق وافريقيا أيضا. وللوهلة الأولى تشعر باغتراب ما. إن أعمار معظمهم لا تتجاوز العشرين، وباستثناء السيدة هوفر والعراقي الكردي المتدين تبدو الاستثناء البارز. تجلس وحدك على مقعد، تمارس عادتك في السفر : تفتح كتابا ما وتقرأ. بين الفينة والفينة تنازلك الهولندية الشقراء فالديس. لقد جاءت فالديس قبل أشهر عديدة وأقامت في مبنى الطلبة، وكان لقاؤكما الأول لقاءً عابرا جدا. يومها أخذت تسأل فالديس التي كانت تهاتف شخصا ما إن كانت مكالمتها ستطول، فردت عليك بنرفزة، وحين أنهت المكالمة اعتذرت لك قائلة : "إنني متأسفة، ولكن صديقا لي توفي في حادث طرق" وفيما بعد أخذت تلتقي بفالديس في بيت رورو. لقد كانت رورو ترحب بفالديس حتى تخفف عنها ضغط الوقت وحتى تطرد غربتها وتهتم بأطفالها حين تخرج ذات مساء لسهرة ما. وكنت تبتعد عنها كلما اقتربت منك : "هذا الشعر الأصفر الذي لم ألحظ مثله من قبل، وهذه الثياب السوداء التي ترتديها" كنت تقول "وسيجارتها المتواصلة التي تبعث في نفسي شعوراً غامضاً يوحي لي بأنها ربما تدخن الحشيش هي التي تحول بين التقائنا". تمازحك فالديس غير مرة، وتسألها عن صديقها الذي لم يأت معها، صديقها الذي أنكرت صداقته حين سألتها عنه. تعطيك عنوانها في هولندا، وتطلب منك أن ترسل لها في أعياد الميلاد القادمة بطاقة معايدة. فترد عليها : "أنتظر بطاقة منك أولا" وحين تتحدث مع السيدة هوفر التي تقترب من الأربعين أو يزيد تنار فالديس، وتزداد غيرة حين تسير والأمريكية الصغيرة التي كانت تتحدث أمامها قائلة : "إننا نحن الأمريكان منفتحون نوعا ما، ونحن لا نمانع في صداقة الآخرين، فلسنا متعجرفين مثل الانجليز أو الألمان".

تسير كل مساء مع السيدة هوفر، مسؤولة الطلبة الأجانب في الجامعة. تذرعان شارع أوروبا، وتجلسان على مقهى ما تحتسيان الشاي. تنظران إلى البوابة الفاصلة بين برلين الشرقية والغربية، برلين الموحدة. وتصر السيدة هوفر على استضافتك : "أنا لا أدفع من جيبي الخاص" تقول لك، "وحين أتي كل عام، أفوض من الجامعة بتضييف بعض الطلبة على نفقة الجامعة" وتخاطبك قائلة : "ولذا فلا تجد حرجاً حين أدفع عنك".

تتحدث لك السيده هوفر عن زوجها واولادها. تخبرك عن عمل زوجها ومرضه ايضا،

وترغب في ان تستمع منك" حدثني عن الحياة في بلادكم" تقول لك وتتابع : "فانا حقا ارغب في معرفة ما استطيع".

والسيده هوفر انيقه لدرجه لا تتصور، تعتني بشكلها، وترغب في ان تحافظ على قوامها رشيقا. وتحدثك عن ضرورة الاهتمام بالشكل، ثم تستطرد في حديثها عن اجازاتها التي انفقت جزءا منها في الاتحاد السوفياتي، وحين تقفان بالقرب من البوابه الفاصله بين برلين بشقيها الشرقي والغربي تمدح غورباتشوف مديحا لا حدود له. "علينا ان نساعده جيدا" تقول على مسمعك وتتابع : "فمن كان يتصور ان هذا سيحدث". تتحدث لها قليلا عن الانتفاضه، وتسترجع انطباعاتك الاولى عندما زرت برلين لتقصها على مسامعها، تقول لها : "حين زرت برلين قبل عامين وثلاثة اشهر تقريبا تذكرت مأساتنا وقلت : ان فلسطين تتسع لتشمل العالم، وان جرحنا هو الجرح البشري في عالم يسوده الاختلاف "هنا" تواصل كلامك لها : " لم اجد، يومها، كبير فرق بين مأساتنا ومأساتكم" وتصمت لحظه، ثم تتنهد بصوت مسموع وتقول مخاطبا السيدة هوفر : "وها هي مشكلتكم حلت، ولكننا لا ندري متى ستحل مشكلتنا" وتعقب السيده هوفر قائله : "ان ذلك ليس ببعيد" وتواصل كلامها : "ونحن هنا لم نكن نتوقع ان ينهار الاتحاد السوفياتي، ولم نكن نتوقع ابدا ان تزال البوابات هذه".

فجأه تبدأ السيده هوفر حديثا آخر. تقول لك : "ولكنني لم اعد أراك مع السيد ألف باء راء. لقد جئتما معا، وقد دعوته وزوجته الى بيتي" وتواصل حديثها : "وزوجته تجيد الالمانيه وقد حدثتني عن مشكلتها وزوجها" وتصمت للحظه، تصدر عبارتها المعهوده "او ياه" وتتابع وثمة نبرة حزن في صوتها : "وأتمنى شخصيا ان تحل مشكلتهما" ثم تسألك السيده عن السبب في ابعاد ألف باء راء من الاردن الى الضفه الغربيه وتتابع اسئلتها: "ولماذا لا تسمح لها اسرائيل بالاقامه الدائمه في الضفه الغربيه ؟" وتصمت. تنظر الى بقايا سور برلين، وتعود بك الذاكره من جديد، الى زيارتك الاولى. تقول مخاطبا السيده هوفر، بحزن واضح : "قبل عامين ونصف تجولت حول السور. رأيت الرسومات من الطرف الغربي، ورأيت مسافة الالغام ونقاط المراقبه المزروعه على الطرف الشرقي. يومها تذكرت نهر الاردن بضفتيه، وهمست لألف باء راء : هنا مثل هناك" وتصمت فتره من الوقت ثم تشرح للسيده ما يجري على ضفتي النهر الغربيه والشرقيه معا. تقول بصوت خفيض" ولكن ثمة فارق يا عزيزتي هوفر، هناك يراقب الفلسطينيون من الشرق ومن الغرب، ومن يحاول الهرب وينجو من الاردنيين يقتل من الاسرائيليين" وتتحدث باطناب عن مجازر ايلول واحداث صيف ١٩٨٢. وتذكر لها

اسماء المجازر واحدة واحدة. وبين عباره واخرى تكرر هوفر لازمتها المعهوده : او ياه او ياه"، وحين تقفلان عائدين عبر شارع اوروبا نفسه، تقول بقرف : "وها هو السور قد انهدم فشكرا لغورباتشوف ولنقود المانيا وزيارات كول" وتتابع : "ولكننا ندفع المال العربي لأمريكا التي تدعم بدورها اسرائيل".

تصمت هوفر، تنظران معا الى الجميلات اللاتي يقفن على طرفي الشارع ليصطدن زبونا ما، فلا تلتفت هي كثيرا في بادىء الامر لذلك، وتتابع حديثها : "على اية حال بامكانهما ان يقيما هنا في المانيا فتره طويله ويعيشا معا" وتعقب انت " بامكانهما ان يفعلا ذلك" وتستطرد هي في كلامها : "ربما لهذا يتباطأ ألف باء راء في دراسته، فأنا "تقول هوفر" لا الاحظه يأتي الى الجامعه" وتتحدث لك عن زوجته وحوارهما معا. تقول لك : "إن زوجته تود متابعة دراستها هنا، وبامكانه ان يستفيد من المنحه أطول مده ممكنه" وتصمت انت. تنظر الى الجميلات، تود ان تعرف منها الكثير عن بائعات الهوى، تهمس في نفسك : "ما دمت جئت إلى هنا فلأعرف ما أستطيع أن أعرفه عن الأوروبيين" وتتذكر حوارك مع أستاذ التاريخ في مدينة الحرية، هذا الذي زار المانيا بعد مغادرتها، وعاد إليها لمدة شهرين : "عش هنا بالطول وبالعرض". وتلح هوفر في سؤالها عن علاقتك بألف باء راء: "هل حدث بينكما مشكلة ما ؟" تسألك من جديد، فتجيب بعبارات قليلة : "أنت تعرفين أنّ الانسان قد يتغير، وكل واحد منّا بحاجة إلى أن يشكل دائرة معارف جديدة" وتتابع كلامك لها : "ولا تنسي أنتا بحاجة إلى تعلم اللغة الألمانية، وأنتا أيضا بحاجة إلى التعلم من الألمان والتعرف على طبيعتهم" وتقاطعك السيدة قائلة : "ألهذا تركت زوجتك تغادر المانيا ؟" "لهذا ولغيره أيضا" ولا توضح أكثر من ذلك. وتسألك هوفر عن أطفالك، تقول لك "ألا تشتاق إليهم ؟"، وتتذكر الأطفال الذين تفتقد حضورهم، تصمت ثم تتمتم : "الأطفال. آه الأطفال" وترفع صوتك موجها الكلام إليها : "من المؤكد أنني أشتاق إليهم. ألا تشتاقين لأبنائك الآن ؟" وتواصل الحديث معها، تقول لها إن الدراسة لن تطول كثيراً. تخبرها أنك على وشك الانتهاء من كتابة الأطروحة، وأنك إنما تشجعت وجئت لزيارة برلين لأنك أنجزت جزءاً كبيراً من كتابة الأطروحة.

وتنظر من جديد إلى جانبي الطريق. تلمح بائعة هوى تغازل رجلا فتلفت هوفر نظرك إلى ما يجري، وتسألك إن كنت تتبعت المشهد من أوله. تقول لها : "أمر عادي" وتسألها عن السبب في انتشار هذه الظاهرة بكثرة. تقول لها : "أنا شخصيا لا أتصور أن تقوم علاقة عابرة بين رجل وامرأة في الشارع مثلا" وتواصل : "والمجتمع الأوروبي مجتمع منفتح، وبامكان

المرء أن يصادق امرأة ما، وكذلك المرأة، فذلك ليس بالشيء الصعب" وتسألها : "ألا يخاف الرجل من هؤلاء النسوة ؟". ترد عليك هوفر، وقد أخذت تنظر إليك : "إنهم الرجال" فتسألها : "ماذا بهم ؟" "يريدون شيئا عابراً". تقول لك وتواصل حديثها : "يدفعون نقودهم، يحصلون على اللذة، ثم يمشون دون أن يفكروا في العواقب" وتصمت للحظة ثم تقول لك : "العلاقة الدائمة تعني أطفال ومسؤوليات وارتباطات والرجال غالبا لا يفضلون، هنا، هذا، وبالتحديد في سن مبكرة".

وتغادران إلى الفندق مبكراً. تقول لك هوفر : "إن أربع ساعات ونصف سفر تنهك المرء حقا، وخاصة حين يكون في الباص" توافقها الرأي، وتفترقان لتلتقيا مساء اليوم التالي من جديد. تذهبان معا لتتجولا في شوارع برلين، تذهبان إلى مطعم تركي، تأكلان الفلافل وتختبئان حين تمطر في زاوية الشارع. تنتظران أن تخف حدة المطر الذي فاجأكم لتذهبا إلى مقهى. تقول للسيدة هوفر "في حزيران عندنا لا تمطر أبداً" فتعقب : "ولكنك الآن في ألمانيا" وتصمت للحظة ثم تقول : "وخطأنا أنتا لم نحضر معنا ملابس شتوية، فالمطر هنا يبدو مصحوبا ببرد ما". تقترح عليها أن تدخلا مقهى ما، تقول لها : "ونشاهد أيضا مباريات كرة القدم" وتسألك : "من تشجع ؟" فتقول لها : "كنت أشجع ايطاليا، فلما خسرت أخذت أشجع ألمانيا" وتسر لذلك، تقول لك : "أما أنا فأشجع المانيا بلا تردد"، وتتحدث لها عن مارادونا، تقول لها : "كل شيء عندنا مسيس" تصوري أننا عام ١٩٨٦ كنا نشجع مارادونا ضد بريطانيا مثلا، والآن نشجع المانيا ونتمنى الهزيمة لمارادونا" تستوضح منك، فتخبرها أن مارادونا ذهب إلى حائط المبكى ووضع على رأسه القبة التي يضعها اليهود هناك على رؤوسهم، وطلب من الله أن يساعده في اللعب حتى يفوز. وتسألك هوفر : "إلى هذا الحد تكره اليهود ؟" "ليست القضية قضية اليهود" تقول لها وتتابع : "ولكنها انتهازية مارادونا أولاً" وتصمت للحظة ثم تتابع: "ولا تنسى أنتا محتلون منهم" وتشرح لها الموضوع أكثر : "تصوري مثلا أن اليهود عام ١٩٧٤ كانوا يقفون إلى جانب هولندا ضد المانيا غير ناسين ما فعله النازيون بهم" وتصمت للحظه ثم تضيف كأنما تود أن تقنعها أكثر : "تذكري مثلا أقوال رئيس البرلمان قبل مدة" ينبغي ألاّ نحاكم لأننا أحفاد لأناس نازيين، لا ذنب لنا في ذلك" وتذكري أيضا كيف أجبروه على الاستقالة".

وتطلب منك هوفر أن تتحدث لها عن بلادك، فتقترح عليها أن تغادرا المقهى وأن تسيرا في الشوارع : "إن المكان هنا غير مريح" تقول لها : "ثمة ضجة كبرى، وبامكاننا

البحث عن مقهى أخر، وعدا ذلك فان المطر قد توقف". تقتربان من كنيسه الذكرى، تقول لها: "غدا سوف أذهب لمشاهدة بقايا الكنيسة من الداخل" تتذكر الأفلام التي شاهدتها عن حالة برلين بعد الحرب العالمية الثانية بأيام قلائل، وتقول لك : "هذا هو المكان الوحيد الذي تبقى من هذا الحي، لقد دمرت المدينة دماراً شاملاً تقريبا".

وتواصل وهوفر، لمدة اسبوع، عادة المشي في الشارع حتى ساعة متأخرة من الليل. تذهبان معاً إلى السيرك تتحدث لك عن العائلة، عن ابنتها وابنها، عن زوجها، تتحدث لك عن رحلاتها في إجازة الصيف، وحين تعودان من برلين تتصل بك هوفر غير مرة، تخبرك عن صديقتها التي ذهبت إلى الأردن في زيارة، تقول لك "إن كارين قد زارت الأردن وصديقتها، وترغبان من شاب يعرف الأردن أن يحدثهما كثيراً عن هذا البلد، فقد أعجبتا به لدرجة لا تصدق".

حين تلتقي برورو تقص عليك هذه تفاصيل الرحلة. تتذكر فالديس الصفراء، وتقول لرورو : ثمة أشياء غابت عنك، وسأقصها عليك فيما بعد.

تمارس عادتك الصباحية. تذهب إلى صندوق البريد فتجده خاليا من الرسائل. تسأل مسؤول البناية إن كان ساعي البريد قد وزع الرسائل، وعندما يخبرك بالايجاب تشعر بالإحباط. تشكره وتغادر المكان إلى الجامعة. تصعد إلى الكافتيريا أولا فتجدها فارغة من الطلاب : "هكذا هو تموز دائما" تهمس. تحضر فنجانا من القهوة وتجلس، تنتظر شخصا ما تعرفه فلا يأتي أحد. لا الجزائريون الذين تجلس معهم دائما فيكررون على مسامعك لازمتهم: "إن عربت خربت" ولا عبد الفلسطيني القادم من الأرض المحتلة، ولا فالح الناصري وصديقته كاتي، وتفتقد بيبو كذلك. تجلس، تشرب القهوة على مهل، ثم تغادر إلى المكتبة. تجلس على طاولتك المعهودة، تقرأ في الجرائد، تبحث عن المجلات العربية القادمة حديثا من الأرض المحتلة لتتعرف على آخر أخبار الوطن المنتفض ثم تعود إلى غرفتك في الحادية عشرة. تذهب إلى صندوق البريد من جديد، هكذا وأنت تعرف أنه خالٍ من الرسائل، تريد أن تسلي النفس أو تعزيها، تريد أن يصلك شيء ما يخفف عنك أو يدخل الفرحة إلى قلبك، يصلك بالعالم البعيد، بالوطن الذي أصبح خبراً في جريدة، أو صورة في نشرة أخبار، أو مادة حديث حين تتحاور مع الطلبة الألمان. تفتح الصندوق فتجد قصاصة ورق من السيدة هوفر :

"عزيزي —

اتصلت بك مراراً فم أجدك. قلت أكتب لك رسالة، بالإمكان الاتصال بي على الرقم التالي في الجامعة — أو في البيت، وإذا أردت فبامكانك أن تصعد الدرج إلى بيتنا.

أهلا وسهلاً"

وتعود من حيث أتيت، تصعد الدرج المؤدي إلى مكتبها، فترحب بك بابتسامتها المعهودة، تخاطبك بمفردة السيد، تعلمك أن السيدة كارين، التي حدثتك عنها من قبل، صديقتها التي زارت الأردن، ترغب في الالتقاء بك. "لقد خرجت للتو من المستشفى". تقول لك هوفر وتواصل : "وترغب في أن تجتمعا معا". تصمت للحظة وتقول لها : "لا مانع". ترفع الهاتف وتتصل بكارين، لتتفقا على موعد. "غدا الساعة الثامنة. هل يناسبك هذا الوقت ؟" تقول لك هوفر : "يناسبني" وتتفقان أيضا على المكان. تعطيها عنوان مطعم الباذنجان، تقول لها "نلتقي أمام المطعم، ثم نتفق أين سنجلس؟". وتودع السيدة هوفر التي تتمنى لك وقتا طيبا مع كارين وصديقتها.

تذهب في الساعة السابعة والنصف، تجلس قليلا في الساحة المقابلة لحمام المدينة، تراقب الورود بألوانها المختلفة، وتراقب الجالسين، هدوءهم وإمعانهم النظر في الطبيعة وهذا التناسق المذهل في صفوف الورود. تنظر إلى البناية المقابلة فتلحظ الشبابيك التي تتدلى منها الورود، وتنتقل النظر في البنايات وألوانها، تقوم عن المقعد، تسير باتجاه مبنى البلدية القديم الذي أقيم على النهر بالضبط، تستمع إلى هدير الماء، تقطع الجسر الخشبي الذي أحيط كذلك من الجانبين بالورود، وتفرح للعاشقين الجالسين على المقعد الواقع على حافة النهر تحت الشجرة الباسقة عند مدخل الجسر. تهمس : "كل شيء هنا يحتفل بالحياة. كل شيء هنا يحتفل بالحياة". وتواصل السير، تقطع الجسر المقابل للجسر الخشبي، تستمع إلى شاب يعزف الموسيقى، وتتذكر أطفالك. حين كانوا هنا كانوا يطلبون منك النقود ليضعوها في طاقية العازف، ويقفون طويلا ليستمعوا إلى ألحانه، وحين كنت تطلب منهم مغادرة المكان يترددون، فتقف عند رغبتهم وتواصل الاستماع. وتلح عليك صورة الأطفال من جديد. "هذه البلاد هي بلاد العشاق وبلاد الأطفال وبلاد المسنين كذلك" تخاطب نفسك وتواصل السير باتجاه مطعم الباذنجان. تنتظر قليلا ثم تأتي كارين وصديقتها. امراة في الأربعين ربعة القامة ممتلئة ذات شعر يميل إلى السواد تقريبا، تبدو أنيقة لدرجة لا تتصور، وأخرى ناعمة ذات شعر ناعم مقصوص ينساب بتلقائية، لم تتجاوز السادسة والعشرين من العمر.

تسلمان عليك، فتتحدث الصغيرة بنعومة تتناسب ونعومة بشرتها. "هذا هو مطعم الباذنجان" تقول لهما وتواصل الكلام : "إنه مطعم يقدم وجبات طعام شرقية". تصمتان، تسأل كارين زميلتها إن كانت ترغب في الدخول، تلاحظ حرجهما، فتضع حداً للأمر : "وشخصيا ليست لدي رغبة في تناول الطعام، ولكن يمكن أن أشرب البيرة أو القهوة". وتقترحان أن تذهبوا جميعا إلى مقهى هادي.

وتقودك كارين وصديقتها إلى خبايا المدينة، تصعدان درجا ما ثم تتراجعان، تذكران أسماء المقاهي التي تعرفان لتكتشف أنك لا تعرف من المدينة إلاّ الجامعة ومقهى الطلبة والبار القريب ومنزل الطلبة والشوارع العامة وبائع الشاورما السوري وماكدونالد وأسواق البيع العامة والسوبر ماركت وسوق الخضار.

تدخلون مقهى وبار، مقهى هادي، تماما، تلحظ الأجواء الرومانسية فتقارن بين الهدوء الذي لا حدود له هنا وبين صخب بار الطلبة. تقول لهما : "الآن اكتشفت أماكن جديدة مختلفة في المدينة" وتعرف منهما أن المقاهي والبارات في المدينة متعددة بتعدد فئات

المجتمع. "كل مجموعة ولها بارها أو مقهاها" تقول لك كارين، وتدرك سر صغر حجم البيوت هنا. إن الناس هنا يذهبون في الصباح إلى أعمالهم، وحين يعودون بعد ساعات العمل يجلسون قليلا، يأخذون حمامهم اليومي ثم يغادرون منازلهم إلى المقاهي والبارات بحثا عن الأنس والشراب والطعام، أو يتمشون على حافة النهر أو في الغابة.

وتجلسون. تسألك كارين عن مشروبك. فتوافق على أن تشربوا جميعا البيرة. وتبدأ حديثها عن زيارتها للأردن. تبدي اعجابها بمدينة البتراء، ثم تطلب منك أن تشرح لها عن التركيبة الاجتماعية لهذا البلد.

تتحدث بايجاز عن إمارة شرق الأردن وتطورها إلى مملكة. تأتي بايجاز على التركيبة الاجتماعية لهذا البلد، تذكر الأردنيين والفلسطينيين تصف بعض عاداتهم وتقاليدهم، ولا تتعرض كثيراً للاختلافات بينهم. "ليس هذا الوقت مناسباً لهذا" تخاطب نفسك وتضيف : "وعلينا ألاّ ننشر غسيلنا الوسخ دائما أمام الآخرين، ومنذ اللحظة الأولى". وتشربون البيرة. تلتفت إلى المكان، وتقول : "لكأنني لم أعرف المدينة" وتواصل : "على الرغم من أنني أقيم هنا منذ عامين ونصف تقريبا"، ولا تلتفت كثيراً لكارين وحركاتها وإن كانت صديقتها قد أخذت تجذبك رويدا رويدا بنعومتها وهدوئها في الكلام.

تقترب الساعة من الحادية عشرة ليلاً فتلح بالانصراف "إنّ علي أن أصحو مبكراً" تقول لهما، وتتابع : "وأنا عادة لا أبقى خارج المنزل حتى هذه الساعة المتأخرة. فربما يتصل بي شخص ما". ولكن كارين تلتفت إلى ما غاب عنك : "ولكن غدا السبت، وليس هناك دوام. غدا إجازة" تقول لك، فترد عليها : "أنا لا أعرف الإجازة. إنني أصل الجمعة بالسبت بالأحد وبالاثنين كذلك" وتنتظرون النادل حتى تدفعوا الحساب. تسألك كارين إذا كنت ذهبت إلى مطاعم في المدينة تقدم وجبات المانية جنوبية، وتعدد اسماء الوجبات التي لا تعرف مسمياتها. تبتسم وتقول : "أنا أذهب إلى مطعم الجامعة يا كارين وأنظر إلى شكل الوجبة، فاذا ما أعجبتني آخذها دون أن أسأل عن اسمها" وتصمت لحظة ثم تواصل : "ولكني غالبا ما اسأل إن كان اللحم لحم خنزير أم لا، فأنا" تقول لها: "لم أعتد على أكل لحم الخنزير".

يأتي النادل فيدفع كل واحد منكم ثمن مشروبه. ولا تستغرب للأمر كثيراً. وتتذكر برنو : "عندنا هنا في المانيا إذا دعيت لشرب القهوة فيدفع الداعي، وإذا اتفقتما على موعد في المقهى يدفع كل منكما ثمن مشروبه" وتتذكر أيضا ما قاله لك ماورو عن الموضوع ذاته، وحين يستغرب زائر مصري كيف أنك دعيت إلى الطعام من زميلة وأنها لم تدفع تستغرب هذا مثله.

تقترح كارين عليك أن تلتقوا معا بعد أسبوعين. تقول لك : "تتعرف على حياة أهل المدينة جيدا، وتتعرف أيضا على أنواع الطعام الألماني الجنوبي" وتتبادلون أرقام الهواتف ثم تنصرفون.

مساء الاثنين، بعد ثلاثة أيام بالضبط، تتصل بك كارين. تقول لك : "إنني أشعر بالضجر" وتسألك إن كانت لديك الرغبة في الخروج هذا المساء، فتعتذر لها قائلا : "إنني على موعد مع الطابع في الثامنة مساءً ولا أستطيع"، وتواصل كلامها : "ومتى تنهي العمل ؟" "في العاشرة تقريبا" تجيبها فتفرح لذلك وتقول : "إذن نلتقي في العاشرة".

وتنتظرك كارين وصديقتها في العاشرة مساءً. تذهب إلى غرفتك فتجدها أمام منزل الطلبة. تطرح عليها تحية المساء ثم تطلب منهما أن تنتظر حتى تضع الأوراق في الغرفة، وتذهبون معا في سيارتها. تقلك كارين إلى بار في المدينة كنت زرته قبل عامين ونصف تقريبا. " هذا البار" تقول لك "يقدم البيرة المدخنة، وهي نوع من البيرة تعرف في هذه المنطقة بالتحديد"، وتخبرها أنك جئت إلى هذا المكان قبل عامين ونصف وشربت البيرة المدخنة مع ألماني.

تجلسون في البار الخاص بأهل المدينة الكبار في السن تقريبا، وتبدو كما بدوت للمرة الأولى غريبا عن الرواد، ولا تكترث للأمر فالمدينة هذه لا تعاني من ازدحام الأجانب فيها "إن أهلها" تقول لكارين "يعاملوننا معاملة حسنة ولم أشعر شخصيا بأي اضطهاد من أي شخص". وتسألك كارين بدون مقدمات : "تبدو من خلال حديثك الذي تفوهت به في المرة الماضية متعاطفا مع الفلسطينيين، فهل أنت م.ت.ف ؟" "إنني فلسطيني" ترد عليها وتواصل الكلام : "ثم إنني مللت الحديث في السياسة، وأريد هذه الليلة أن أسمع منك عن الألمان" تصمت كارين فيما تتابع صديقتها حواركما. وتسألها : "هل أنت متزوجه يا كارين ؟" "كنت" تقول وتتحدث لك أيضا عن حياتها وعن طفلتها التي تركتها في المنزل. وحين تسألها كيف تترك طفلة في المنزل تجيب : "إن عمرها أحد عشر عاماً". "وزوجك" تسألها فترد عليك : "لقد انفصلنا منذ زمن، وذهبت بعد ذلك إلى أمريكا لأعيش هناك" وتخبرك أنها تتقن الانجليزية "وإذا كنت بحاجة إلى ذلك فأنا أساعدك" تشكرها على ذلك، وتقول لها : "ثمة ضجة لا تحتمل في هذا المكان، أيضا حين جئت في المرة الماضية كان الوضع هكذا" وتقترح عليها أن تجلسوا في مكان منزوٍ. تذهبون إلى جزء من البار منفصل عن الصالة الكبيرة وتواصلون الثرثرة. "قل لي" تقول كارين "كم عمر مدرستك ؟ وهل تلتقيان معا كثيراً ؟"

وتفاجأ من سؤالها هذا أيضا. تصمت للحظة لتبدأ كارين حديثها عن النساء. فتقول لها "وملت أيضا الحديث عن النساء". وتحاول أن تتحدث مع صديقتها، غير أن كارين تواصل اسئلتها : "من يساعدك في تصحيح اللغة ؟" وتواصل : "وإذا أردت فأنا على استعداد لأن أقرأ ما تكتب وأصححه لك لغويا، وكذلك يمكن أن أطبع لك الرسالة"، وحين تعلم أنك تكتب في موضوع عن الصراع في الشرق الأوسط تقول لك: "إنني أحب أن اقرأ ما تكتب، فأنا" تواصل "عشت في اسرائيل لمدة عام ونصف، لقد عشت هناك في كيبوتس، وتزوجت من يهودي شرقي". وتبدأ لعبتك المفضلة : التغابي. وتتساءل : يبدأ الأمر إذن بحب الاستماع منك عن الأردن ثم ينتهي إلى توجيه الاسئلة عن علاقتك بـ م.ت.ف ومدرستك وعمرها" وتصمت : "من الأفضل الآن أن أستمع أكثر مما أتحدث" تخاطب نفسك. وتعود كارين من جديد لتتحدث عن النساء. تمد يدها إلى شعرها، تحسس على شعرها المصفف بطريقة جيدة، تحرك شفتيها حركات شهوانية. تنظر إليك نظرات مشتهاة، وتهرب من الحديث معها لتتحدث مع صديقتها الناعمة. تسأل صديقتها : "أليس لك صديق ؟" فتسألك كارين السؤال نفسه : "أليس لك صديقه ؟" وتواصل : "لا شك أنك عرفت نساء كثيرات في المدينة" فترد عليها : "وأنت كذلك لا شك أنك عرفت المديد من الرجال". وتخبرك صديقتها عن صديقها : "إنه سائق شاحنة كبيرة" تقول "ويسافر بين الفينة والفينة إلى ايطاليا ثم يعود". "أليس هذا مزعجا ؟" تقول لها وتواصل الكلام : "ثم ألا تخافين على نفسك من سائقي الشاحنات" وتبتسمان. تصمتان وتصمت كارين كذلك. تصمت بعد أن لاحظت ميلك لصديقتها وانصرافك عنها، ولكنها تعود لتواصل اسئلتها : "قل لي" تقول لك : "هل ترى أن العلاقة بين الرجال والنساء تقف عند حدود الصداقة أم أن الرجال يطمعون في أكثر من مجرد الصداقة؟". تبتسم ساخراً، وتسألها : "أي رجال تقصدين يا كارين ؟ الألمان أم الشرقيين ؟"

وتبتسم كارين، وتحاول أنت أن تتحدث مع صديقتها فقط. تأسرك نعومتها، ويأسرك أكثر هدوؤها. "لو تذهب كارين المتصابية إلى طفلتها" تهمس لصديقتها بعد أن تغادر كارين الى التواليت "لكان ذلك أفضل" وتتابع : "ويبدو أن كارين لا تكترث لابنتها كثيراً". وتصمت صديقتها، ثم تتحدث لك عن عملهما معا في المصرف وعن صديقها الذي تلتقي به مرة كل أسبوع تقريباً، وأحيانا كل أسبوعين. وحين تدق الساعة منتصف الليل تغادرون البار. وفي الطريق تقترح عليك كارين أن تزورها في منزلها، وأنها أيضا ترغب في زيارتك والتعرف على حياة الطلبة. تقول لها : "بشرط أنت وصديقتك". تبتسم وتقول باندهاش : "ثلاثة معاً"

وتواصل "لم ألف أمراً كهذا" وتحاول أن تغيظها، تقول لها : "إذن تأتي صديقتك أولا لتتعرف على حياة الطلبة". تفتح باب السيارة، وحين تودعهما تطلب منك كارين ألا تنسى الاتصال بها. "حين يكون لدي متسع من الوقت" ترد عليها وتقول : وداعاً".

تذهب إلى غرفتك، تسترجع اسئلة كارين، تتذكر كلامها عن حياتها في امريكا والكيبوتس، تفتح دفتر الهاتف، وتمحو الأرقام التي كتبتها لك كارين وصديقتها، وتنسى اللقاءين العابرين.

تصحو من النوم، تصنع القهوة وتتركها على الغاز قليلا، ثم تذهب إلى الحمام لممارسة عادتك اليومية التي تعلمتها في هذه البلاد : أخذ حمام يومي، وتشرب قهوتك الصباحية على مهل. تنظر إلى النهر من خلال النافذة، وتمعن النظر وتكرر لازمتك التي نطقتها قبل سنتين ونصف حيث أقمت في منزل الطلبة المقام على ضفة النهر : "تذكر أنك ستعود إلى بلاد لا أنهار فيها، وتذكر البحر المتوسط المسروق". ترتدي ملابسك وتخرج تفتح صندوق البريد، تلك العادة اليومية التي تعلمتها أيضا هنا، وحين تجده فارغا تعتريك حالة من الكآبة، وتهمس مردداً عنوان رواية ماركيز "ليس لدى الكولونيل من يكاتبه". تجلس من جديد، تدخن سيجارة وتشرب مزيداً من القهوة، وتفتح باب الصالة المطل على الشارع لتراقب الناس مخالفاً بذلك عادات الألمان، مسترجعا عادات الناس في بلادك حين يجلسون على عتبات البيوت، يراقبون الرائح والغادي، "أطرد الضجر" تهمس وتتابع : "ولا يعنيني كثيراً استغرابهم لهذا الأمر".

تسترق السمع فاذا بأصوات ترتفع عبر الممر، يدخل مسؤول البناية ومعه شاب، في الثانية والعشرين تقريبا، يجر حقائبه. يسلمه مسؤول البناية مفاتيح الغرفة المجاورة في الشقة التي تقيم فيها ويذهب.

يتأفف الشاب القادم، يقدم نفسه إليك "ستيف وسأدرس هنا الأدب الألماني، وسوف أقيم لمدة عام فقط" وتسأله : "من أي البلاد ؟" "من ويلز" يرد عليك. تقدم له القهوة وتقول له : "إنني طالب دراسات عليا، وربما أمكث هنا فصلا أو يزيد".

يتأفف ستيف يتحدث بعنجهية تلحظها من طريقة كلامه، يحن من اليوم الأول لأمه ولمدينته ولبريطانيا، يقول لك : "أمي أوصتني أن أعتني بنفسي كثيراً" ويتابع بعد لحظة صمت: "فأنا مصاب بارتفاع ضغط الدم، وعلي أن أكون حريصا في الأكل" ويخاطبك مباشرة "وكما ترى، فانني سمين نوعا ما" ويصمت دقائق، ثم يقول لك : "وبما أنّ أمي ليست هنا فعليك أن تهتم بي" ويتابع : "وأنا سأصغي إلى نصائحك، وإذا رأيتني أكل كثيراً فأرجو أن تمنعني، إنك هنا مسؤول عني". ويسألك ستيف الذي جاء في النصف الثاني من اكتوبر إن كان عليه أن يدفع أجرة الغرفة عن شهر اكتوبر كاملة، فتقول له : "إذهب إلى مسؤول البناية واسأله" وتتابع "وأنت لست صغيراً، ويمكن أن تستقل عن أمك أيضا، وتذكر دائما أنني لست أمك !!"

وستيف أجمل من فتاة بياض وعيون عسلية وشعر أشقر يقص القصة الانجليزية المعهودة. وتفاجأ حين تعلم أن ستيف هو الذي سيقيم معك. فحين سافر الاسباني انطونيو في شهر تموز، تذهب إلى السيد مدير البناية فونكه وتقول له : أمل أن يقيم في الغرفة شاب ألماني "إنني أود أن أتعلم اللغة" وتتابع : "وآمل أن تراعي ذلك". وفيما بعد يعلمك فونكه أن شخصا بولنديا هو الذي سيقيم في الغرفة المجاورة، ويوضح لك أنه يجيد الألمانية كأبنائها.

تذهب ثانية إلى السيد فونكه، العجوز الذي شهد العهد النازي والذي يقيم وحيداً ويبدى تعاطفا كبيراً معك، وتستفسر منه عما جرى : "لقد أخبرتني من قبل" تقول له وتتابع "أن بولنديا هو الذي سيقيم في الغرفة المجاورة فما الذي حدث ؟" "هذا صحيح" يقول لك فونكه ويتابع : "ولم يكن الأمر بيدي" ويصمت للحظة ثم يقول لك : "إن دائرة شؤون الطلبة الأجانب في الجامعة اتصلت بي، وأبلغتني عن التغيير" وتطلب من فونكه أن يسمح لك بالانتقال من غرفتك في الشقة إلى غرفة مفردة، تقول له بأدب جم : "يا سيد فونكه أنت تعرف إنني الآن في مراحل الدراسة الأخيرة، وإنني بحاجة إلى الهدوء" وتصمت منتظراً جوابا، وحين تقابل بصمت مماثل تتابع القول : "ولاتنسى يا سيد فونكه أن ثمة فارقا في السن بيننا، إنه شاب، وهو من اللحظة الأولى التي أقام فيها فتح المسجل وأخذ يستمع إلى الموسيقى الصاخبة" وتصمت للحظة منتظرا رداً، ثم تتابع الكلام : "وقد أخبرني أيضا أنه يأسف لأنه لم يحضر معه آلته الموسيقية، وأنه حين يغادر بعد شهرين تقريبا، في فترة أعياد الميلاد، فسوف يعمل على إحضارها" ويعتذر لك السيد فونكه، يقول لك إن الوقت الآن متأخر، وأن الغرف المفردة، في سكن الطلبة، محجوزة جميعها. "ومع ذلك" يقول لك "سأعمل على توفير غرفة لك" وتنتظر.

تغادر الغرفة وتعود إليها، ولاترى ستيف إلا نادراً. يصحو ستيف مساءً، يخرج من غرفته، لافاً جسده بالمنشفة فقط ويقول لك : "إذا جاءت جسطين فأرجو أن تبلغها إنني لست هنا" ويتابع : "فأنا لاأحب النساء، وهي فوق هذا من الجنس الذي يزعجك ويبعث الملل في نفسك"، ويغادر ستيف الغرفة مع صديق له، انجليزي يشبهه جمالاً، وحين تأتي جسطين لتسأل عنه تخبرها أنه خرج للتو مع صديقه. تشكرك وتترك له ورقة ثم تغادر، وتتساءل أنت "كيف لا يحب هذا المتعجرف هذه الفتاة المقبولة جمالاً ولطفا نوعا ما، ولماذا يتهرب منها، ولا يحب النساء ؟"

ويحدثك ستيف فيما بعد، عن أصدقائه وعن مزاج الانجليز وعشرتهم، يقول لك : "إننا

نختلف كثيراً عن الألمان، هؤلاء الذين يبدون جادين دائما" ويبدي أسفه لمجيئه إلى المانيا. "ولكن كان علي أن آتي" يقول لك، ويواصل "فثمة علاقة مميزة تربط أستاذي في ويلز بالمسؤول عن الطلبة الأجانب هنا". وتعتذر باستمرار لستيف: "إن وقتي" تقول له : "لا يسمح لي بالجلوس معك طويلا، فعلي أن أنفق ساعات طويلة جالساً على الكرسي أمام الطاولة" وتكرر اعتذارك : "وإلاّ فكان ينبغي أن أدعوك إلى مقهى أو بار، ترحيبا بمقدمك"، ولأنه يزعجك دائما باسئلته، حيث اكتشفت أنه فضولي مثل رورو، تكتب ورقة وتعلقها على باب الشقة : "يرجى عدم الازعاج، الامتحانات على الأبواب" مستعيراً العبارة، والعادة أيضا، من الطلبة الألمان الذين يفعلون ذلك.

وبعد أسبوعين تقريبا من مجيء ستيف تغادر إلى بون. وحين تعود في منتصف كانون الأول تلتقي بستيف لقاءً عابراً، فحين تصل مساءً تجده خارج الشقة، وفي صباح اليوم التالي يودعك مغادراً إلى ويلز، وحين يعود تغادر أنت إلى بون ثانية، ومع اندلاع الحرب الامريكية العراقية تعود ثانية لتقيم من جديد في غرفتك.

في الساعات القليلة التي تلتقي فيها وستيف، وغالباً ما كان اللقاء عابراً وغير ودي، كان ستيف يثير أسئلته من جديد. يسألك عن رأيك في الحرب العراقية-الامريكية الوشيكة الاندلاع، يسألك عن رأيك في صدام حسين، ويقترح أن يسميك ياسر عرفات، وحين يرسل لك، فيما بعد، بطاقة معايدة من مدينته في ويلز يكتب لك : "هالو ياسر"، ولا يبدي ستيف أي تعاطف مع العراق. يمدح أمريكا والعالم الحر، ويتحدث قليلا عن الانتفاضة، طالباً منك أن تشرح له حقيقة الأوضاع في الأراضي المحتلة. وترتاح كثيراً لكون اللقاء لقاءً عابراً، وترتاح أكثر، فيما بعد، لأن ستيف غير من نظرته لجسطين. لقد أخذت هذه تسلب له عقله، تأتي له مساءً، تجلس قليلا، يتحدثان معا ويخرجان، وفي بعض الفترات كان يغلق باب غرفته ثم لا تخرج جسطين إلاّ في فترة متأخرة. وتحتار في أمر ستيف كثيراً. يخرج ستيف أحيانا في الحادية عشرة ليلا حين تذهب أنت لتغط في نوم عميق، ويعود في الثالثة صباحا أو قبل ذلك بقليل. وفي أثناء غيابه يترك الضوء في المطبخ مُشْتَعلاً، وأحيانا تصحو على صرير الباب حين يعود، وقد تتبادلان بعض المفردات التي غالباً ما كانت اعتذاراً صادراً عنه لإزعاجه الذي سببه فأوقظك من نومك.

ولا يتردد ستيف في إخبارك عن زوارك في أثناء غيابك. "لقد جاءت زوجة صديقك العربي في أثناء وجودك في بون" يقول لك ستيف ويتابع : "وأخذت بعض الأغراض". وفي

مرة أخرى يقول لك : "اليوم، وأنت في الجامعة، جاءت امرأة المانية حقا، وسألت عنك" وحين تسأله من تكون هذه المرأة يجيبك : "قالت لي أن اسمها يوهان، وأخبرتني أنها ستعود فيما بعد". وتستفسر منه : "ولكن كيف عرفت أنها المانية حقاً ؟" "من صوتها" يقول لك ستيف ويضحك. وحين يناديك مراراً بياسار، ويقصد ياسر، تقول له : إنني لست ياسر إطلاقا. ولكنه يواصل النداء.

ويراقب ستيف زوارك، وحين يأتون يجلس في غرفته ويغلق الباب إلاّ قليلا، ويخفض من صوت المسجل. وفي البداية كنت تعقب لزوارك قائلاً : "إنه شاب مؤدب، فحين يأتي شخص ما ليزورني أو حين يلحظني جالساً على الكرسي أقرأ، يغلق المسجل" وتكتشف فيما بعد غير ذلك.

تزورك فرانسيسكا مساءً، تطلب منك أن تشرح لها بعض السور القرآنية، وحين تنهي ذلك تتحدثان عن الدكتورة ألف نون والف باء راء والبغل صديقه. وحين تلتقي ببعض الطلبة العرب يخبرونك بمحتوى الحديث كاملا. تسأل فرانسيسكا إن كانت أخبرت أحداً بما جرى بينكما من حديث فتنفي. وفيما بعد يخبرك فالح أن ثمة أشرطة مسجلة بصوتك. وتذهب بك الظنون مذاهب شتى. تتذكر زولرك واحداً واحداً. إن فرانسيسكا على علاقة جيدة بالسيد ألف باء راء وصديقه البغل، ثم إن الحوار كان حواراً عادياً. تتذكر الاسبانية التي جاءت لتتحدث لك عن خيانة صديقها الوغد، كما وصفته، وتتذكر وعدها الذي لم تنفذه. لقد جاءت فجأة، وذهبت فجأة، جلست ساعة ثم انصرفت، وكان حواركما يومها عاديا، كان حواراً يغلب عليه طابع الدعابة "بامكانك أن تقيمي معي حتى تعودي إلى اسبانيا" قلت لها يومها وتابعت : "إن تبديل الصديقات هنا عادة، وعادة سهلة" وكانت هي تبتسم لك، وحين قلت لها : "وقد نصبح أصدقاء" قالت، كأنما جادة، "إنني متضايقة جداً من صديقي". وتتذكر كاترين الألمانية التي جاءت لتهديك أعمال بريخت الكاملة. كاترين التي رفضت أن تقيم معها علاقة غير مرة "إنها مريضة نفسيا" قالت لك صديقة عربية، فأثرت دائما الابتعاد عنها وكنت تكتفي بلقاء عابر. تستمتعان معا بعض الوقت، ثم تعتذر لها. وتحتار في أمر ستيف. وتحتار أكثر فأكثر حين يعيد كاسب محتوى الحوار الذي دار بينك وبين فرانسيسكا كاملا.

تدعو ستيف وجسطين إلى الغداء معاً فيوافقان. تقضون معاً وقتا ما، تثرثرون فيشكرك ستيف "حقا إنني أشعر للمرة الأولى أن هناك جواً من الود المفترض أن يكون" يقول لك ويتابع مخاطبا جسطين : "هذه هي المرة الأولى التي نتناول فيها الطعام معاً" ويعبر عن

دهشته لما يحدث : "إن جواً غير طبيعي يسود هنا" ويواصل موجها الخطاب لك : "أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟" وتتبادلون العناوين في أرض الوطن. تهديه كتابا بالألمانية، ويرسل لك، فيما بعد، كتاب عاموس عوز "علبة سوداء" الصادر حديثا بالانجليزية، ولاينسى أن يرسل لك العديد من البطاقات من مدينته في ويلز، في أثناء سفره للمرة الثانية إلى هناك في نهاية شباط.

وفي أثناء ذلك تراقب ستيف جيداً، تصحو ذات ليلة في تمام الثانية بعد عودته لتوان فتجده وقد افتتح الثلاجة، تتحدثان معاً لدقائق، يبدي أسفه، كالمعتاد، لإزعاجك ثم تبدو عليه علامات الارتباك. في صباح اليوم التالي تذهب إلى مكتب الطلبة الأجانب، تسأل المدير عن تدخله في أمر منزل الطلبة وطلبه من السيد فونكه أن يجعل ستيف يقيم معك في الشقة، وتستمع السكرتيره إلى الحوار. يقول لك مدير مكتب الطلبة الأجانب بعد أن أحضر القوائم : "أنظر، لقد جاء متأخراً ولم تكن ثمة غرفة مفردة، وكان عليه أن يقيم معك" تشكره غير مقتنع وتنصرف.

تتذكر الليالي الأخيرة. تذهب في الحادية عشرة مساءً إلى النوم وتصحو بعد ساعة أو ساعتين، تفتح النافذة على الرغم من أجواء شباط الباردة جداً حيث درجات الحرارة تصل إلى تحت الصفر بكثير، لتنام، وتتذكر ارتباك ستيف حين صحوت ووجدته يفتح الثلاجة، تتذكر كلامه لك في الأيام الأخيرة : "أنا لا أستطيع أن أنام إلا بعد أن أفتح النافذة ليلا" يقول لك، ويسألك : "هل تفعل ذلك ؟" ويتابع حديثه ذات صباح : "اليوم صباحاً خرجت إلى شوارع المدينة لأستمتع بمناظر الثلج المتساقط وصورت العديد من الشوارع والمباني".

تعود إلى المنزل عصراً بعد حديثك مع مسؤول الطلبة الأجانب فتجد ستيف وقد أعد حقائبه ليسافر. تنظر إليه فتجده مهموما. تسأله "ماذا بدا لك ؟" فيرد عليك قائلا : "لقد وعدت صديقتي في هامبورغ بالسفر إليها في منتصف آذار" ويتابع بعد لحظة صمت : "وقد أخبرتك بهذا" فتهز رأسك موافقا وتسأله : "ألن تزورها؟" "لا" يجيبك ويتابع : "لقد غيرت رأيي وذهبت إلى مكاتب شركة الطيران وحجزت تذكرة، وسأسافر اليوم إلى نورنبرغ لأقلع من هناك".

تترك الشقة وتذهب إلى مكتبة الجامعة، وحين تعود مساءً لا تجد ستيف، وتتنفس هواءً ملوثاً، ثمة رائحة غريبة لم تألفها من قبل إطلاقا. تفتح الثلاجة فتجدها معطلة. تفتح الشبابيك كلها، وتترك باب الشقة مفتوحاً كذلك، وتتباطأ في الذهاب إلى السيد المسؤول

لإخباره عن العطل الذي ألمّ بالثلاجة ليصلح العطب، وتتنفس هواء ملوثا حتى ساعات المساء. تذهب إلى غرفة التلفاز التابعة لمسكن الطلبة فتجدها خاوية، تجلس، تشاهد التلفاز وتظل حتى ساعة متأخرة، وحين تعود إلى شقتك، تترك شبابيك المطبخ مفتوحة، وتنام وشباك الغرفة أيضا كذلك. وفي الصباح تغادر الغرفة وتذهب إلى غرفة التلفزيون من جديد. وتظل الرائحة أياماً وتنفق معظم الوقت في غرفة التلفزيون.

في اليوم الرابع لخراب الثلاجة تذهب إلى السيد مسؤول البناية، تخبره عن الخلل الذي ألم بها، ويأتي بعد ساعات ليصلحها. يجد الشبابيك مفتوحة فيسألك : "ألا تشعر بالبرد" تبتسم وتقول له : "إن الهواء في الشقة ليس نقيا، ويمكن احتمال البرد قليلاً".

تذهب من جديد إلى السيد فونكه. تلح عليه أن يبحث لك عن غرفة مفردة، ويوافق. وتغادر الشقة.

حين يعود استيف في أواخر نيسان من ويلز، تلتقيان لقاءً عابراً في الممر. تسأله : "لماذا غيرت رأيك في أوائل آذار وسافرت إلى ويلز بدل هامبورغ" يصمت ستيف فتواصل الكلام : "ألم تقل لي في شباط أنك ستمكث حتى أواخر آذار في الشقة ؟" وتتابع : "وما الذي فعلته بالثلاجة يا ستيف ؟" ويواصل صمته للحظة ثم يسألك : "ولكن متى غادرت الشقة"، "يهمك هذا يا ستيف" ترد عليه وتواصل : "وإذا كان يهمك فلا بأس. لقد غادرت في أواخر آذار على أية حال"، ويعبر ستيف عن اندهاشه بحركة من عينيه، كأنما يقول لك : "أواخر آذار، كيف بقيت على قيد الحياة ؟".

حين تعود من بون في اواخر أيار ، وتقيم في غرفتك لمدة يومين تغادر إثرها إلى كارلسروه لمدة عشرة أيام لا تلتقي بستيف.

تعود من كارلسروه تنفق ما تبقى لك من أيام في المانيا فلا تجد ستيف. لقد غادر غرفته حين علم بوجودك. وفي اللحظات التي التقيت به فيها خلال الأيام الأولى من شهر تموز، كان ستيف يسير على عجل، تنتابه حالة من الخوف والقلق. يجيبك على عجل ويغادر بسرعة.

يغادر الطلبة المدينة وتصبح البناية من جديد، كعادتها نهاية كل فصل، خاوية. وتجلس في شقتك وحيداً. لم تكن رسائل الأصدقاء بعد، تأتي. تلك الرسائل التي أخذت تتوارد بعد شهرين بشكل لافت. "مجرد دعوة من أستاذ لزيارة المانيا. لن يكلفك الأمر شيئاً" وكنت، فيما بعد، تبتسم : "حتى اولئك الذين يشتمون الغرب ليل نهار يرغبون في زيارته" وتخاطب نفسك : "ومن المؤكد أنهم سيكونون أول المخبرين أيضاً".

لقد غادر انطونيو الاسباني. ودعك وداعاً حاراً ووعد أن يرسل لك، من هناك، من اسبانيا، بطاقة، وألح عليك أن تزور بلاده. "نحن لسنا متعصبين إطلاقا" كان انطونيو يقول ويواصل : "فقد شهدت بلادنا حضور حضارات عديدة، وآثار الشعوب شاهدة على ذلك. إن اسبانيا قطعة فسيفساء فيها المسجد والكنيسة والكنيس".

يغادر انطونيو وتأتي بطاقته الوحيدة مع أعياد الميلاد، وتنقطع أخباره نهائيا. لقد مكث، في الغرفة المجاورة، أربعة شهور لم ترَه خلالها، إلاّ قليلا. وحين كنت تسأله، أحيانا، عن النساء كان يرد عليك : "أنا لا أحب النساء" وكنت تستغرب هذا منه. وتنظر إلى الاسبانيات الثلاثة. يأتين في الفترة التي يأتي فيها ويبدلن الأصدقاء القدامى بسرعة. يتحدثن في البداية عن أصدقائهن الأسبان هناك. يبدين رغبة جامحة في العودة. يشعرن مراراً بالندم لقدومهن إلى المانيا، وحين تقترب أعياد الميلاد يغادرن شوقا إلى الرجال. ويعدن من جديد. تختلف أحوالهن. يعتدن على الأجواء الجديدة في المانيا ويصادقن الألمان فلا يستبد بهن، بعد، شوق أو حنين.

تهمس : "أحيانا يصبح الرجل وطن المرأة والعكس صحيحا أيضا" وتكرر سؤالك لأنطونيو : "يا انطونيو ألا تبحث عن امرأة ؟" فيناديك باسمك موحيا أن كُفّ عن هذه السيرة. ويسرع انطونيو بالانصراف حين يلحظ قدوم بيبو إليك. وتهمس من جديد : "لعل شكل انطونيو غير الجذّاب سبب له العديد من المشاكل مع النسوة فأخذ يصرف النظر عنهن إلى هذا الحد" وتواصل : "فهو، على أية حال، ليس قادما من فلسطين ليخاف منهن".

يأتي انطونيو، ككثيرين غيره من أبناء العالم الثالث إلى أوروبا، يتعارفون على بعضهم، يبدون وداً كبيراً. يتبادلون العناوين. يصرون على ضرورة التواصل، فيما بعد، ثم يفترقون ولا يكتب أي منهم للآخر.

وتهمس : "ولا يختلف الاسبان كثيراً". وتتذكر حديث الطلبة الألمان : "إن اسبانيا والبرتغال لا تختلفان كثيراً عن البرازيل والأرجنتين". وتصغي إلى برنو خطيب انجلو الاسبانية: "ولاتستغرب أن أصلاح شباك خرب قد يستغرق طويل وقت، فالاسبان يحبون الجلوس تحت أشعة الشمس ويذهبون، فرحين، إلى شواطىء البحر". وتصغي أيضا إلى انجيلا. كانت انجيلا على الرغم من حبها لالمانيا وتفضيلها إياها على بلادها، تدافع عن اسبانيا، ومع الزمن أخذ برنو يتحول إلى كائن أخر. لقد أعجب بحياة الشرقيين من خلال الطعام. يأتي برنو، حين تدعوه رورو وكاسب لتناول الحمص والفلافل، ويجلس ساعاتٍ طويلة، ولم يعد يرغب في الحديث عن الأدب، كما كان يفعل من قبل حين يزورك وانجيلا. "لقد خلقت في المكان الخطأ" يعقب برنو حين يبصر الفلافل والحمص، وقد يذهب فجأة لاحضار زجاجة نبيذ ثانية. وأخذت رورو، فيما بعد، تقول : "لقد أفسدنا الرجل ولم نعد قادرين على التخلص من زياراته المتكررة التي أخذت تزعجنا" ويعقب كاسب : "قد يكون هذا المدخل جيداً لإلحاق الهزيمة بالاوروبيين".

يغادر الطلبة وتجلس في البيت وحيداً. يأتي الشيخ غضبان أحيانا، وقد يأتي فالح مساءً، فتخرجون لقضاء بعض الوقت في بار قريب. وبين فترة وأخرى تسافرون إلى إحدى المدن القريبة. وتشغل أخبار احتلال العراق والكويت أذهانكم، وتصرفون الذهن عن موضوعات أخرى. ينتظر الشيخ غضبان مجيء زوجته. يبحث عن سكن فيتعثر ويقرر السفر إلى الهند ولكنه لايفعل. لقد كانت المرأة تعني له الكثير. وحين تذهبون معا، بصحبة صديق قدم من لندن لزيارتك، إلى نورنبرج، تقوده إلى مكان متخصص في الأمور الجنسية لتختبر سلوكه. كان الشيخ غضبان يذهب نهار الجمعة إلى المسجد ليصلي مع الأتراك ويتحدث عن الدين والأخلاق، وحين ذهب معك قال : "يجب أن تتعرف على كل شيء هنا".

ويأسرك جمال اندريا. "بضة تبدين يا أندريا" تخاطب نفسك وأنت تراها، وحين ترتدي الثياب السوداء تقول : "إن الأبيض لا يبدو جميلا لدرجة لاتتصور إلاّ حين يكون إلى جانب الأسود" وتعود بك الذاكرة إلى مدينة الحرية. كانت كلاوديا الألمانية تنتظر مساء الجمعة حتى تذهب إلى الافريقي وتقوده إلى الديسكو، وحين تبصرهما كنت تستذكر ألف ليلة وليلة. تتذكر شهريار وزوجته التي خانته مع عبد أسود.

تجلس أندريا في المطبخ. تتصفح الجريدة وتشرب قهوتها على مهل، ولا تتحدثان. تظلان صامتين ولا يكسر هذه الرتابة، رتابة الصمت، إلاّ دخول طالب أخر. تتحدث أندريا

وتتحدث أنت. تتبادلان حديثا عن أهل الجنوب أو عن حياة الطلبة هنا. ويتواصل الحوار في غير مساء. تتردد أندريا على غرفة التلفاز. تجلس وأني روزا وأنت وقد يأتي طلبة آخرون، وغالبا ما كانت مانو الهندية طالباً منهم. وتتكرر زياراتك. لقد سافر فالح إلى الوطن، ولم يعد الشيخ غضبان يأتي، وأخذت العلاقة بينك وبين رورو وكاسب تفتر.

تذهب إلى اندريا. تتحدث معها عن دراستها. تبدى استعدادها لقراءة ما تكتب. تطلب منك أن تجلس. تومىء لك بحركة من عينيها أن أجلس. تنظر إلى جدران غرفتها ، ولا تدري لماذا لم تتذكر، في تلك اللحظات، بربارة ونينا.

كانت أندريا غالبا ما تجلس في غرفتها. كانت تشغل نفسها بالقراءة والكتابة، وقد تداعب قطتها التي أخفتها عن عيون مسؤول البناية مخالفة بذلك قانون المنزل.

تجلس وتسأل اندريا عن دراستها. تتحدث، لك، بفرح عما أنجزته. ترسم صورة لمستقبلها، وتسألك إن كنت ستبقى هنا بعد انهاء دراستك. ولا يستبد بك الفضول لتسألها عن صديقها القديم الذي كان يدرس اللاهوت. لقد كانا ينفقان معا بعض الوقت. يتحدثان معا في أمر الدراسة، ثم افترقا. تزوج من فتاة تبدو عادية وبقيت اندريا وحيدة.

تحدثك اندريا عن أهلها. تقول لك : "إنني وحيدة أبوي، ونحن نهتم بالخيول، ولدينا خيول عربية" وتسألك: "هل جميلة اسم عربي ؟". تتذكر رواية جنكيز ايتماتوف وتسألها إن كانت قرأت الرواية. وتخبرك اندريا أن جميلة هو اسم أحد الخيول التي يملكها والدها.

ويسيطر عليك خيال اندريا. تتذكرها وأنت مسافر إلى ميونيخ. تقف حتى يصعد العجوز الألماني الذي تجلس إلى جانبه، ولكنه يصر على أن تصعد أولا. تقول له : "نحن نحترم الكبار في السن" فيرد عليك : "ونحن نحترم الجمال"، "ولكنني لست فتاة" "أنا رجل هرم، والشباب والجمال يقترنان معا". تتذكر أندريا وتتساءل عن سرّ جمال بلادهم. ويحدثك العجوز في الحافلة عن المانيا والحرب العالمية الثانية. يرد الاعتبار للألمان، وحين تسأله عن معسكرات التعذيب يرد عليك موضحا : "لقد كان الانجليز هم الأسبق في إقامتها". يحدثك عن المستعمرات البريطانية وإبادة السكان الأصليين في البلاد المستعمرة.

تذهب إلى داخاو لترى معسكرات الإبادة. تلحظ أفران الغاز فتستحضر ذاكرتك ما يجري في الضفة. تتساءل : أيجوز للمرء أن يجري مقارنة ما ؟ وحين تقف أمام الكشك تنظر في البطاقات المعروضة للبيع. تمعن النظر فيها جيدا، تتناول واحدة منها وتسأل البائعة : "لمن يرصد ريع هذه البطاقات ؟" "لليهود !" ترد عليك، فتعيد البطاقة إلى حيث كانت. "سوف

يذهب ريعها، إذن، لشراء رصاصة تقتل أخاً هناك". وتسترجع ما قاله لك العجوز الالماني، صباحا : "حين هزمنا في الحرب تغير كل شيء، وأصبحنا أول من أوجد معسكرات الإبادة"، وتعود بك الذاكرة، من جديد، إلى الماضي. كنت وألف باء، راء، وزوجته في قطار شتوتجارت-نورنبرج وكان يجلس معكم في الحجرة نفسها عجوز الماني كان يستمع إلى حواركم : "تبدون عرباً" وحين سألتموه : "كيف عرفت ؟" أجاب : "من اللغة". يومها قال عبارة واحدة : "نحن لا نستطيع أن نتكلم، لأننا، إن تكلمنا، نعتبر نازيين".

تغادر داخاو عائدا إلى ميونيخ. تبحلق في البعيد. تسترجع صورة المخيم. تعود بك الذاكرة إلى أيام الاحتلال الأولى. تستحضر الصور التي شاهدتها، على شاشة التلفاز، عن معسكر أنصار وصبرا وشاتيلا. تعود بك الذاكرة إلى ليالي العقاب الجماعي والانتظار ليلا حتى ساعة متأخرة تحت بصر جنود الاحتلال. ولا يعيدك إلى القطار إلاّ جلوس النسوة العواجيز إلى جانبك. تصغي إلى أحاديثهن ثم تجد نفسك منساقا إلى الحوار معهن. تسأل إحداهن : "لماذا أنت وحيد ؟" ولاتدري بمَ تجيب. ترتبك للحظة. هل تقول لهن إنني أكره ذلك ولكنني مضطر، ثم تجيب : "إنّ الجميلات يثرن العديد من المشاكل". تبتسم المرأة ثم تعقب : "ولكن هناك جميلات وذكيات" وتتذكر أندريا.

تصل إلى المدينة، عائداً من ميونيخ، منتصف الليل. تقف على ضفة النهر، قليلا. تنظر إلى صفحة الماء المضيء. تتنفس هواء نقياً. تسير بخطى بطيئة عائداً إلى الغرفة-القبر. تلقي نظرة على غرفة التلفاز فلا تبصر أحدا. تهمس : "لعل أندريا وأني روزا نامتا مبكراً هذا المساء. لعلهما غادرتا لتقيما بين أهلهما !".

تخاطب أندريا قائلا : "ألا تشعرين بالملل يا أندريا ؟" فترد عليك : "عليّ أن أنهي كتابة الرسالة خلال أيام" وتواصل : "لقد فرغت من طباعة الجزء الأول".

وتستثير وحدة أندريا فضولك. تستغرب كيف تبقى فتاة على هذا القدر من الجمال الأسر دون صديق. تستفزك أحيانا، جديتها المبالغ فيها. تحدث نفسك : "لعلها لا تستطيع أن تقيم ، بسهولة، علاقة مع الرجال !"، وتذهب، أحيانا، إلى أبعد من ذلك : "لعلّ طريقة كلامها، حيث تبدو جدية أكثر من اللازم، هي التي تحول دون أن يواصل رجل ما علاقة ما معها". وفي اللحظات التي كان الهاتف يصلكما ببعض، فتناديها لترد على مكالمة أوتناديك لترد على مكالمة، تواصلان الحديث وتأخذ العلاقة بينكما تتوطد. تدعوها، ذات نهار، للخروج، معا، مساء، فتعتذر لانكبابها على الدراسة. تدعوها ثانية لأن تزورك في غرفتك فتقول لك : "تلتقي

هنا أو في غرفتي". تزورها فتحدثك عن ستيفان هايم وروايته عن الملك داود. تحضر لك كتالوجا عن الكتب العربية المترجمة. تنصحها أن تقرأ كتاب محمد شكري (الخبز الحافي). تومي، لك بحركة أن اجلس على السرير فتجلس على الكنبة. "إن أندريا ليست كبربارة أو نينا" تحدث نفسك : "ويفضل أن يبدأ المرء معها علاقة محترمة". تجلس بهدوء. تواصل الحوار "لابد من علاقة محترمة مع أندريا". وتكرر دعوتك للخروج معا أو لزيارتك في غرفتك، فتعتذر من جديد، تقول لك : "عليّ أن أستعد للامتحانات". وتكرر سؤالها لك : "هل تبقى هنا إن وجدت وظيفة في جامعة ؟" تصمت ولا تجيب.

"ما الذي فَجّر الأمور فجأة ؟" "كيف بدأ عالمك يهتز وصداقاتك تذوي ؟" تخاطب نفسك، وتذهب في البعيد.

لقد جاءت بربارة وذهبت بربارة. وجاءت نينا وذهبت نينا. وجاء مانويل وذهب مانويل. وجاء ألف باء راء. وذهب ألف باء راء. وجاء صديقه البغل وذهب البغل. وجاءت العائلة وطارت العائلة، فارتحت من غباء المرأة، وأزعجك غياب الصغار. وجاءت رورو وظلت تأتي وتذهب، وجاء كاسب، وظل يأتي، وواصل فالح زياراته، وظهر الشيخ غضبان وأخذ يزورك ليطرد غربته وكنت تشرب، مع هؤلاء جميعا، القهوة، وتجلس، بعد أن ينصرفوا، لتواصل، روتينك اليومي : القراءة والكتابة ومشاهدة التلفاز مساءً. وحين كان الشوق والحنين يستبدان بك ترفع سماعة الهاتف وتحادث الصغيرتين. تطرد بعض وحشتك، وتمارس عادات أخرى. تفتح باب الغرفة. تراقب المارة. تشرب القهوة. تدخن سيجارة، وتذهب بين الحين والآخر لزيارة أبو حسين الكردي وزوجته الفلسطينية. وكان يمكن لهذا أن يتواصل.

تختلف رورو بعد عودتها من القدس، ويختلف أيضا فالح بعد عودته من الوطن. وتلحظ انمطافاً حاداً في سلوك كاسب. كان كاسب قبل شهر يقول لك : "حين أقفل عائدا وأرى ألف نون في القدس فلن استقبلها" وفجأة يأخذ يدافع عنها. يستقبل ماورو بعد أن كان يلومك لاستقباله، ويعده بأنه سيستضيفه في بيته في القدس. تتذكر ما قالته لك ألف نون عن فالح. تتذكر كلام ألف باء راء. تتذكر كلام رورو بعد عودتها من القدس وتسافر إلى بون.

تلتقي وأنت في الطريق بيوسي وحاتو القادمين حديثا من البلاد. تسألهما عن الوطن فيحضر أمامك. تهمس : "كأن يوسي وحاتو لم يتغربا من قبل" تمر بذهنك صورة عواجيز المدينة وتضحك حين يختليان معاً ليتباحثا في أمر أحضار الطعام. تقول لهما : "تذهب ونحضر ما نريد". وتقص على مسامعهما بعض ما تعلمت هنا. تقول لهما : "لقد أقلني الشاب

الألماني بحافلته ودفعت جزءاً من ثمن البنزين، وكذلك فعلت الشابة التركية" وتواصل : "فالألمان اقتصاديون وتعاونيون أيضا" وتعود بك الذاكرة إلى أورليكا. كانت أورليكا تأتي لتتعلم العربية وتعلم زوجتك الألمانية، وحين دعتكم لزيارتها، حيث تقيم مع أستاذ اللاهوت، سألتكم عن مشروبكم. تقص هذا على مسامع يوسي وحاتو وتتذكر أيضا ليلة عيد الميلاد قبل المنصرم. تدعو الكنيسة الطلبة الأجانب الذين يرغبون في أن يحتفلوا معا بتسجيل اسمائهم ودفع خمسة ماركات، وحين لا يأتي هؤلاء يعتبر الألمان عن حزنهم لأنّ الطعام سيذهب سدى.

في مانهايم حيث يدرس يوسي وحاتو اللغة تحضر الضفة. تسأل بفضول عما يجري في بقايا الوطن. وحين تسير مساءً على الرصيف المحاذي لمعسكر الجيش الأمريكي تقول ليوسي : "والألمان ما زالوا محتلين أيضا ؟"

يحدثك يوسي عن الضفة. يحدثك عن الأهل والأصدقاء والجامعة فتطرد بعض الحنين. "لقد مضت أعوام ثلاثة" تقول له وتتابع : "وعلى الرغم من أنّ الحياة هنا جميلة، إلاّ أنّ المرء يحنّ إلى بؤس الضفة" وتواصل : "وعليك هنا ألاّ تفكر في هناك إلاّ قليلا". وتذكرك اسئلة يوسي عن اللغة بكاسب. تكرر كلامك : "المسألة مسألة وقت وصبر".

تنفق يومين في مانهايم. تلحظ السكن الذي يقيمون فيه فتستغرب. تقول ليوسي : "يبدو أنّ العالم الثالث يحمل معه بؤسه حيث يذهب" وتتابع : "فلأول مرة أرى، هنا في المانيا، سكنا يقيم فيه الطلبة الأجانب فقط". تجلس في المطبخ. تلحظ خلوه من الأواني. تسترجع إقامتك في مساكن الطلبة في مدينة الحرية وفي المدينة التي تقيم فيها وفي توبنغن. تقول ليوسي : "إنّ من عادات الطلبة الألمان ومن يقيمون معهم أن يشتروا الأواني للمطبخ ثم يتركونها حين يغادرون، فلماذا لاتشترون أواني معا ؟" وحين يصمت تتذكر الطلبة الجزائريين: "إنْ عُرِبَتْ خربت" وتكرره على مسامع الطلبة العرب.

تستقل ظهيرة الأحد القطار وتذهب إلى بون. تنظر على جانبي الطريق الذي يذكرك كلما مررت به بكلام أستاذ الاقتصاد الذي زارك قبل عام ونصف : "إن الطريق إلى بون، تبدو في فصل الخريف أجمل ما تكون" تبحلق في جانبي الطريق ويسحرك منظر الأشجار التي اصفرت أوراقها، وتذهب في جمال الطبيعة الأخاذ، وتكرر، كلما شدتك الطبيعة إليها، لازمتك: "لقد أزعج الصهيونيون العالم كله ببعض أشجار زرعوها".

تصل بون. تتجول في محطة القطار. تتصل برائحة وتنتظرها حتى تأتي. لقد جاءت

رائحة إلى بون لتواصل فيها دراستها بعد أن درست في الجامعة التي تدرس فيها. تتذكر رائحة الطالبة الفلسطينية الأب الألمانية الأم، الطالبة الهادئة الوديعة. تتذكر لقاءك الأول بها وزياراتها المتعددة لك ولزوجتك. كانت رائحة تأتي لتخرج زوجتك من غربتها، وأحيانا تصطحب معها الطفلة الكبيرة. تأخذها إلى المسبح حتى تترك لك ولزوجتك المجال للخروج معا. تأتي رائحة، كما تركتها. تستقبلك بفرح. تتحدث لك عن دراستها هنا، وتعرض عليك أية مساعدة تحتاج، ولا تتركك إلاّ حين يأتي مارتن ليقلك إلى المنزل.

تستقبلك العائلة بفرح كبير. تريك جيردة غرفتك وتدعوك لتجلسوا معا وترقبوا الأمور. تحضر النبيذ، وقبل أن يجلس مارتن على الكرسي يسألك مخيراً : "أي المقاعد ؟" ثم يقول لك : "من الآن فصاعداً تجلس، هنا، على طاولة الطعام" ويتابع : "وهنا يجلس فيلكس". وتحتسون معا نخب تعارفكم. وقبل أن تذهب إلى النوم تحدد لك جيردة موعد نهوضك صباحا. وتهمس : "هذه العائلة تعكس صورة عن حياة الألمان" وتواصل : "كل شيء مبرمج بالضبط. هنا ينبغي أن تصحو في السابعة والربع صباحا. هنا يصحو مارتن في السادسة والنصف وتصحو جيردة في السادسة، وفي السابعة والنصف يصحو فيلكس. ثمة حمام واحد يستعمله كل واحد في الوقت المحدد له".

تقول لك جيردة، حين تهمّ بمساعدتها في إعداد الإفطار : "هذه وظيفتي ومارتن، أما أنت وفيلكس فعليكما إعادة ما تبقى من طعام" وتفعل ذلك، وحين يكون لديك متسع من الوقت تساعدها في تنظيف الأواني، وتقترح عليك جيردة أن تعد للجميع وجبة طعام خاصة ببلدك.

تصبح جيردة أنا ومارتن صديقا وفيلكس أخا صغيراً. تسألهم عن إمكانية المساهمة في النفقات فيقول لك مارتن : "هذا مبكر"، وتدرك أن جيردة ومارتن يريدان استضافتك المدة كلها. تسأل جيردة، كل نهار، عما يمكن أن تحضره معك من سوق الخضار في وسط بون. تكتب لك، أحيانا، أسماء بعض الخضروات، وأحيانا تقول لك : "ليس هناك حاجة لأي شيء".

"كل شيء مبرمج في حياة الألمان" تهمس من جديد. يعود مارتن الذي أنهى الدكتوراه في المحاماة من عمله في الرابعة تقريبا. يتناول طعام الغداء، ويجلس يقرأ. وتعود أنت في السابعة تقريبا . فترتاح قليلا وتجتمعون، معا، لتشاهدوا نشرة أخبار الثامنة. تختلف جيردة مع مارتن الذي يؤيد ضرب العراق وتدمير قوته. تقف ضد الحرب ويناصرها في رأيها ابنها فيلكس. وتعقب أنت : "إذا كان عليهم أن يدمروا قوة العراق فلماذا لا يدمرون أيضا قوة اسرائيل الذرية ؟".

وتذهب وجيردة لتشاركا في مظاهرات ضد الحرب. تستمع إلى الألمان وهم يرددون مقاطع من قصيدة فولفجانج بورخرت : "قل لا" وتردد المقطع معهم. وأحيانا ينضم اليكما فيلكس. "إن فيلكس الذي لم يتجاوز العشرين من العمر يبدو أنضج من سنه" تخاطب نفسك، وتقول هذا، فيما بعد، إلى جيردة. لقد كان فيلكس عضواً فعالاً في حركة السلام الأخضر، وكنت تعجب حين يتحدث مع مارتن حديث الند للند. كان فيلكس يتحدث في السياسة ويتحدث عن الفن التشكيلي حديثا ممتعا. يذكر فنانين عالميين. يتحدث عن معارض زارها وتقف مشدوها.

"إن مارتن مغرم جداً بالفنون التشكيلية" تقول لك جيردة، وتحضر لك كتالوجات فنانين عرضت أعمالهم في المانيا. وتصطحبك العائلة، غير مرة، إلى معارض فنية في كولن ومنشن جلاد باخ واكسانتن. وتسألك جيردة: "هل لديكم معارض دائمة في الأراضي المحتلة؟" تصمت للحظة ثم ترد عليها : "علينا هناك أن نفكر في الخلاص من الاحتلال ! علينا هناك أن نفكر في إشباع بطوننا !".

"إن الحياة هنا عالم أخر. عالم مختلف تماما" تخاطب نفسك وتدرك هذا كل صباح. تصحو جيردة، كل صباح، باكرا. تذهب وكلبها في جولة حول الحي ثم تعود نشيطة. يموت الكلب فتحزن العائلة حزنا كبيراً. تشاركهم أحزانهم وتحتسي معهم كأس نبيذ حزنا على موت الكلب. وتتذكر الموتى على ضفة النهر. تتذكر أطفال غزة، وتعود بك الذاكرة إلى ما هو أبعد من ذلك. تعود بك الذاكرة إلى أيلول ١٩٧٠ ومجازر تل الزعتر وحرب ١٩٨٢ ومجازر صبرا وشاتيلا. وتصغي إلى الحوار الدائر دون أن تعقب بأية عبارة. "غدا نبحث عن كلب أخر" يقول مارتن، فترد عليه جيردة : "ليس بهذه السهولة" وتتابع : "غدا صباحا سوف أفتقده وسوف أفتقد أيضا جولة الصباح" وتضيف : "ولن أقيم حوارا مع النسوة في الشارع" وتدرك من خلال كلامها أن الكلب يعني لهم أشياء أخرى غير تلك التي يعنيها لكم في بلادكم. تقول : "إن الكلب هنا وسيلة تعارف بين الناس، وهو فوق ذلك طفل العجوز المدلل وأنيس الوحيد حين يتمشى على ضفة النهر". وتذهب جيردة إلى البوفيه. تحضر البومي الصور الخاصين بالكلب، وتريك صوره منذ اللحظة التي اقتنوه فيها. تلتزم الصمت، وحين تذهب إلى غرفتك تعود بك الذاكرة إلى مدينة الحرية.

كان أستاذ اللغة يتحدث عن الكلب بطريقة مختلفة كليا عن طريقة حديث أبناء العالم الجائع. يسأله ابن البرازيل وابن الأرجنتين عن ستر تفضيل الكلاب على الأطفال فيجيب :

"حين نذهب مساءً إلى البار لا نفكر كثيراً في أمره. يبقى حارسا أو نائما ولا يحتاج إلى رعاية، أما الأطفال" ويصمت.

"إنّ الذين يعتقدون أنهم محور العالم، وأنهم الصح عينه وأنّ غيرهم الخطأ عينه، مخطئون جداً" تكتشف هذا ويصبح شعارك المقدس. كانت والدة جيردة التي تقيم وحيدة في شقتها تزور ابنتها بين فترة وأخرى، وكنت تسأل جيردة حين تغادر والدتها : "أليس بالامكان أن تقيم معكم ؟". لقد كانت والدة جيردة تقيم في المدينة نفسها، وكانت تعد للاحتفال بعيد ميلادها الخامس والسبعين. وتسأل الأم نفسها السؤال نفسه، فترد عليك : "لا أستطيع" وتتابع: "لي صديقاتي ومعارفي وأكون في بيتي أكثر سروراً". وتذكرك أجوبتها بأجوبة أستاذ اللغة في مدينة الحرية. يتحدث أستاذ اللغة عن والده الذي يقيم وحيداً في الشمال. يتحدث عن ابنه الوحيد الذي يقيم أيضا وحيداً. ويسأله أبناء العالم الثالث : "لماذا لا يقيم والدك معك ؟".

تذهب كل صباح إلى مكتبة الاستشراق تجلس هناك ساعات طويلة. تلتقي بالطلبة من عرب ومن ألمان. تذهب ورائحة لتشربا، معا، القهوة. تتحدثان عن الوطن البعيد. تحدثك عن الأستاذ وحش. تقول لك : "إنه يختلف كليا عن الدكتورة ألف نون" وتتابع رائحة كلامها : "وعلاقته بالطلبة جادة". وتدرك هذا مع مرور الوقت. يمر شهران تلتقي خلالهما، مرة واحدة، بالأستاذ وحش. تتبادلان التحية العابرة. وإذا التقيتما بالممر، يسير كل باتجاه.

يستبد بك الضجر أحيانا فتغادر قاعة مكتبة الاستشراق إلى مكتبة بون العامة. تختار طاولة منعزلة. تنظر إلى الراين الجميل. لاتبصر البعيد فالضباب كثيف. تغلق الكتب. تراقب السفن والطبيعة وتهمس : "تبدو الطبيعة أسرة جدا على الرغم من أنّ الجو ماطر". تستعيد عبارة رائحة : "في بلادنا ليس هناك فصول. ثمة صيف طويل وشتاء قصير". تحدث نفسك : "يتحرك المرء هنا، في الشتاء، أكثر مما يتحرك في الصيف". تمعن النظر في الطبيعة. تعاود القراءة. يمر الوقت فتعاود النظر في الراين. "هنا قد يخرج المرء في ليالي الشتاء ويغيب طويلا. وقد يعود في الواحدة صباحا. هنا يخرج المرء من الغرفة غير مكترث لتساقط الثلوج". تقول لرائحة : "إن الشتاء في بلادنا موات".

تغادر بون في منتصف كانون أول. تودعك رائحة فتلحظ نبرة حزن في صوتها وانكساراً في نظراتها. تودعك رائحة وتفكر في أمرها. "إن رائحة تختلف عن كثير من الفتيات" تخاطب نفسك : "هناك فتيات ترغب في الحديث معهن، وهناك فتيات ترغب فيهن، وهناك فتيات تشفق عليهن". وتستطرد : "ورائحة تختلف اختلافاً بيّنا عن نينا وبربارة الشيتين، وتختلف

أيضا عن صديقتها كاترين التي كانت تأتيك دائما وتقول لها بصراحة تامة : لقاء عابر ليس أكثر"، فكانت توافق على مضض طامعة في أكثر من ذلك.

كانت رائحة تحدثك عن الأدب وعن دراستها فتذكرك بأندريا. وتستطرد أحيانا فتحدثك عن رحلتها إلى مصر ونظرة المصريين إليها. وحين تتمشيان على ضفة النهر أو تحتسيان القهوة في محطة القطار تراقب حركاتها ونظراتها. وتفتقدها حين تسافر إلى بريطانيا في رحلة علمية، وتعود فتحدثك عن زيارتها هذه.

تتساءل وأنت في الطريق : "لماذا لا تقترب من بعضنا أكثر ؟ تحجم وتحجم" تهمس: "ربما تدرك رائحة أنك ستعود إلى أسرتك، وربما تتردد أنت لكونها فتاة شرقية". تسأل نفسك: "قد يهمها المحافظة على نفسها لأنها تفكر في العودة إلى الشرق".

تقضي ثلاثة أسابيع في مدينتك ثم تعود، من جديد، إلى بون. تشارك في المظاهرات التي كانت تتصاعد. تستمع إلى المحاضرات التي تعقد. تشاهد التلفاز وتعيش لحظات الترقب. تعتريك حالة من القلق. تتصل بالضفة. تسأل الأهل عما يقولون. تقرأ بيانات ضد الحرب وتصحو كل صباح لتسأل جيردة إن كان هناك ثمة شيء جديد.

تترك المذياع مفتوحاً وتنام. تصحو في الرابعة صباحاً. تستمع إلى الأخبار : "لقد وقعت الحرب". تخرج من غرفتك. تسير مذعوراً. تصرخ على فيلكس. تتحدث بالعربية ناسياً أن فيلكس لا يعرفها، ثم تخاطبه بالالمانية قائلا : "لقد وقعت الحرب".

تذهب إلى الجامعة. يأتي الأستاذ وحش ليحاضر في النقد العربي. يعتذر ويفضل أن يستمع إلى ارائكم عمّا يجري. يستمع إلى آرائكم واحداً واحداً، وحين تقول له : "خسرنا حرب ٦٧ لأننا انتظرنا حتى هوجمنا، والشيء نفسه يمكن قوله الآن" يستدعيك إلى مكتبه، ويستفسر منك عن مصدر معلوماتك. تقول له : "استمع إلى المذياع" وتتابع حين يسألك : "كيف عرفت ؟ ألا ترى أن هناك فرقاً ؟" "نحن لا نتعلم". يصمت الأستاذ وحش وتعود به الذاكرة إلى أجواء ١٩٦٧. يقول لك : "إنّ كلامك يذكرني بكلام الطلبة العرب عام ٦٧"، ويسألك من جديد : "ولكن هناك أخباراً تقول إن العراق لم يخسر كثيراً في الضربة الأولى" فتصمت للحظة وتقول : "وهكذا قال الحكام العرب عام ١٩٦٧".

تغادر مكتب الأستاذ وحش. تذهب مع الفتيات. تجلسون على مقهى على ضفة الراين. تتحدثون عن الحرب ثم تذهبون لتشاركوا في مسيرات "أوقفوا الحرب". "إن الألمان ما زالوا يتذكرون الحرب العالمية الثانية" تقول لرائحة وتتابع : "ولهذا فانّ المظاهرات التي تجري في المانيا تبدو الأضخم في أوروبا".

يذكرك سؤال الأستاذ وحش عن مصدر معلوماتك بالفلسطينية سلمى. تأتي سلمى إليك ذات صباح، وتسألك عن كتب تتحدث عن نضال المرأة الفلسطينية وأوضاعها تحت الاحتلال. تقول لك إنها ستحاضر في الموضوع. لقد استغربت يومها سؤالها فهي تقيم في بون ولها ماضٍ نضالي. تجيبها ببراءة : "ثمة مكتب لـم.ت.ف هنا في بون. بامكانك الذهاب إليه". ويحيرك سؤالها، فسلمى تعرف في الأمر أكثر منك.

تقلقك أخبار الحرب والحرائق التي اشتعلت في بون، وتغادر المدينة.

ترى فولتا العجوز المتصابية وزوجها يشاركان في مظاهرات ضد الحرب. تسألك بعد أن أخبرتها أنك اتفقت مع الأستاذ وحش ليكون مشرفا ثانيا : "هل أخبرته بما جرى بيننا ؟".

تدعوك فولتا، بعد دعوتك لقضاء أمسية عيد الميلاد مع زوجها وجارتها، إلى بيتها لكي تقرأ ما كتبت. تكون وحيدة. تحدثك عن زوجها وعجزه جنسيا، وتقترب منك. تقبلك فتعتذر بأدب جم وتخرج. لقد كانت فولتا في عمر أمك أو يزيد، ولم تكن على قدر كبير من الجمال. "يوسف أيها الصديق" تخاطب نفسك وتتابع : "ولكنني لست على ذاك القدر من الجمال".

تقول لفولتا : "يا عزيزتي، هذا أمر خاص" وتتابع : "ومن غير المعقول أن أقول أي شيء بهذا الخصوص" وتواصل الكلام : "وسوف تكونين ممتحنتي في العلوم الاسلامية". وتصمت فولتا مقدرةً هذا منك. وتدعوك، من جديد، لتشرب القهوة معها ومع زوجها. تستفسر منك عن بعض العبارات والمفردات التي قرأتها في نص عربي. وتعرف منها، دون أن تعرف هي، ما يجري في الخفاء.

"كان يمكن أن تستمر علاقتي بفولتا على أحسن ما يكون" تقول، فيما بعد، مراراً. وحين تهاتفها بعد أن سلّم ألف باء راء الشريط تدافع عنك. تقول رأيها فيك. لقد كانت تدافع، من خلال دفاعها عنك، عن نفسها. فقد كانت ضحية من ضحايا ألف نون.

"ما الذي غير علاقتك بفولتا فيما بعد ؟".

لقد انقلبت الأمور كلها. جاء رد السفارة الاسرائيلية على طلب تجديد الوثيقة. وتَمّ اقتحام الغرفة في شباط. وكان خلافك مع ألف نون وتسليمه الشريط في نهاية شباط، وخسرت العراق الحرب وسافر الطلبه وانبعثت رائحة الغاز التي خلفها ستيف. لقد تحول العالم إلى كابوس. وعزز ذلك زيارة الأصدقاء المريبة. لقد انقلب كل شيء !!

تذهب إلى أم حسين وزوجها. تنفق ساعات ثم تعود إلى غرفتك. تنظر إلى السماء الحبلى. تستهويك الطبيعة. تتساءل : "هل يمكن أن يتوحد المرء مع الطبيعة إلى حد كبير ؟"

"هل يمكن أن يقول لك الطقس ما يجري معك هذا النهار ؟". في بون رأيت العراق يسحق، وتساءلت وأنت نائم : لماذا لم يقاوم صدّام ؟ وردّ عليك العراقيون : "لقد قاوم ولكنهم فاجأوه". وتهمس : "لو قلت للأستاذ وحش إنني رأيت العراق يدمر فسيسخر مني".

"ثمة خطأ صغير غير متعمد قد يدفعك إلى عوالم لم تكن تتخيلها. يقودك إلى متاهات لا تعرف لها نهاية" تهمس وأنت ترى الملابس البيضاء الداخلية وقد تغير لونها إلى ثياب لا لون لها. تخطيء فتضع قطعة ثياب ملونة لتحصل على ثياب ذات لون آخر، وتجتهد كثيراً حتى تعيدها إلى لونها الأصلي : الأبيض. تشتري مادة كيميائية لإعادة اللون الأصلي. تغسل الملابس مراراً فتنجح قليلا. ويسلم ألف باء راء الشريط، فتكاد تسفر من المانيا. "كانت الطائرة تحط على أرض رام الله، وكنت تتساءل : لماذا رام الله دون غيرها ؟ وتحاول ببطء شديد، العودة من جديد إلى المانيا".

تبصرك طالبة الاستشراق التي تقيم في الطابق الأول من بناية الطلبة فتأتي لتجلس إلى جانبك وتراقبان القادمين والرائحين من الطلبة. تعرف أنها مرسلة من أستاذ الآداب التركية الذي تكتب معه. وتسألك : "هل ستتحدث، ثانية، في السياسة ؟" وتصمت. تتركها وتذهب إلى المكتبة.

تجلس في غرفة التلفاز وحيدا. تأتي مانو الهندية. تتحدث معك فلا تجيب. تسألك، من جديد، عن العائلة فتصمت. تأتي كاترين الجميلة، كل مساء، لتشاهد التلفاز وتستمع إلى نشرة الأخبار. وقد تأتي وتغادر مكتفية بالقاء نظرة. ويأتي يورج. يحدثك قليلا. يدعوك لأن تذهبا معا إلى بار قريب. لقد أرسله الألمان ليتأكدوا مما تقول. "إنهم يريدون أن يعرفوا إذا ما كان المقول في الشريط يعبر عن موقفي دائما ؟" تهمس.

يصطحبك يورج إلى بار قريب. تنزلان الدرج. تجلسان حتى تأتي فتاة البار. يقترح أن تشربا نوعا معينا من النبيذ. توافقه الرأي. تشرب جرعة فتعرف أن نسبة الكحول مرتفعة. تتركه يشرب كأسه ثم تعرض عليه أن يشرب ما تبقى من كأسك. يشعر يورج بالنشوة ويبدأ يحدثك. يستفسر منك عن واقع الفلسطينيين. "إن يورج شاب لطيف ومثقف، وهو عدا ذلك يساري النزعة، ولعله من الخضر" تهمس. يحدثك وتواصل الصمت. تتركان البار في الحادية عشرة ليلا، وفي الطريق تبدو عليه علامات الفرح. يمجد المانيا. يذكر هتلر على مسمعك، فتؤثر الصمت. تدرك لعبة الألمان. "لقد أرادوا معرفة الحقيقة" وتواصل : "ويورج شاب جيد، وعليك منذ هذه اللحظة أن تخسر الأصدقاء واحداً واحداً. ستخسرهم ما داموا يأتون إليك

مدفوعين لمعرفة آرائك في الحياة وفي الناس وفي السياسة وفي المرأة" وتهمس : "لابأس. لابأس فخير للمرء أن يحيا بدون أصدقاء من أن يحيا بأصدقاء مخبرين حتى لو كانوا يعملون لإنقاذك". وتواصل : "لقد وصل الألمان إلى أم حسين وأخيها القادم حديثا من لبنان".

تذهب إلى أم حسين فتحدثك عن عملها في مطعم الباذنجان. تقدم إليك عربيا قادما من الداخل. يتحدث هذا عن رورو وزوجها ويسألك : "لماذا لا تزور رورو ؟" ويواصل : "لعلك قادم من الضفة ؟". يتحدث عن حياته هناك. يخبرك أنه درس عاما كاملاً في جامعة بيرزيت. "هناك كنت ألاحظ اختلافات الطلبة. هناك كان رجال السياسة يتدخلون في حياة الطلبة لأتفه الأسباب. كل جماعة من الطلبة لهم مرشدهم السياسي" وتصغي إليه وهو يتحدث. يصمت للحظة حتى ينتظر ردّ فعلك على ما يقول. تلتزم الصمت فيواصل الحديث : "ذات صباح صحونا، ونحن في منزل الطلبة، فوجدنا طالبا ميتا. لقد كان، من قبل، طبيعيا جدا".

تحضر رورو وألف نون وتسترجع حفلة الوداع. "هل كان من الممكن أن أصحو ذلك الصباح لو نمت على الفراش الذي يخصني ؟"

تسأل العربي : "كيف يسير المطعم ؟ وهل أنت واليهود شركاء ؟" "الأمور على مايرام" يرد عليك ويتابع حديثه : "نحن نعرفهم من هناك" ويخبرك أن رورو أخذت تعمل معهم في المطعم وتخبز لهم في البيت. ويتوجه إلى أم حسين قائلا : "وجئت إلى أم حسين حتى تقنع أبا حسين بالعمل معنا".

يأتي أبو حسين من العراق. يلتحق عام ١٩٦٨ بالثورة الفلسطينية. يراوده حلم صلاح الدين الأيوبي، فيكرر على مسامعك لازمته : "لن يحرر فلسطين سوى كردي جديد". ويشتم أبو حسين صدّام والعرب ويمجّد الفلسطينيين، ويبدى شوقا جارفا إلى العراق وأهله الأكراد هناك. وتسأله : "لماذا لا تعود إلى العراق ؟" وتكرر أمامه ما سمعت : "لقد عفا صدّام عن المنفيين جميعا !". يقول لك أبو حسين : "صدّام لا يصدّق". ويحدثك عن زواجه من أم حسين المرأة الصابرة.

تحن أم حسين إلى البلاد العربية حنينا لا حدود له. وتدرك سبب هذا جيدا. هناك فتاتان في مقتبل العمر تخاف عليهما من نشأة المانيا. وأبو حسين يحن إلى اللغة والتراب والأكراد". وتسأل أبو حسين : "لماذا لا تتعلم الالمانية فتطرد بعض غربتك ؟" "خليها على الله" يرد عليك ويصمت.

وتزور أم حسين صباح كل أحد. تحدثك عن إخوتها في لبنان. تقول لك : "لقد

استشهد لي أخ، واغتالت جماعة أبو نضال اثنين وخفنا على أخي الباقي فأحضرناه". كانت أم حسين من فترة لأخرى تشعر شعوراً حادا بالغربة. تضيق بها الدنيا وتتمنى لو تطير على بساط الريح، وحين تنتابها حالات كهذه تذهب إلى أشرطة الفيديو وتختار شريط عرس أخيها القادم حديثا، وتشاهد معارفها وأباها وأمها والناس في مخيم عين الحلوة، وتعود إلى هناك إلى لبنان ومخيم عين الحلوة. وعلى الرغم من حالة الحرب التي تسيطر على العرس، حيث كان العريس يحمل السلاح، تعاودها الأمنيات بالسفر.

تستمع إلى أحاديث أم حسين، وتخاطب نفسك وهي تتحدث بلهجة كسيرة : "لا أعتقد أن ثمة حزنا في العالم أعمق وأكبر حجما من حزن أم حسين" وتواصل : "ثلاثة إخوة وأب طاعن في السن يربي أحفاده وأم مريضة وأخ بعيد عن زوجته وطفلة لا يعرفها أبوها لأنه في المنفى وحياة اللجوء هنا وفوق ذلك كله أنفة وعزة نفس".

تجهز أم حسين، صباح كل أحد، الفطور وتنتظر وأبو حسين قدومك. يطردون بعض غربتهم وتطرد بعض غربتك وتصبح فرداً من أفراد العائلة. ذات مساء يسألك أخوها عن العلاقة بين الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية، وتلحظ أن أبا حسين يسجل المحادثة، فتغادر إلى غير رجعة. تهمس وأنت في الطريق : "لقد نفذ الألمان إلى هؤلاء أيضا. قالوا لهم نريد أن نساعده، نريد أن نعرف سبب مشاكله، ولكم أن نمنح القادم حق اللجوء السياسي".

تتصل صباح الأحد بصديقك الذي حضر معك إلى هنا. تقول له عما يجري، فيتصل بك، مساءً، يوسي وحاتو. يخبرك يوسي أنه أنهى فترة اللغة، وأنه سيحضر إلى طرفك غداً مساءً. تنتظر حتى السادسة مساءً فلا يأتيان. تخرج إلى الشوارع تمارس عادةً يومية. تشرب القهوة في مكدونالد وتعود. تجلس في غرفة التلفاز وحيدا. تعود إلى غرفتك. تنتظر من جديد. تسهر حتى ساعة متأخرة. يقرع الباب فلا تجيب. يقرع من جديد. تنظر من الشباك فلا ترى أحداً. تتساءل من الذي يأتي في هذه الساعة المتأخرة. يقرع الباب، من جديد، بانتظام. يقرع ثلاث مرات، فتهمس : "أيعقل أن يكون كاسب ؟" وتتساءل : "ماذا يريد ؟". تتذكر ما قلته له من قبل : "إذا جئت فاقرع الباب ثلاث مرات حتى أعرف أنك أنت". تنظر من الشباك، من جديد. تنظر جهة الجسر فتبصر يوسي. تفتح الباب وتستقبله. يخبرك أنه وحاتو هنا، منذ ساعة. تقول : "أعرف ولم أكن أتوقع أن تكونا أنتما". وتتابع : "فلقد انتظرتكما حتى السادسة وقلت ربما غيرا رأيهما".

يحيرك مجيئهما في هذه الساعة، ويحيرك أكثر أنهما قرعا الباب، بانتظام، ثلاث مرات.

تعرف، فيما بعد، أنهما جاءا في هذه الساعة المتأخرة ليتأكدا فيما إذا كنت في البيت أم لا. لقد قيل للألمان إنه لا ينام في بيته وإن عاد فيعود متأخرا، وأراد الألمان أن يتأكدوا من ذلك.

تذهب معهما إلى المدينة المجاورة. تقيم ثلاثة أيام ثم تعود قافلا إلى شقتك. لقد كان يوسي وحاتو يراقبان كلّ صغيرة وكبيرة في سلوكك ثم ينقلان ذلك تلفونيا. تقول هذا ليوسي حين تزوره، ثانية، بعد أسبوع. تخاطبه : "أيها الملعون، أخشى أنك تقول كل ما يجري بيننا إلى الألمان". يصمت للحظة ثم يعقب : "وهل تشكّ فيّ ؟". تصمت ثم تسأله عن سرّ السمكة. لقد حيرتك رسالة حاتو : "هل تصدق أننا، بعد سفرك، أكلنا سمكة وزنها أربعة عشر كيلو ؟! ولله في خلقه شؤون !!". يحتار يوسي في الأمر. تأتيه رسالة من حاتو فيعطيك إياها لتقرأها. يقول فيها : "إذا سألك عن السمكة فقل له نعم فعلنا ذلك" ولا يدقق يوسي في الأمر. تتأكد من لغة الإشارة، وتتأكد من أنّ هناك صلة بين يوسي وحاتو والألمان.

ويبدأ يوسي، من جديد، اسئلته الفضولية. يتحدث عن النساء هنا والنساء هناك. يخبرك عن تساقط شعره. يعرض عليك أن تذهب معه إلى طبيب ليستشيره في الأمر. تقول له : "إذهب وحدك" وتهمس : "لقد قالت بيبو لألف نون، إذن ما قلته على مسمعها بهذا الخصوص". كنت تخرج من الحمام، وكان يصيبك صداع شديد. يتساقط شعرك بصورة لافتة للنظر. تسأل الطبيبة اللطيفة الطبية، وأنت في الشارع، عن سبب هذا فتقول لك : "ربما يكون الأمر مجرد حالة نفسية" وتتابع : "ويمكن أن تزورني في العيادة لإجراء فحوصات طبية والتأكد من ذلك".

تقيم عند يوسي مدة اسبوعين. تستقر فيلاحظ ذلك عليك. يقول لك : "كنت أظنك تهذي حين قلت لي عما يجري معك" ويتابع : "ويمكن أن تقيم هنا فترة أطول".

تترك يوسي وتغادر. يعتقد الألمان أنه أبلغك بما يجري حولك فيستاؤون من ذلك. تتصل بفولتا فتسألك هذه : "أين كنت ؟" تبلغها عن زيارتك ليوسي وتمدحه. تتصل فولتا بأستاذ الآداب التركيه لتخبره أنكما متفقان معا. ويفاجأ الأستاذ حين تقول له إن الغرفة أخذت تفتح مزاراً، ويفاجأ من كلامك : "لقد سممتم حياتي كلها".

تزورك بيرجيت بعد أن يزورك يوسي وحاتو. تهمس بيرجيت : "لقد مرّ عامان على زيارتي الأولى" وتتابع: "وها هي الأيام تمرّ سريعا" وتسألك عن العائلة والطفلتين. تتحدث لك عن زوجها في دمشق وتحضر لك نسخة من روايته الجديدة.

مساءً تخرجان معا. تذهبان إلى البار القريب. تتناولان طعام العشاء وتحتسيان البيرة. تشرب بيرجيت القدح الأول فالثاني فالثالث وحين تكتفي بقدح تتعجب وتسألك : "ألا تشرب سوى قدح واحد ؟" "لست مغرما بشرب البيرة إلى هذا الحد. وتذكري أنني لست ألمانيا" تجيبها. وتحدثك بيرجيت عن دراستها وعن أيامها في سوريا. تثرثران معا عن ألف نون وانتقالها إلى برلين، وتقترب الساعه من الحادية عشرة فتغادران. تسيران في الشوارع غير مكترثين لبرد أذار. تقفان على الجسر. تستمعان قليلا إلى هدير الماء. تهمس : "إنّ الطبيعة الألمانية فاتنة" وتسألها : "هل تعجبك الشام ؟" فترد عليك : "بالتأكيد". وتواصلان السير باتجاه مبنى الطلبة. تسألك بيرجيت قبل أن تفتح الباب : "ولكن أين سأنام ؟" فترد عليها ضاحكا : "تنام معا في فراش واحد" وتنظر إلى ملامح وجهها لترى ردّ فعلها على ما قلت، ثم تواصل كلامك : "ثمة فرشة إضافية يا بيرجيت، أنام في المطبخ وتنامين في الغرفة".

تذهب بيرجيت إلى سيارتها. تحضر حقيبتها وتعود. لقد كانت بيرجيت على علاقه بكاتب فلسطيني يقيم في دمشق، تزوجته فيما بعد. "ما دامت صديقة فلسطيني فلتحترمها جيداً" تخاطب نفسك.

تسألك بيرجيت : "هل حقاً انتحر كافكا ؟" تقول لها بعد أن تدرك سرّ سؤالها : "لا أعرف هذا" وتتابع : "وعموما فلا ينتحر سوى العجزة".

وتدرك أن بيرجيت قادمة من طرف الألمان. وتتركها تذهب في الليل وحيدة. تخاطب نفسك : "ومن المؤكد أنّ الألمان سيقولون إنه عاجز، وإلاّ فكيف تنام، عنده امرأة دون أن يغازلها".

تسألك فولتا في اليوم التالي : "آه ماذا فعلت الليلة ؟ هل سهرت كثيراً ؟" وتضحك، وتدعوها لكي تشربا وبيرجيت القهوة. تأتي بيرجيت وتقدمها إلى فولتا على أنها زوجة صديق فلسطيني.

وتسألك يوهان، عندما تلتقي بها في الرابعة مساءً، أسئلة مشابهة لأسئلة فولتا. تلتقي بيوهان في سوق المدينة وتقترب منك، ثم تقول لك : "يبدو أنك سهرت طويلا الليلة !" وتتساءل : "من الذي أخبر يوهان ؟" ثم تقول لها : "لا شك أنك شهية جداً يا يوهان، ولكنك أيضا مريبة جداً" وتسيران باتجاهين مختلفين.

وتغادر بيرجيت بعد أن تقضي يومين. تدافع عنك في غيابك. تقول للألمان : "إنه أعقل منّا جميعا، وإن كل ما يشاع عنه ليس صحيحا". وتتصل بيرجيت في الثامن من تموز لتعبر لها

عن استيائك من فعلتها. تريد أن تقول لها : "كيف تأتين مدفوعة من الآخرين ؟" فترد عليك أمها. تخبرك أنها نائمة. تتصل بعد ساعتين فترفض يرجيت مكالمتك. تهمس : "إن يرجيت شابة ممتازة. فلقد أخذ ضميرها يؤنبها على فعلتها، ولهذا ترفض الحديث معك". وتقدر يرجيت لهذا.

لقد جاءت يرجيت وذهبت يرجيت. جاءت كما جاء غيرها ولكنها كانت تختلف عن غيرها. كانت تختلف تماما، بالضبط كما كانت أم حسين تختلف.

تتصل وأنت في مطار نورنبرج، في التاسع من تموز، بأم حسين وتخاطبها قائلا : "لم أكن أتوقع منك هذا؟" فترد عليك بصوت كسير : "ولكننا لن نتركك تذهب دون أن نسأل عنك أو نبلغ عما جرى معك". وتتذكر كلام عبد الله الجزائري.

تنظر إلى الطبيعه في بداية نيسان وتحزن. تهمس : "إن الطبيعة تحتفل الأن بالحياة، وأنت تحتفل بالحزن" وتأسى لذلك. تهمس "لو سألني أحدهم عن الطبيعة لقلت : ولكنها دمرت. لقد دمروا كل شيء جميل." وتواصل : "ومن الآن فصاعدا علي أن أركز على ترتيب الغرفة وأن أمعن النظر جيداً في كل من يأتي. وعلي أن أتساءل : ماذا يريد الشخص القادم؟"

ينظرون إليك وأنت ذاهب، وينظرون إليك وأنت قادم. يراقبون طعامك، ويراقبون ثيابك. ويأتون مساءً إلى غرفة التلفاز ليشاهدوا فيما إذا كنت تواصل الاستماع إلى نشرات الأخبار. يرسلون إليك الجزائري ليسألك عن غرفة للايجار، وتلتقي بالمغربي فيتحدث لك عن قذارة العرب، وتذهب إلى مغربي آخر فيتحدث لك عن خيانة الأصدقاء. وتلتقي بفولتا فتجدها تارة مرحه وطورا غاضبة. وتكرر فولتا سؤالها : "هل أخبرت الأستاذ وحش بما حدث معنا ؟" وتدرك أنهم جميعا ينظرون إلى الأستاذ وحش نظرة خاصة. وتهمس : "سوف أغادر إلى بون من جديد".

تنفق الأيام. تنتظر نهاية نيسان. تتصل بك رائحه بناء على طلب الأستاذ وحش. تسألك عن رقم هاتفك فتقول لها : ٨٧١١٢ وتعيد رائحه قراءته ١١٨٧٢ ولا تصححها. تعطي رائحه الشريط إلى الأستاذ ليقول : لعلها الغربة والوحدة. "وحين تذهب إلى الجامعه تجد الطلبه العرب ومانويل اليهودي وماورو ويوهان، تجدهم جميعا فرحين. تلتقي بفولتا فتسألك : أليس رقم هاتفك هو : ١١٨٧٢" تبتسم وتجيبها : لقد أعطيته صحيحا لرائحه وأعادت قراءته خطأ والتزمت الصمت. تتناولان طعام الغداء معا وتفترقان لتخبر فولتا الأستاذ وحش بذلك فيختفي الطلبه ويتراجع الأستاذ وحش عن تفسيره.

تتصل بسليمان القادم من بيت ساحور. تسأله عن امكانية ايجاد غرفة لمدة شهرين. يبحث لك ويكون الجواب بالنفي. تتصل برائحة وحين تعتذر تعود لتستقر، من جديد، لدى العائله.

تغادر المدينة وحيداً. تترك خلفك العرب واليهود والطلبه الألمان. تترك خلفك أندريا وغرفة التلفاز وجارك الطيب فيليب. وتهمس : "إذا كان هناك من تحترمه في هذه المدينه فلا شك أن معظم هؤلاء الطلبه جزء ممن يحترمون".

تتذكر في الطريق الطالبة التي قبعت طويلا في غرفة الغسيل. وتلك التي لاحقتك في مطعم الجامعة. تتذكر الأخيرة وهي تدعوك غير مرة لشرب القهوة. تهمس : "إن الألمان يريدون معرفة الحقيقة" وتتابع : "فالأولى تشبه نينا والثانيه تشبه بربارة سلوكا، وبما أنني قلت ما عندي فقد قال الآخرون ما عندهم، ويريد الألمان معرفة الحقيقة".

تذهب إلى غرفة الغسيل فتجد الطالبة وحيدة. تطرح عليها السلام فترد عليك. تسألها إن كانت تقيم في مبنى الطلبه فتنفي وتقول : "إنني أقيم في بناية قريبة، ولكنني لا أملك غسالة وجئت الى هنا." تتحدثان معا. تنتظر غسيلها. وحين تغادر لا تمانع في شرب القهوة معا. تذهبان إلى غرفتك وتتابعان الحوار. تسكب لها كأس عصير فلا تشرب منه إلا جزءاً بعد أن شربت كأسك. تحتار في أمرها. تفعل ما فعلته نينا يوم جاءت إلى زيارتك ثم تنصرف بعد نصف ساعة. وتتذكر الطالبة التي تقيم في المبنى. لقد التقيتما لأول مرة في بقالة بيع العصير. تعارفتما وعدتما معا. أعطتك رقم غرفتها ودعتك إلى شرب القهوة معا. ولم تذهب، وحين التقيتما، من جديد، في مطعم الجامعة، جاءت لتجلس بالقرب منك وكررت دعوتها. تذهب إليها في الموعد المحدد. تجدها وحيدة. تدعوك الى الجلوس. تتحدثان قليلا ثم تلحظ انشغالها فتعتذر، ولكنها تحدد لك موعداً آخر. تدعوك أن تعود السبت لزيارتها، وحين تغادر الغرفة تلقى نظرة على الصور المعلقه على الحائط. تعجب لأمر الفتاة، وتهمس : "تبدو غير طبيعية". تقترب منك فتقترب منها. تقتربان ثم تنظر عبر الشباك وتغادر. تذهب هي إلى الألمان وتقص عليهم ما جرى.

تصل إلى بون، الجمعة، وتذهب إلى العائلة. تقص عليها ما يجري معك. تطمئنك جيردة. تقول لك : "عليك أن تترك الأن مخاوفك كلها" وتتابع : "تأكل مما نأكل وتشرب مما نشرب" وتعود إلى عادتك اليومية. تحاول أن تنسى ما جرى معك فلا تستطيع. تذهب صباح السبت إلى مكتبة الجامعه. تجلس على الطاولة، تقرأ مستعداً للامتحانات. تراقب السفن والنهر

والطبيعه الجميلة. تنظر في المكتبة فتلحظ انجليكا. تتبادلان النظرات. تتحدثان قليلاً وتواصل القراءة. كانت انجليكا طالبة الدراسات الشرقيه القادمة من مدينة الحرية قد دعتك، من قبل، لزيارتها في منزلها القريب من منزل العائلة التي تقيم عندها. لقد قدمتها إليك كاترين المرأة الرجل وأخذت تخاف عليك منها. "يمكن أن تصادق" قالت لك كاترين يومها وواصلت : "ولكن شرط أن أكون صديقتك الوحيدة". تترك انجليكا في المكتبة وتغادر لترى رائحة، ولكنك تهمس : "أمن المعقول أن يكون الاستاذ أرسلها خصيصا ليرى إن كنت في المكتبة أم في مكان آخر ؟"

تذهب إلى رائحة. تشربان القهوة معا. ثم تغادران لتتمشيا على ضفة النهر. تكرر رائحة لازمتها : "إن الجو في بلادنا ليس سوى صيف طويل وشتاء قصير، والطبيعه ليست أكثر من جبال جرداء". تحدثك رائحة عن أطروحتها. تقول لك : "إنني أنتظر قدوم أمي حتى تصحح لي اللغة" وتتابع : "فقد اعتذر جدي عن المجيء". وتتحاوران طويلا، تتحدثان عن الوطن وألف نون والأستاذ وحش والدراسه. وحين يقترب المساء تفترقان. وتدرك أن رائحة تقول كل ما تستمع إليه منك إلى الأستاذ وحش.

تهمس : "لقد غادرت المدينه للمضايقات التي عشتها هناك لأجد نفسي محاصراً هنا". يرسل الأستاذ وحش إليك الطلبة واحداً واحداً. يختبرك في كل ما يقال عنك هناك. يريد أن يعرف الحقيقة.

تذهب إلى قاعة الاستشراق. تجلس للحظات. تنظر في الموجودين فتجد فتاة شقراء جميلة وطالباً عربيا ملتحيا. تدرك سبب وجودهما. وتهمس : "لقد أنفقت وقتا طويلا في قاعة الاستشراق هذه ولم أر أي واحد من هذين" وتتساءل : "ما الذي يريده الأستاذ وحش ؟". كانت ألف نون وغيرها يقولون للاستاذ وحش فيصدق ما يقولون. تبصر الجميلة والشيخ وتهمس : "هل وصلت الأمور إلى هذا الحد ؟" وتغادر قاعة الاستشراق.

تسير في الشارع. تذهب ظهرا إلى المطعم فتلتقي بكريستينا. تسألك هذه عن الدراسة. تذهب معك إلى المطعم. تتناولان الغداء معا ثم تذهبان إلى كافتيريا الطلبة. تحدثك عن صديقها اليمني وتسألك عن موضوع تكتب فيه حتى تحصل على الماجستير. تقول لك : "لقد قررت أن أكتب في الأدب اليمني" وتتابع : "وصديقي سيساعدني، ولكن هل يمكن أن تفيدني بهذا الخصوص ؟". تصمت للحظه ثم تقترح عليها أن تكتب في الأدب الفلسطيني. تسألك اسئلة عديدة. وتقترح عليها أن تتحدث مع الأستاذ وحش بهذا الخصوص : "بامكاني

أن أجلس معك ومع الأستاذ وحش" تقول لها وتتابع. "تناقش حول هذا الموضوع". تسألك كريستينا عن غسان كنفاني، وتسألك أيضا عن تأثره بأدباء أوروبيين، ورويدا رويدا تتحدث عن تفاصيل دقيقة في رسالتك. تسألك عن كتب رئيسة وأخرى ثانوية، وتبدي، في هذه الأثناء، حركات لافتة. تخرج لسانها. تمص شفتيها. تتحدث بغنج، وتنظر إلى جمالها ويعجبك أكثر من هذا لهجتها التي تشبه لهجة السوريين. وتسألها : "هل أعجبتك الشام يا كريستينا ؟"، فتهز رأسها. توحي لك بأن نعم. وحين تفترقان تعطيك كريستينا رقم هاتفها.

تذكرك كريستينا بسليمان الفلسطيني. لقد أعطاك سليمان عنوانه يوم التقيتما، معا، مع سلمى القادمة من قرية فلسطينية. كان سليمان حين زرته بعد وصولك إلى بون يتحدث معك عن الثقافة ويسألك عن المصادر التي استخدمتها في أطروحتك. وكان يعجب من كلامك. "هذه هي النوعيه التي نحتاجها في الغربة" يقول لك سليمان بعد جدلٍ طويل، وكان ينقل بدوره الحوار إلى الأستاذ وحش.

تغادر كريستينا. تتصل بها. يرد عليك صديقها اليمني. تتحدث معها بتفصيل أكثر. تلتقيان من جديد في ممر قاعة الاستشراق. تذهب إلى الأستاذ وحش، ويفعلون جميعهم الشيء ذاته. رائحة وسليمان والسوري ووداد المصريه. كانت وداد تأتي كل صباح تجلس ساعه أو ساعتين في قاعة الاستشراق. تصنع لك ولها الشاي. تحدثك عن زوجها ثم تقدمه إليك. تتحدث عن مصر والمصريين وتسألك أسئلة عديدة. تسألك عن الرموز الفلسطينية التي أفرزها الواقع الفلسطيني تحت الاحتلال. تطلب منك أن تكتبها لها. تسألك عن العائله وشوقك إليها. تتحدث لك عن حملة التنزيلات وتستفسر منك عن الهدايا التي اشتريتها لزوجتك. وتستدرجك في الحديث. وتهمس : "أما أن لهذا الحصار أن ينتهي ؟".

تسأل الأستاذ وحش إن كان كتب التوصية لأطروحتك. تذهب إليه. تحدد معه مادة الامتحان. وتقول له : "إنه لمن المحزن أن يعيش المرء هنا، كابوساً مستمراً" وتواصل : "ليس هناك ضرورة لكل هذا. أريد أن أنهي دراستي وأعود". ويدعوك الأستاذ وحش إلى الغداء. تذهبان معا. تعلق المعطف في الصالة الخارجية لمطعم الأساتذة. ولا تنسى أن تخرج بعض الأوراق المهمة لتضعها في جيب قميصك.

تقول للأستاذ وحش : "لست خطراً كما تتصورون. وأنا لست أكثر من مثقف فلسطيني يعمل محرراً ثقافيا في جريدة. ولكن الخوف مني يكمن في صداقتي لنشطاء سياسيين" وتصمت للحظه ثم تتابع : "وكل ما أرمي إليه أن أنهي دراستي وأعود". تتحدث له عن علاقتك

بألف نون، وتتحدث عن بربارة ونينا ويوهان. تقول له : "لقد جئن وبعثن الرعب في قلبي وذهبن". وتواصل : "ولهذا لا أقيم علاقة مع نساء هنا".

يتصل الأستاذ وحش بالعائلة. يطلب منها أن تقرأ الأوراق التي حرصت على أخذها معك من المعطف. وتصحو ليلا على مارتن يبحث في معطفك ليقرأ الأوراق. تتظاهر بالنوم وتترك الأمر يمر، وحين تصحو صباحا تتحدث جرده مع مارتن بما في الأوراق، فتتأكد. وتخاطب ذاتك : "هل يريد الأستاذ وحش معرفة فيما إذا كنت على اتصال بفلسطينيين هنا؟". كانت ألف نون وكاسب وروزو يقولون : إن الخلاف بينه وبين ألف باء راء خلاف سياسي. وكان يوسي وحاتو، في زياراتهم، يقولون على مسمعك : هناك في الجامعة، تارة يصنفونك على أنك فتح، وطوراً على أنك جبهة ديمقراطيه، وثالثه على أنك شيوعي. وكانا يسألانك فيما إذا اتصلت بجهة فلسطينية.

ترى، ذات نهار، زوج الجراب الذي تركته عند يوسي، في غرفتك، عند العائلة. تذهب الى جيرده وتقول لها بغباء : هذا ليس لي ومع ذلك وجدته هنا. وتتابع : لقد كنت أملك جرابا كهذا ولكني نسيته عند يوسي. تنفي جيرده أن يكون لها لزوجها، فتصمت حتى لا توقظ فيها الشكوك في أنك تعرف أنها على صلة مع الأستاذ وحش.

تتحول بون إلى كابوس. تهمس : "لقد جئت إلى هنا لأستريح استعداداً للامتحانات. وها هي بون تتحول إلى كابوس آخر". تجلس على مضض، تواصل ذهابك إلى قاعة الاستشراق والمكتبة. تسير على ضفة الراين وحين يستبدبك الحزن تذهب إلى رائحة. تقول لرائحة نهار أحد بعد أن أصابك صداع شديد إثر حمام صباحي : "إنني أشعر بقرف لا نهاية له". وتتابع : "لقد سمعوا حياتي كلها، وقد أخذت أشك في الناس جميعا. تصوري أنني أشك أيضا في يوسي" ولا تذكر رائحة بمكالمتك الهاتفية معها، ولا تكترث للمسجل القريب. "ليفعلوا ما يريدون وليسجلوا أشرطه قدر ما يستطيعون" تخاطب نفسك وتواصل : "ولتوصل رائحة إلى الأستاذ وحش كل شيء".

تذهب إلى ساحة الجامعة. تجلس وحيدا. تنظر الى المباني الجامعية وتأسرك بون بجامعتها. تلحظ الناس زرافات ووحدانا. تذهب الى الراين ثم تعود إلى ساحة الجامعة. تنظر إلى العشاق جالسين على المقاعد أو على العشب فتفرح لفرحهم وتحزن لأنك غير قادر على أن تحيا حياتهم. "يا أيها اللحم الفلسطيني تجمع واجمع الساعد" تكرر عبارات محمود درويش في رثاء شهيد وترثي نفسك. تجلس وحيدا. تحاول أن تقرأ فلا تستطيع. صداع.

صداع. وتعود إلى العائلة. تتناول معها طعام الغداء. وتسألك جيردة عما فعلته، وحين يلاحظون أنك تتحدث بطريقة عادية تقرر جيردة أن تهديك كتاب الأديب الايطالي الذي عاش في بون فترة قصيرة وكتب كتابا عنها. ولا تنسى، فيما بعد، أن تهديك الكتاب : "بون في أعمال لويجي بيراندللو" وتقول لك : "ونأمل أن تكتب ذات يوم كتابا عن بون". وتصمت، لتقول، مساء، للعائلة : "سأغادر بون في نهاية هذا الشهر". ولا تتحدث عن الكابوس الذي يضغط عليك.

تغادر بون كما جئت إليها : وحيدا مهموما حزينا. تنتظر أن تمر الأيام حتى تقول : وداعا المانيا. تحزن وأنت في القطار لأنك ستغادر هذا الجمال هربا. تتذكر الصغيرتين وفرحهما وهما في القطار. تسيران وحيدتين وتنتقلان بين الركاب، فيحادثهم الألمان بفرح كبير. "علينا أن نسافر دائما في القطار" كنت تخاطب نفسك وهما هنا، حتى يظل عالقا في ذهنهما. ثم أخذت تسافر في القطار خوفا. وتحضر الصغيرتان من جديد، تحضران حين يمر القطار بمحطة مطار فرانكفورت. تغمض عينيك ولا تحاول أن تتذكر المشهد.

تصل المدينة. تسير من محطة القطار إلى منزل الطلبة مشيا على الأقدام. تقف قرب دكان التركي. تشتري الشاورما فتبصر المغربي. تحادثه قليلا ويسألك بخبث : تشرب قهوة، ولا تعقب. تصمت حتى تنتهي من الأكل ثم تغادر بصمت. تَغَذ السير وتذهب حتى تفتح صندوق البريد. تقرأ رسالة يوسي المكتوبة قبل يومين من وصولك. وتهمس : لقد قالت رائحة، إذن، للأستاذ وحش أنني أشك في يوسي، وأنه مرسل من الألمان. تقرأ في رسالة يوسي : وهذه هي المرة الثانية التي تشك فيها في، ولم أكن أتوقع منك هذا". تختبر ذاكرتك جيدا. وتهمس : "لقد قلت له هذا مرة واحدة، وقلت المرة الثانية لرائحة، وأنا في بون" وتتابع الهمس: "ومن المؤكد أن رائحة قالت للأستاذ وحش ليخبر هذا بدوره يوسي". وتصرخ : "اللعنة عليك يا يوسي. اللعنه على القود". كان يوسي يأتي ويقيم عندك. يحدثك عن ضجره وخوفه من الدراسة ويبقى في المنزل النهار كله، وحين كنت تدعوه إلى الذهاب إلى المقهى كان يعتذر، ثم يقول : بامكانك أن تشتري نصف كيلو قهوة ثمن فنجاني القهوة" وحين زرته في بيته، عجبت كيف يعيش، وأدهشك أكثر أن الألمان دفعوا له أجرة المنزل مسبقا، ولمدة شهرين، ولم يكن هذا القانون سائدا. "اللعنة عليك يا يوسي" تهمس من جديد وتتابع : "واللعنة علي أيضا". تسترجع شخصية كارل في رواية كافكا (أمريكا) وتخاطب نفسك : "لقد أصبحت كارل الفلسطيني" ثم تضحك : "ومن قبل أصبحت أيضا يوسف بطل روايته المحاكمة.

تلتقي بالناس. تتحدث معهم بفرح كبير. تحاول أن تساعدهم. تفعل ذلك قدر استطاعتك ثم يكون منهم الخازوق الأكبر. هكذا ساعدت كاسب وفالح ويوسي أيضا. "ما الذي فعلته حتى وجدت نفسي مسوقا إلى هذا ؟" تهمس. "وتلح عليك صورة يوسف. كان يوسف. ذاهبا إلى عمله ذات صباح ثم وجد نفسه مسوقاً إلى المحكمة بتهمة ما". تكتب هذا في رسائلك العديدة للأستاذ وحش.

تجلس في غرفتك. تحاول القراءة. تذهب إلى المطبخ المشترك. تتحدث مع بيرجيت والكسندرا وفيليب. تتحدث قليلا مع أندريا أيضا. ثم تلحظ أنهم، من جديد، يحصون عليك حركاتك. تأتي الكسندرا مساءً لتلاحظ ماذا تأكل، وتأتي معها فتاة أخرى حتى تشهد على ما تقول. تزورك الكسندرا، في غرفتك، مرارا. تطلب، تارة، فك القود، وطورا تتحدث معك في الأدب، وتدرك سبب زياراتها. لقد أرسلها الألمان ليقولوا لها : قولي لنا كيف يتصرف معك. وتعجب لزياراتها حقا، فلم تكن الكسندرا من قبل هكذا.

تتصل بك فولتا. تطلب مساعدتك في قراءة نصوص وايضاح بعض النقاط لها. تجلسان معا. تصنع القهوة. تحاول هذه العجوز المتصابية أن تقترب منك، من جديد. تظل حذرا، وحين تهم بالانصراف تدعوك فولتا إلى غرفة نومها لتريك بعض الصور. تعتذر وتقول لها : إنني على موعد. وحين تبتسم لك تحدثها عن الفتاة الألمانية التي دعتك إلى غرفتها ثم وقفت معها لترى الصور الشاذة. "إذا كانوا يريدونك ويتصرفون هكذا، فلماذا تكون شرقيا حتى النخاع ؟" تهمس وأنت تزورهم، ولكنك لا تستطيع أن تفعل هذا مع فولتا العجوز. "أيها السادة" تهمس "إنني مصاب بمرض حب الجميلات". تغادرها وتتصل بأستاذ الأداب التركية. تقول له : "لقد سممتم حياتي كلها. لقد وظفتم قريبي يوسي حتى يتجسس علي وأصبحت أشك في الجميع فماذا تريدون، لقد أرسلتم الفتاة وما زلتم تفعلون الشيء ذاته ؟" يطمئنك الأستاذ ويقول لك: "ليكن الرب في عونك". ولكنهم لا يكفون عن لعبتهم.

تسير مساءً في الشوارع. لا تلتفت إلى جمال الطبيعة في نهاية مايو. تسير مسكونا بالخوف من الآخرين وتعيش الكوابيس ليل نهار. وتنتظر أول حزيران لتحادث أهلك.

"لو قلت للألمان ما رأيته تلك الليله هل كانوا يصدقون رؤاك ؟" تهمس. كانت الطائرة تقلك إلى بلدك إلى رام الله، من جديد. وكنت تحاول العودة إلى المانيا ببطء شديد حتى تنهي دراستك.

تتحدث مع أخيك. تتحدث له عما يجري، وعن خوفك وعن فتح الغرفة المتكرر وعن

زيارة يوسي واتصاله بالألمان. ويسألك عن كاسب فتقول له : "إنه لص كلصوص الثورة" وقبل أن تنتهي المكالمه يسألك إن كان بامكانه فتح طردي الكتب اللذين أرسلتهما وحين تقول له : "نعم" يعتقد الألمان أنك بحت له بكل أسرارك. يقولون: "إن الخلاف بينه وبين كاسب سببه المادة" وتهمس : "اللعنة عليهم، من الذي روّج هذه الأكذوبة، لقد عرضت علي ألف نون أن أعمل معها مرارا فرفضت".

تغادر إلى كارلسروة لتقيم هناك عند عبد الله، ولا يعرف بهذا إلاّ الأستاذ وحش وفولا. تقول لك الطبيعه ما يقال وما يجري. "لو قلت لهم إنني أقرأ الطبيعه وأعرف ما سيجري وما سيقال، لقالوا مجنون" وكنت تضحك وأنت وحدك : "هل حقا أنا يساري ملحد ؟" "لقد التقيت بالسيدة واقترنت بها في الأيام العشرة الأخيرة من رمضان، وجاءتني بربارة في الأيام العشرة الأخيرة من رمضان، وحتى وأنا في توبنغن جاءتني أندريا في رمضان، وفي الليله التي اقتادتني فيها نينا إلى بيتها، حيث مكثت ساعتين عندها، لم أنم حتى الصباح".

حين قلت للأستاذ وحش سأذهب لأقيم عند عبد الله، اتصل الأول بالثاني وقال له أن يكرر معك ما حدث معك، من قبل، يوم اتصل برائحة. يتصل بك عبد الله ليقول لك : "لقد اتصلت بك مرارا على رقم الهاتف ١١٨٧٢. أليس هذا رقم هاتفك ؟" فتقول له : "لو كان هذا رقم هاتفي لما كنت تتحدث معي الآن. إن رقم هاتفي يا عبد الله معك. إنه ٨٧١١٢" وتدرك أن الأستاذ وحش رتب الامور كلها. تتصل به لتقول له : "إنني أريد أن أعيش بهدوء، وأنك على اتصال بعبد الله". يرد الأستاذ وحش عليك : "ألا تثق بعبد الله ؟ أليس هناك من تثق به ؟" وتصمت ثم تذهب إلى كارلسروة.

تتذكر عبد الله يوم جاءك في مدينة الحرية مع المصري. كان عبد الله هادئا وديعا مثل قط. لقد احترمته يومها لهذا ولكونه جزائريا أيضا. "الجزائر مثل فلسطين" تهمس، وتتابع "وقد قدموا للقضيه خدمة قدر ما استطاعوا". وتترحم على بو مدين الرئيس الجزائري المتوفي. "من المؤكد أنني سأشعر بالراحة النفسيه عند عبد الله" قلت يوم قررت الذهاب للاقامة عنده. وتذكرت أيامك في مدينة الحرية. تذكرت لقاءك اليومي وذهابكم معا كل صباح الى المعهد. تذكرت أيام السبت والأحد والطعام المشترك. تذكرت حديث عبد الله عن أسرته وحنينه إلى أهله وهذا الحب كله الذي يكنه للفلسطينيين. "أنتم، الفلسطينيين، ينبغي أن تكونوا دائما جادين" كان يقول لك ويتابع : "والله ينبغي أن تضحوا حتى تسترجعوا بلادكم كلها". ولم يتردد عبد الله في ممارسة الطقوس الدينيه كاملة.

تذهب إلى عبد الله فتجده ينتظرك في محطة القطار. تتعانقان وتعود بكما الذاكرة إلى الوراء. تسترجعان، بايجاز، أيام مدينة الحريه ثم يبدأ عبد الله يتحدث إليك عن دراسته : "إنني أقرأ العديد من النصوص بالانجليزيه" يقول لك ويواصل : "وأقرأ بالانجليزيه أكثر مما أقرأ بالالمانية". وتسيران معا. تدخلان الغرفة وتنظر إلى الخارج. تقول لعبد الله : "الطبيعة الالمانية جذابة يا عبد الله" وتواصل : "أما زلت كما كنت. تسجن نفسك في غرفتك ولا تعرف العالم" ويبدي عبد الله قرفه. يتحدث بجزائريته المكسرة فتعيد على مسامعه لازمتك في مدينة الحرية : "نتحدث بالالمانية يا عبد الله، فربما يكون هذا أسهل لنا". وتواصل : "فالعاميه الجزائريه تبدو غير مفهومة". تنظر إلى التلفاز فتجد شرشفا عليه النجمة الاسرائيلية. تقول لعبد الله : "ألم تتنبه يا عبد الله لهذا ؟" وتعود بذاكرتك إلى الميندورا وبربارة. ولا تفكر للحظة في أن عبد الله يمكن أن يكون يهوديا. "لقد انتهى عبد الله بن سبأ" تهمس "وعبد الله هذا ولي من أولياء الله الصالحين". وتسأله : "أما عثرت على فتاة يا عبد الله؟" ويجيبك : "ما زلت أصلي وأذهب نهار كل جمعه إلى الجامع". تنظر إلى الشرشف ثانية، ويلفت انتباهك الحقيبة التي كان يحملها عبد الله، وسرعان ما يعبث بها حين تبدأن الحديث. تهمس مخاطبا نفسك : "لقد رتب الأستاذ وحش والألمان الأمر مع عبد الله إذن" وتواصل : "وحيث يعتقدون أنني أثق به فهم يريدون الآن اختبار صدق ما أقول". وتنظر إلى الشرشف من جديد. تتذكر نيقولا والحوار الذي جرى بينك وبينها في قاعة المحاضرات : "ألهذا الحد تكره النجمة السداسية ؟" كانت تقول لك وكنت تجيب : "لا أكرهها ولكنها تذكرني بدولة اسرائيل" وكانت ترد عليك : "ولكنني معجبة بها".

ويأتي أصدقاء عبد الله. يسألونك عن الغرب والاستشراق. يسألونك عن الاسلام ويختبرون ما يقوله الآخرون عنك حول هذا. يسألونك عن م.ت.ف. ورأيك فيها وفي أبو عمار. ويكون عبد الله وصديقه الأردني شاهدين على هذا، وحين تكونون في المطبخ، حيث تغيب الحقيبة، يذهب صديق عبد الله الفلسطيني المقيم في الأردن أصلاً ليتصل بالأستاذ وحش.

يقول لك عبد الله صباح اليوم الثالث لوصولك : "قد يأتي طالب الماني ويعطيك عنوان طبيب أسنان" ويذهب إلى هايدلبرج حيث يدرس. وتلتقي في المطبخ بالطالب الألماني. يعطيك العنوان ثم يذهب وحين تعود ظهر إلى الغرفة تجد العنوان على طاولة عبد الله. تتصل بالأستاذ وحش وتقول له : "لقد فتحوا الغرفة". يطلب منك الدليل فتشرح له القصة. "أبقَ مكانك ولا تخبر أحداً أين أنت" يقول لك الأستاذ وحش ويقتنع بما قلته له سابقا : "لقد

فتحوا الغرفة في غيابي ووضعوا إشارة ما، وفهمت ما يقصدون : إذا تحدثت بما تعرف فسوف تقتل".

ويبدأ الاستاذ وحش، من خلال عبد الله، بتجريب الأدوية في جسدك. وكنت تدرك أن ثمة ترتيبا مسبقا للأمر. يبدي عبد الله والأردني ملاحظتهما حول سلوكك، ويتم التصرف بناءً على ذلك. وحين تتحدث تلفونيا، مع أمك، وتخبرها بأنهم كانوا يضعون لك في القهوة مواد ترفع الضغط، يجرب عبد الله هذا ويفعل ما هو أكثر من ذلك. يجرب المواد التي تضعف القوة الجنسية وتلك التي تثيرها. يتركون لك فتاة البناية ليروا كيف تتصرف معها، وحين تسير في الشارع يلحقك طفل ليلاحظوا ردود فعلك. وحين تأتي الطفلتان الصغيرتان، ليروا اشتياقك إلى طفلتيك تتصرف معهما تصرف الأب. وتكشف لك القهوة هنا أشياء وأشياء. وتشاهد ما يجري. تريد أن تعرف كل ما يقال. ذات نهار تعود من الجامعة إلى المنزل، فيضع طالب الحليب على الغاز حتى يغلي ويندلق على الغاز. تدخل إلى المطبخ فتقول للطالب : رائحة حليب محروق. فيسألك الطالب : هل رأيت الحليب يغلي ؟ "لا". تقول له وتتابع : فالرائحة واضحة. لقد أرادوا أن يختبروا فيما إذا كنت تميز بين رائحة الغاز ورائحة الحليب.

كان الطلبه الألمان يلمحون. يضعون العلم الأحمر على مرآك ليلاحظوا ردود فعلك على ذلك. وكانوا يتحدثون عن رحلة إلى لينينغراد، أو دعوة الأب لزيارة المانيا. يتحدثون عن النقود والقريب السجين هناك. وكنت تصغي إلى ذلك كله بصمت. "لقد ملوا من لعبة الحديث عن الثورة ونقدها والجبهتان الشعبية والديمقراطية إذن، ويحاولون الآن الحديث عن اغراءات" تهمس، وتخاطب نفسك : "ولكن ما الذي يقصده الاستاذ وحش من وراء ذلك، وما هي مصلحته في أن أصمت ؟ هل يخاف على سمعة المستشرقين الألمان أم أنه متعاطف مع الاستاذ ألف نون إلى حد بعيد ؟" وتواصل : "وليمكث قريبي في السجن حتى الابد، واللعنه على زيارة المدن وعلى النقود أيضاً، واللعنه على هناك وعلى الفاكس الذي يلغي المسافات ويحضر الوطن إلى هنا بعد أن حوّل رئيس المؤسسه وجهات أخرى إلى مخابرات. اللعنة على الكل. حتى الصغيرة حولوها إلى مخبر يطلبون منها على الهاتف أن يقول لك كلاما ما ليعرفوا ردود أفعالك ازاءه. الصغيرة التي كانت تختلف عنهم كلهم فتقول لك ما يساعدك على مواجهة هذا العالم".

"اللعنة على عبد الله" تهمس، وتواصل : "واللعنة على هذا العالم كله. لقد جئت إلى هنا إستريح فماذا وجدت ؟" وتغادر كارلسروه دون أن تقول لعبد الله. تغادر الطالب الألماني

والطالبة الفلسطينية القادمة من بيت لحم والطالب الفلسطيني القادم من الكويت والطلبة العرب الذين تعرفت إليهم. وتغادر أيضا تلك المرأة التي كانت تتعقبك في الكافتيريا، خطاك لتحصي عليك خطواتك. وتغادر أيضا ذلك الشاب الذي جاء يتظاهر وكأنه أهبل ليذكرك بما قلته عن ذلك الرجل الذي جاء إليك بعد حرب الخليج ليسألك إن كنت عربيا فأجبته بأنك ايطالي، ونجوت من موت محتم. تتذكر الحوارات كلها : حوار عبد الله معك وأنتما جالسان أمام الفتاة ذات الشعر الأحمر. حوار الطالب الجزائري معك عن فترة اللغة وحوارك مع الطالبة الفلسطينية التي ظنوا أنها تقول لك سرّ ما يجري.

تتصل بالأستاذ وحش وتقول له : سوف أغادر المدينة فيسألك : إلى أين تذهب ؟ إلى فولا ؟" "لا" ترد عليه وتدرك ما يرمي إليه. لقد ظن الأستاذ وحش أنك ستذهب إلى فولا لأنك أعطيتها عنوانك في كارلسروه، وأنها كانت تقول لك، بدورها، أنك مراقب، لاعتقاده بأنك ثمة علاقة بينك وبينها. وتتصل، بعد ثلاثة أيام، بعبد الله. تقول له : إذا كنت تصلي وفعلت هذا، فكيف لو لم تكن تصلي ؟" ويرد عليك عبد الله ونبرة حزن تطغى على صوته : "صدقني يا أخي أنني مريض منذ غادرت". وتقول له ساخراً : "على أية حال شكراً لاستضافتك".

وتلتقي بفولتا. تقول لك وأنتما في الشارع : "من المؤكد أنك حين تعود إلى المانيا ثانية لن تزور هذه المدينة" فترد عليها : "لقد كنت المشاهد الوحيد لمسرحية كارلسروه" تتصل فولتا بأستاذ ما، لعله الأستاذ وحش أو أستاذ الآداب التركية، ليبدأ الحصار والمتابعة من جديد. وتنتظر أن تمر العشرون يوما الباقية حتى تغادر المانيا وتخرج من هذا الحصار.

"لو قلت للآخرين عنا لاقيت لربما يقولون مجنون يهذي" تخاطب نفسك. تقدم الامتحانات. تحصل على شهادة مؤقتة وتغادر. تغير موعد الطائرة المقرر من نورنبرج إلى فرانكفورت وتنفق ليلتك، في مطار فرانكفورت، وحيداً.

تتجول، في لحظات الفجر، في المطار. تنظر إلى الواجهات الزجاجية. تشتري كتاب سوزان أزادي "الهروب من ايران". تجرب الاتصال بجريدة الفضائح "داس بلد". تتذكر اتصال المساء وسؤال المرأة : "من المؤكد أنك تتحدث عن نفسك" وتهمس : "كان ينبغي أن أقول لها اسمي حين طلبت مني ذلك".

وتنتظر موعد الاقلاع.

تهمس حين ترى الطائرة : "الطائر الميمون أم الطائر الملعون". وتواصل حديثك : "والعود أحمد، وما من شك في أن المرء في وطنه سيجد نهاية للكوابيس".

تسألك المضيفة : "ماذا تشرب ؟" فتقول : "عصير بندوره" تنظر إليك هذه الفتاة البرية، تسألها حين تتكلم معك بالانجليزية : "ألست ألمانية ؟" وتواصل بعد أن قالت لك إنها كذلك : "فلتتكلم بالالمانيه إذن". "لقد طلبوا منها أن تراقب سلوكك".

تجلس على المقعد وحيداً. تنظر إلى اليهودي المتدين الذي يأكل بشهية كبيرة. تعود بك الذاكرة إلى الوراء. تتذكر المدينة والناس. تمر بذهنك صورة الشاب اليافع الذي كان يلاحقك بناءً على طلب من الألمان. تتذكر عبارته حين سألته عما يريد : "هل أنت مصاب بالبارانويا ؟". تتذكر بربارة ونينا ويوهان وماورو وكارل وألف نون وفولا وفولتا وستيف وكاترين وكارين وهوفر والأستاذ وحش وأستاذ الآداب التركية ويوسي وحاتو والعائلة والطبيعة وتتذكر رائحة وبيرجيت، ويلح عليك سؤال الأستاذ وحش : "ماذا ستفعل مع كاسب وألف باء راء ؟" وتمر بذهنك اللحظات الأخيرة.

كان الاستاذ وحش، وهو يستضيفك بعد انتهاء الامتحان، مضطربا. وقد كرر، من جديد، سؤاله، وأضاف : "ولكن من المؤكد أنك ستكتب عنا جرى معك".

تنظر إلى الطبيعة الألمانية الجميلة كلما جاءت المضيفة أو مرت بالقرب منك. تتذكر أبطال الأساطير الذين يعيشون المأساة منذ ولادتهم وتهمس : "بعض الناس ولدوا ليشقوا" وتواصل الهمس : "حتى لو عاشوا في المانيا، بين أحضان الطبيعة والنساء" وتسأل نفسك : "ترى هل سيصدقك الآخرون حين تقص عليهم ما جرى معك ؟". تتذكر، وأنت في الطائرة، عبارة الشاب اليافع الأجمل من فتاة : "لعلك مصاب بالبارانويا ؟" وتخاطب الأستاذ وحش : "ولكنني كاتب فاشل. كاتب لا يجيد صياغة التفاصيل ولا يحسن الوصف. فهل أكتب رواية أحداث ؟" وتلتفت إلى نفسك: "إن تجربة بهذا الحجم تحتاج إلى كتابة رواية ضخمة. إن أيام كارلسروه العشرة تصلح وحدها لكتابة مسرحية مثيرة. وأنا. هل أستطيع فعل ذلك ؟ أنا البرجوازي الصغير الذي يريد تدمير العالم في لحظة هل أستطيع الصبر على كتابة رواية ؟"

تتذكر زيارة الدكتور الأردني، وتسأل : "كيف يرضى لنفسه أن يقوم بمهمة المخبر ؟" ولا تنتظر جوابا : "إن ألف نون وزوجها مخبران، وهي أستاذه دكتورة، وقد تحولنا نحن العرب جميعا إلى مخبرين، ولم يقتصر الأمر على عرب المدينة التي أقيم فيها. لقد تحول أهل المدينة التي سافرت منها إلى مخبرين أيضا".

يأتي الدكتور الأردني ليقيم عندك يوما ثم يبقى يلاحظ سلوكك ويراقب حركاتك. يتصل بالأستاذ وحش بعد أن يكون أحصى عليك حركاتك كلها. وتدرك أنهم يتبعون خطاك

كما يتتبع القط خطى الفأر. وكنت تهمس: "الهدوء ولا شيء غير الهدوء. هذا كل ما أريد" وكنت تشتهي النساء، وتشتهي السهر وحيدا أو مع فتاة جميلة، وتتمنى لو لم يراقبك أحد.

تتذكر حوارك على الهاتف مع طفلتيك. تتذكرهما جيدا. لقد كانتا متقدك في هذا العالم. كانتا تقولان لك لغة سرية. تكشفان لك عما يجري، وكنت تراهما في النوم حزينتين واجمتين تطلعان إليك. كنت تستمع إليهما وتراهما. وحين جاءت إليك الألمانية، زوجة الفلسطيني اللداوي، لتجلس إلى جانبك وأخذت تحدثك عن الأطفال ازداد حزنك وقلت لها : "أرجو أن تكفي عن الحديث !".

ترقب البحر المتوسط من الأعالي. تنظر إلى جزر الشاطيء التركي. تنظر إلى السماء. وفي اللحظات التي أخذت فيها الطائرة تدور حول أرض مطار اللد كنت تكتشف الأكذوبة الصهيونية. تتذكر أرض المانيا الخضراء. وتكتشف أن فلسطين لم تصبح جنة. وتعود بك الذاكرة إلى داخاو والمخيم الذي نشأت فيه وتتساءل : "أكان ينبغي علي أن أزور داخاو وأنا هناك ؟"

تحط الطائرة على أرض المطار. ينزل الركاب، ولا تلقي بأية نظرة على الطائر الملعون.

تسألك المجندة الاسرائيلية بالانجليزية فيما إذا كنت ستعود إلى هناك ثانية. تنظر إلى رجل المخابرات الذي وقف يصغي إلى الحوار الدائر بينكما. وتهمس في سرك : "إن هناك لا يختلف عن هنا كثيراً". تنظر إلى المجندة وضابط المخابرات فتتذكر بربارة ونينا وكارل والدكتورة ألف نون والعرب والألمان وتهمس : "هذا العالم مهزلة. يقولون إنهم كانوا، هناك، ضحايا. ضحايا وجلادون ؟ لا يمكن للمرء أن يصدق هذا. ضحايا جلادون. ضحايا هناك جلادون هنا وهناك. يصدق المرء أو لا يصدق !".

وتركض إلى الوطن القاتل.